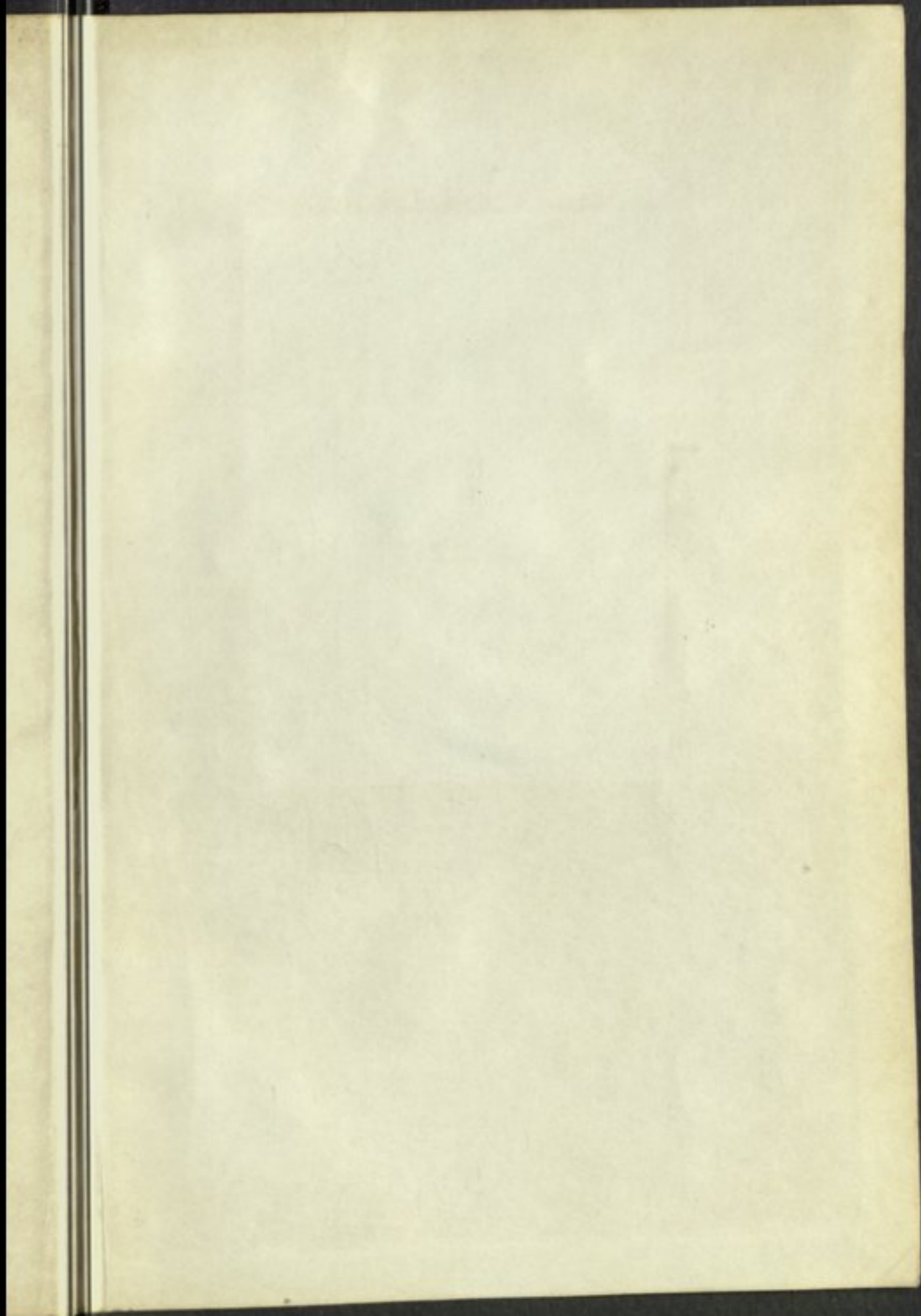


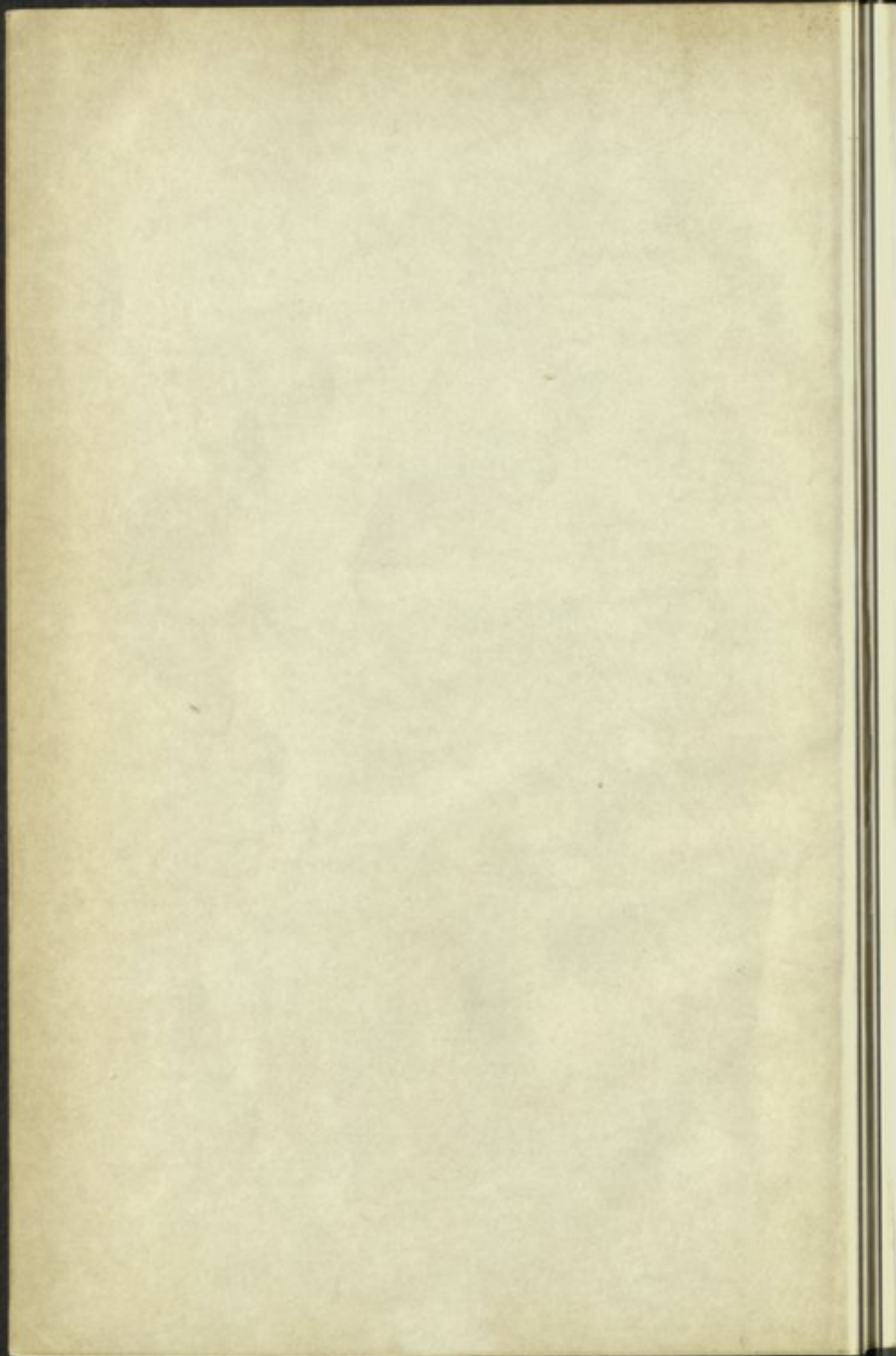
AMERICAN  
UNIVERSITY OF  
BEIRUT

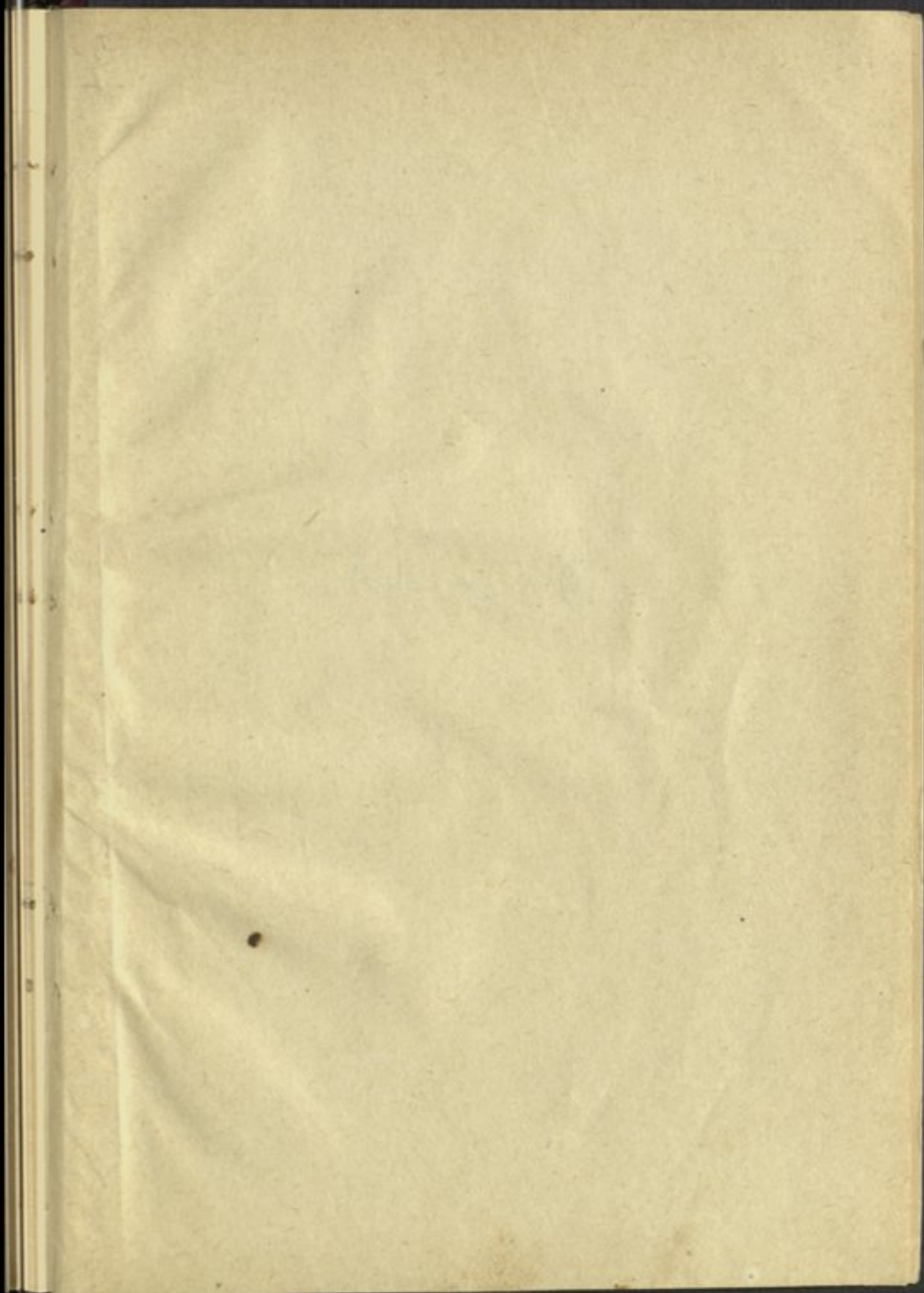




مكتبة جامعة القاهرة  
مخبر المخطوطات







892.78  
K182ct

ع. ۱  
کرم مجسم کرم

اطیاف من لبنان

مکتبه صادر  
ببیروت



حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٩٥٢/١١١



الى ابنتي سوسن وما

سأليني، يا سوسن، عن كتاب أهدي اليك. فما وقعت على خير  
من هذه « الاطياب » العابقة بالطهر، والفداء، ازجيبها  
الى روحك النضير. فهي من عندنا، من لبنان.  
ولقد خلعت عليها، من صفاء الطابع، ما لا يعدو  
الحق، وما لا يتنكر خلقك الوديع، الابي

وسئت، ان تكون اختك مها، شريكتك في الهدية. فيتكافأ  
الفضل، وتتساوى المنحة. وما كانت مها الا عديلة  
لك في نبل المهزة، ونصاعة الاحدوثة. وحسي، ان  
تردان، بهذه الرحانة الندية، هامتان نقيتان، تتشاحان  
في العفة، وتنحيان في المنة. ويطيب للبنفسجة،  
وهي اخت الزنبقة، ان تجمعها طاقة واحدة، وان  
توحد بينهما رفاقة الطريق

ان في « اطياب من لبنان » فوح شذا، ورونق حفاظ. وما  
اصبو الى ما يرجع هاتين الحلتين، الزكيتين، في  
ترصيع ايامكما البيض

في هذا الكتاب

ست اقا صبع :

١ - النهذ الكذوب

٢ - شريعة الغاب

٣ - عيد الميلاد

٤ - عرس في قرية

٥ - ذلفاء ، اخت الصقور !

٦ - جهاز العروس

النهر الكذوب

الجوع في كل مكان . في الجبل والسهل والوادي . والخوف  
من الموت يرسم في كل وجه . في وجه الفقير والغني والجندي  
الشاكي السلاح والقائد والزعيم . فالهول نشر ، في سنة ١٩١٦ ، على  
سوريا ولبنان ، بساطه الفاحم ، حتى بات الرغيف يشتري بالكرامة ،  
واضحت الروح بهوان التراب

وتدلت على الاعواد خير فئة من السوريين واللبنانيين ، بامر  
من القائد العثماني جمال باشا . وما تجرأ ذو نخوة على رفع الصوت .  
وان يكنمة من شاقه ان يهمس بنقمة ، في اذن اصدق اخوانه ،  
خشى ان يلقى في من أسرّ اليه بالنقرة جاسوساً ، فينتهي الى المشنقة ،  
ترجيه الى رحمة الله

واحترس الحدين من الحدين . وجثم الجزع بكل صدر .  
وامسى القوم بين ويلين يسعيان للنهش . ويل الجوع وويل  
التنكيل بالابرياء . فيكفي ان يقال ، في اي كان ، انه خائن للدولة  
العثمانية ، حتى يجرّه الجند إما الى المنفى ، وإما الى السجن ، وإما  
الى الاعواد

وتوارى عن العيان عدد جمّ من ذوي الشأن ، وقد ارجسوا

شراً مما نزل برفاقهم من فتكة . ففزعوا الى البراري يقتعدون  
الكهوف . وتسلقوا القمم يتغلغلون في الفجوات . فاذا اتفق لهم  
من يلتفت اليهم ، شكروا ، والا تنكروا لمن حولهم ، وقنعوا من  
دنياهم بالوحشة ، ريثما يفرجها الله . وليس من حال يدوم

واعالي بسكنتنا الوعرة ، الصلبة ، وقد توجها جبل صين  
بعيامته البيضاء ، شهدت حفلاً من هؤلاء المشركين ، الفارين من  
الموت . فنفروا اليها يلوذون بحماها ، ولن يجدوا مكاناً ارحم  
منها يقيم الحدثان . فالاقدام لا تتوقل في سوى النادر اليها .  
وقد يجول فيها الرعاة . ولكن غير هؤلاء لا يرتادها الا من  
طابت له المغامرة ، بل المجازفة . فيتعرف في الشوامخ  
الابكار الى روعة المعجزات . ولقد ضاعت فيها معالم الطرق وما  
زال على حالتها من الحشونة . فتدل على الازل بنواتها ومغاورها ،  
بقطوبها وجبروتها ، بوقارها ومنعتها ، وهي العابثة بالدهر والانسان  
ومع ان بسكنتنا تقعد الرواس ، وتستقر بالشاهق من  
الذرى ، فهي من صين في السفح . وليس لها ان تعلو اليه ولن  
تقوى فيه على مكافحة الزمهرير . واذا ما ارتقت الى هضابه ، بعض  
منازلها ، فيضطر في الشتاء ساكنوها الى هجرها . والثلج يظمرها ، وقد  
يدفنهم فيها

وما تورد على الثلج والبرد غير مسعود العابد . فظل يقضي

الشتاء في منزله القائم في التلال العالية، متحدياً العواصف القارسة،  
المقتلعة الاشجار والصخور. فيرسخ في القبو، وهو الطابق الاسفل  
من منزله، ويصطلي بما يضرم في الموقد من نار. اما طعامه، فقد  
أعد له العدة بما ازدهر من مؤونة. فليه اللبن المجفف، والدهن،  
والزيت، والبيض، والزيتون، والحبوب على متعدد انواعها.  
وما خلا القبو من الطحين. فيعجن مسعود ويخبز، واكداس  
الخطب وافرة لديه. ورفيقه في عزله كلب ضخم، امين، يرد عنه  
الطواري، ويدأب في مؤانسته بالحومان عليه

وفي سنة ١٩١٦، وقد طغى الجيش العثماني على لبنان واحتله،  
وقبض على الفئة المختارة من بنيه يذيقها من التنكيد ضرورياً،  
ويحرم الاهلين اللقمة كي يموتوا جوعاً، لم يتبدل مكان مسعود  
العابد من الاكمة. فهو ابدأ في منزله القائم بجوار صنين، يضحك  
في الصيف للشمس، ويبسم في الشتاء للثلج. ويعالن جميع ابناء  
بلدته ان القوي البنية من يثبت في مغالبة الزمهرير، وانه وقد  
ملك الجأش السليم، والجرأة، والصبر، يشكر لربه هذه الهبات  
الغاليات

ولمسعود، في جوار صتين، ارض واسعة، غرس فيها انصاب  
الحوخ والتفاح. وهي مورد رزقه. وما كانت تدر عليه بالبدل  
الزهيد. فيعيش منها على وفر، ويتقي الحاجة الغشوم. فلا ابتذال

## كذب الكفر

ولا ضيم ، بل رفاهة ورغد . والرفاهة والرغد يكلفان بعض العناء . وحرص مسعود على هذه الثروة اهاب به الى حراسنها ، صيف شتاء . وما بنى فيها منزله للسكنى ، بل لجمع الثلج للصيف . كان يخرزونه ويبيعه . اما وقد ذاق عطاء الاشجار المثمرة ، ولا سيما التفاح ، فاستغنى عن ازدخار الثلج ، واصلح البناء بما اضحى به مبيتاً هائياً الوساد . فيأوي اليه واسرته في الصيف ، ويستأثر به في الشتاء .

ولمسعود العابد اربعة اولاد . صبيان وابنتان . اجتهد في ان يسخو عليهم بالعلم . وليس لهم ان يعيشوا كما يعيش ابوم في مجاهدة الارض . فهو يشتهي ان يراهم في الفئة المرموقة ، لا بين المغمورين ، ممن يقضون العمر الطويل ، وليس من يحس بهم في قيد الحياة . والاولاد الاربعة جاوزوا العاشرة . وراجحة ، البكر ، في الثامنة عشرة . ولقد حبت الى النضج ، وازدانت بكريم الحُصَال . فلا تخرج عن رصانتها . وتجتهد في التوفر على خدمة المنزل لتدراً عن أمها المشقة . ومما قال فيها مسعود العابد ، مباحياً اخوانه في بسكنتنا : لي ثروتان ، بستان التفاح وابنتي راجحة . بهما وحدهما أتقي العسر !  
وكم كان يطرب وهو يبصر ابنته تتسلق روضته في صنين .  
فيبسم لها كأن جميع اثقال دنياه تدحرجت عنه . وفي احدى ليالي الحريف ، وقد رقدت راجحة في صومعة ابيها ، في مشارف

البلدة ، سماعاً ايدياً يتصاعد اليهما . هو أنين حاد كأن من يطلقه  
جريح ، تخين الكلوم . فارهفت راجحة اذنيها وخاطبت اباها  
بقولها : أتسمع ؟ ... من يفيض بهذه الأتات ؟

والاب اصفى الى الانين المتعالي وعراه الدهش . اي مسكين  
غرّر به حظه فرماه في تلك القمم يقاسي بردها ، وينؤ بخشونتها ؟ ...  
قال الاب : ان من اقبل في مثل هذه الليلة الى صنين لمجنون .  
فالريح قارسة تخترق العظام . والسماء تنذر بالمطر وقد تلبدت  
بالغيوم السود !

على انه نهض الى سراجة واناره ، يبدد به العتمة الكثيفة  
الجلباب . ومشى الى مصدر الانين وكلبه وراه ، وفأسه بيده يحاذر  
المباغثة . وصاح كأنه يستأنس بصوته : من يقلق صفاء الليل ؟ ...  
من المستغيث ؟

فتعاطم الانين يدل على نفسه . وشاء ان يكون واضحاً  
فخائنه المقدره ، وقد حال الارتجاف دون جلاء النبرة . فمشى اليه  
مسعود العابد وابصر شيخاً يرتدي عباءة وكوفية وعقالاً ، اشبه  
برعاة الببدو . ابيض شارباه ولحيته وانتابته الرعشة . وانتعل  
مداساً ضخماً . وحمل عصا غليظة من السنديان . ولاح له الضوء  
فرفع يدين مختلفتين لفرط العياء والقر ، مستغيثاً بالمنجد . فراع  
مظهره مسعوداً واستوضحه : ولكن من انت ؟ ... من انت ؟



فما استطاع بياناً ، كأن لسانه معقود . بلى ، رددت شفتاه  
كلمة استرحام واحدة فهمها مسعود العابد : انقذني ، انقذني !  
فدنا منه والد راجحة يمسك بذراعه ، ويعينه على النهوض ، ويمنع  
كلبه المالىء الليل نباحاً من ايداء المستنجد . ولكن من هو  
الرجل؟ ... أيكون من رعاة الغنم المقبلين من البقاع ، وقد ضلّ  
طريقه؟ ... هذا ما تراهى لمسعود . وزاد في التخمين فقال : ربما  
كان من ضحايا اللصوص ، وقد سلبوه في هذا الليل ماله وطاردوه ،  
فلجأ الى هذه الصرود !

وقاده الى الصومعة ونادى راجحة قائلاً لها : اضرمي النار .  
هذا ضالّ مسكين !

وجاء بكل ما عنده من اغطية ومعاطف وجلود غنم سليمة  
الصوف ، يلقيها الى الضيف ليصونه من الانتفاض الآخذ به .  
واشتعلت النار تنفث دخانها وهيبها . واطالت راجحة النظر  
الى المستغيث الشريد ، وهالها ما تجلى لها فيه من متناقضات . فهو  
ابيض اللحية والشاربين ، ولكنه اسود الحاجبين . وسلم جبينه من  
الغضون ، واتقدت في عينه نار الشباب

وحانت منها نظرة الى مداسه ، فلاح لها ان ساقه بيضاء ، لاتدل  
على كونه اکتوى باشعة الشمس . وهذا البياض لا يشوبه الترهل ،  
ولا الاصفرار ، بل ينبيء بالاكتناز والحياة ، بما ايقنت به راجحة

انها حبال من يحتجب عن بيئته لهوى في النفس . ثم هو يحترس  
من النطق، ومن تسديد النظر الى الفتاة والى ابيها ، كأنه يخشى  
افتضاح امره . وجاءه مسعود العابد بكأس من العرق قائلاً له:  
هل لك في جرعة تملك بها الدفء ؟... هذا دواء البرد عندنا !  
فابتسم وامتدت يده الى الكأس . فكشف كفه عن ساعد  
صقيل ابيض، يدل على كون الرجل من ابناء المدن، لا من سكان  
القبافي ، وعلى كونه متنكراً . ورهبت راجحة هذا التنكر فيه،  
وحسبته جاسوساً جاء ينغص على ابيها صفاء عيشه . فماجت عينها  
بالفرع، وعبست وقالت تستفهم : ولكن هل لنا ان نعلم من  
انت ؟... ما قالك الى هذه الاعالي ؟

قال وقد ملك روعه ، وانتعش بقرب النار فتوافر له البيان:

حسن حظي !

وتنقلت باصرتاه منها الى ابيها . وزاد قائلاً : أنى لي ان  
اعرفكما، واتبين اربحيكما، لولم تمتدني قدمي الى هذه الشوامخ  
اتيه فيها ؟... ألا يظهر لكما في هذه الطفرة حسن الحظ ؟  
فراعتها لهجته . انه ليخاطبهما باللهجة اللبنانية مع سعيه لمزجها  
بلهجة الصحراء . فقالت راجحة مبغوتة : ألا من تكون ؟...  
كل ما فيك يرمز الى كونك منا . فما جاء بك الينا ؟... تكلم  
ولا تخش . أجاسوس انت ؟

ونظرت الى ابيها نظرة تطفح بالحشية . فقال الشيخ ذو العباءة  
المهلهلة ، وقد تجلت له رهبتها وفطنتها ، وعيناها تنصبان عليه ، وتحاولان  
انتزاع مره من كبده : انا راعي غنم يا بنيتة . فاين لاح لك مني  
اني جاسوس ؟ ... وهل للجاسوس ان يرتاد هذه الاعالي ولا زاد  
له فيها ؟ ... لا اراه يتجشم المشاق الى قوم مسلمين ، آمنين !  
وضحك من هواجسها ضحكة زادت ايماناً بكونه يخفي امره .  
قالت بنفرة وارتياب ، والهلح لا ينفك بمسك بلبها : ولكن كل  
ما فيك مستعار . من لحيتك ، الى شاربيك ، الى عقالك ، وعباءتك ،  
ومداسك !

ومدّت يدها الى لحيته وشدّت بها فانزعمتها . فصاح ذو  
اللحية المسلولة : فضحتني ، ستوك الله !  
فصرخت به مرعوبة : رأيت انك جاسوس ؟ ... ألا ما  
يدفعك الينا ؟ ... انصرف . انصرف . هل يبدو لك منا اننا على  
اتصال باعداء الدولة ، ونحن هنا لمورد رزقنا ؟ ... ما يهيب بك الى  
التجني علينا ؟

وارتاع مسعود العابد . والجواسيس يومذاك يخيفون . وهتف  
بخشية : هل دعوتنا الى انقاذك كي تغدر بنا ؟ ... ابن نبل  
النفس ؟ ... ألا اخرج من منزل يدنسه استقرارك به . لسنا من  
اعداء الدولة العثمانية كي توقع بنا الاذى !

فسخر بما يرشقانه به من تهم وقال: الى اي اوهام يدعوك كما  
خيالكما؟ ... ما انا غير بائس مكدود . ذهني اللصوص لدى  
وصولي الى هذه الاعالي، فنجوت منهم متوغلاً في الصرود. واتد  
بعث فطيمي في زحلة وجئت بسكننا اسأل الجزارين فيها عن  
حاجتهم الى المواشي . وهل يكون راعي الغنم من الجواسيس؟  
وضحك طويلاً ذو اللحية البيضاء المستعارة، والدفء بدد عنه  
الرعدة، والحمة حبه القوة . ولكن راجحة عادت واستلقت  
شاربيه الابيضين ، فظهر تحتها شاربان اسودان رقيقان. وزعقت  
وقد وضحت لها خدعته : رأيت انك جاسوس ؟

وجلجل مسعود العابد بنفرة وغيظ : اخرج . اخرج . لا مقام  
لك عندنا . فمن ارشدك الينا ؟ ... هل قيل لك عنا ان منزلنا  
مبأة خائنين ؟ ... نحن لا نشتغل بالسياسة ولا نعرف ما هي .  
طاش سهك في جيئك الى هذا الوكر . انصرف عنا الساعة، الساعة .  
منظرك يقلق روحنا !

وخرجت كلمات مسعود العابد من حنجرتة متقطعة ، وقد غص  
بها . فاحوف استحك منه، والعهد عهد فزع . فالدولة العثمانية  
تحارب الحلفاء . ولقد اتهمت لبنان بالجنوح اليهم عنها، ونزعت الى  
استئصال بنيه . واطلقت اليهم الجواسيس يقتنصونهم طعاماً نجساً  
للاعواد والقبور . وهذه الجرأة في طرد المزعج لم يملكها مسعود العابد

الا وقد لمس في ابنته مستفيض النعمة والوجل، وسمع نباح كلبه  
المنقض على المستغيث يحاول تمزيقه، لولا رفق صاحب المبيت وخوفه  
من سوء المغبة. قالت راجحة: لو عرفناك ذلك المؤذي لابقيناك  
في اينك يهلكك الزمهرير. ومن الغدر ان تنسفل الى الاستعانة  
علينا، بشفتنا عليك، فتسمى بنا ونحن على نقاوة دخلة!  
وحدثه بعينين حاقتين، مذعورتين. أنتقض المصائب على  
المتبعدين عنها من فجوات الغيم واحشاء الغيب? ... فما كان من  
الراعي الزائف الا ان قبض بيديه الاثنتين على عقاله ورفع عن  
رأسه، فبدا شعره اسود كالحلقة. ودفع عنه الاغطية والمعاطف  
وخلع عنه عباءته، فظهر في ثوب فرنجي لا غبار عليه. واعلن  
بقوة: لا، لست جاسوساً، ولا انا من يسعى للغدر بكما.  
فاني لمن هؤلاء المضطهدين الفارين من الجواسيس. وما ارتدت  
هذه الاعالي، لسوى النجاة من المطاردة، الممعة في اقتفاء اثر  
لقصف عودي. انا من كتب جمال باشا اسمهم في البيان الاسود،  
وقد اتهمني بالسعي لفصل لبنان عن السلطنة العثمانية، والمناداة به  
دولة مستقلة. لست سوى الطيب ناضر عون، وقد رأيت وطني  
يهون فبذلت الوسع في الذود عنه. وما استمسك بالحياة طمعاً  
فيها، بل كمي اتابع جهادي في سبيل امتي. ومرحباً بعد ذلك  
بالموت!

فما زال الرعب مسيطراً على مسعود العابد وابنته راجحة ،  
وهما يسمعان هذا الايضاح . فالجاسوس يخيف ، والفارّ من وجه  
السلطة يخيف . فما وهب لهما التزليل علاوة من طمأنينة . ونظرا  
اليه ، وقد كشف عن جبينه ، والشدة تعرفوهما . بماذا يخاطبانه ؟ ...  
انه لحظر عليهما في كل حال . وشعر الطيب بما هما فيه من دعر  
فقال : على اني لن اطيل اقامتي بينكما ، بل ساشتر في الرحيل ،  
وموعدي فجر غد . فلست ارجو الا ان ترفقاني الليلة ، وتدفعوا  
عني رعونة الجوّ البارد ، المطير !

فتأملته راجحة واعجبها شبابه . فهو بمن طال قماماتهم ،  
وضمرت اجسادهم ، ولطفت مظاهرهم . والمورق العود يأنس  
بالمورق العود . قالت ابنة مسعود العابد وفي فتوتها ما لا يتنكر  
للروعة المستطابة : هل من درى بانك لجأت الى هذه الانحاء ؟  
فاجاب بصوت جازم ، لا تعرفه جليلة تبعث على ذرارة من  
شك : ما درى بي احد وقد تبطنت الليل . ولكنني امانع  
في ان اكون عبثاً عليكما . حسبي ان انزل الليلة بضيافتكما ،  
وسأودعكما في البكور !

وما التمس ما يعدو هذه السؤلة . قال مسعود العابد : لن  
نضيق بك لليلتين ، لا ليلة واحدة ، مع كل ما يصيبنا من شر اذا  
ما درى رجال السلطة بانك ضيفنا . على ان تلتفت الى حالتنا

فلا تخزينا !

فاعلم بادب جمّ وبصدق طوية : وهل لي ان أخزي  
المحسنين اليّ ؟

وأخذ يتحدث عن هدفه في خدمة امته . وقال في لبنان انه ما  
امتزج ، ولن يمتزج ، بالسلطنة العثمانية ، وما زال منذ قيامها مستقلاً  
عنها . والدولة العثمانية نفسها لم تمهد الى هذا الامتزاج ، وقد جارت  
على اللبنانيين ، بل على العرب جميعاً . ولبنان ، وهو قطعة من  
الاقطار العربية ، لن يصبر على المهوان . فلا بد أن يستعيد سيادته  
ويتولى امره ، كما كانت الحال في عهده الغابرة . وابدان الطيب  
ناصر عون متحدثاً عن نفسه : ولا بأس عليّ ان اشقى في سبيل  
هذه الامنية ، على ان اراها تتحقق . واني لراضٍ ، وقد شاهدها  
وطيدة الركن ، ان يطلقني الله بسلام !

فاضرم فيها شعلة الحماسة ، وقد تكلم كالمهداة الابرار . فهو  
على ايمان بما يروي ، وبما تحدوه عليه الصبوة . وليس من يلتفت الى  
امته اكثر منه الى نفسه من فئة المنبوذين الاشرار . وجنح مسعود  
العابد ، وابنته ، الى تأييد هذا المجاهد في رفع شأن قومه . واكبرت  
فيه راجحة الاخلاص ، وضنت به على العناء . وسكنت مكثفة بان  
ترنو اليه باعجاب واجلال ، وفي نفسها يتقد الجنوح الى النصر الفادية .  
لن يكون ابوها مغبوناً وقد ظاهر وطنياً مؤمناً على بلواه

بيد انها اعتصمت بسكوتها، تتحامي اعلان ما ألقى هذا الطيف  
المفاجيء في ضميرها من عطف عليه، وتأييد له. فكأنه من اولياء  
الله وما ينطق بلغة البشر. وما في البشر ارباب نزاهة وانكار  
نفس. هو مشعل من مشاعل الابد لا تنطفىء له نار. والليل  
يعن في تجسيم الاخيلة والهواجس والمبول. فوقفت راجحة من  
الضيف موقف الحشوع. واعدت له حجرة خاصة يضطجع في  
سريرها النظيم. وحببت الى فراشها، على مقربة من مضجع ابيها،  
وما زالت تفكر في هذا العابت براحته فداء وطنه. ولم تم سريعاً.  
بل استولى عليها أرق نزع بها الى استعادة ما اذاع الشيخ الطارىء  
في مسمعا. وعادت تكبر فيه الاخلاص والاقدام. وساءلت  
نفسها لماذا لا تكون وفيه مثله لقومها ووطنها، فتسمى للحوول  
دون تشريد الطيب الزكي الروح، بان تمهد له الى الاختباء في  
مأوى ابيها، والنجاة من مطارديه. أليس عليها ان تكون ذات  
ولاء لامتها، فتحرص على صون الامناء للوطن من الغواشي؟  
وشاقها ان تقاسم الطيب المجاهد سعيه، فخاطبت اباها بقولها:  
ألا يزال مستيقظاً ابي؟

ومسعود العابد ما برح على سهاد. وما انفك يردد في ذهنه  
اقوال الطيب ناضرعون، كابنته نفسها. وخطر له ان يتحدث  
الى راجحة عن هذا اللاجيء اليهما، ويستشيرها في الحدب عليه،



وفي ابوائه . الا انه خشي ان تكون استسلمت الى الرقاد. اما  
وهي ما تزال على يقظة فسره أرقها، واجاب: ماذا تريد ابنتي؟  
قالت وفي نفسها ما يبب بها الى النجوى: اريد ان اقف على  
رأبك في ما سمعت !

— في ما سمعت ممن ؟... من الطيب ؟

— منه بعينه . فما قولك فيه ؟... أنطلقه ام نبقه ؟  
فجرض بريقه . هذا هو المعضل . أ يطلق المستغيث برحمته  
ويعرضه للاذى ، ام يبقه ويتعرض لاذاه ؟... وارتبك . على  
ان الرحمة تغلبت عليه . وما سها عنه ان ثمة اقراراً بجميل المنافحين  
عن حق الوطن . فقال: عندي ان نبقه، وليس لرجال الامن ان  
يدروا بنا . فاننا لفي ارض فقر لا تسلكها قدم . وسندعوه الى  
استبقاء زيته، فيحسبه الجميع من الرعاة . واذا اضطررنا ان نأته  
بقطيع يجوب به الجبل والوادي، فسنفعل امعاناً في التخفي . اني  
لاضنّ به ان يذهب رخيصاً، بعدما تبينت مبلغ اخلاصه للبنان !  
فطربت راجحة وهي تستمع الى ابيها، وقالت : نعم الرأي .  
فان للمخلصين حقاً على الامة ليس لها ان تجحده . قليل هم امثال  
ناضر عون . وعلينا ان نصون بقايا هذا القليل بعد كل ما ذاق  
من ابادة ، وقد امتلأت بشطره الاوفر القبور !  
فاشرق في مسعود العابد الرضى عن هذه الابنة الحساسة، المتقدمة

الحمية، وقال : ساعمل بما ترضين عنه يا راجحة . ناضر عون سيبقى  
بيننا كأنه منا . ولا بأس ان يصيبنا ما يصيبه . فتحبي دماؤنا تربة  
وطننا . هي حياة وتنقضي، على اني اؤثرها مخضبة بنبل الولاء !  
قالت راجحة، وقد راقتها حمية ايها : ولكننا سنجهد في  
ان نكون حكما . فلا نبيح لاي كان ان يلمّ بامرنا . وكل ما  
لنا ان نبلغ الطيب ناضر عون ان يدعي الحرس . فاذا ما سئل  
عن امره اشار الى كونه ابكم . وعلينا، اذا ما تحدثنا عنه، ان  
نقول فيه انه من البدو، وان ابناؤه قومه ضاقوا به، ففزع الينا !  
فقال ابوها يعجب منها بياكر النضج : وهو الصواب . ليكن  
لنا في نصره وطننا بعض المأثرة . اري ان نرقد الآن، وان تنهض  
الى ضيفنا قبيل بزوغ الفجر، فنثنيه عن براح مقامنا !  
وناما على مسرة . سيكون لها يد في الحرص على ذوي الجهاد  
الامين . واعتزما ان يسبقا الطيب ناضر عون في البيظة، ليعالناه  
استمساكهما به . ولكن غلب عليهما النوم الطويل، فما استفاقا  
الا وقد حان الشروق . ووثبا معاً الى حجرة الضيف حانقين على  
انفسهما، وقد تأخرا عن الموعد . واذا بالضيف قد توارى . فصاحت  
راجحة بابيها : إلق به . إلق به . فقد تدركه !  
ودعت الكلب الى اقتفاء اثر الراحل . فوثب الكلب الفطين  
يقتحم المسالك والمخارم . وظهر من وثوبه ان الطيب ناضر عون

لم ينحدر الى بسكنتنا ، بل شقّ طريقه الى الهضاب ، يحتجب بين  
الصخور . واسترشد اليه الكلب . فابصره مسعود العابد يلبد باعماق  
كهف بعيد المدى ، فصاح به : ايها الراعي ، ايها الراعي ، ارجع  
الينا . نسيت عندنا جرابك !

فوقف الطيب ناضر عون على حيرة ورهبة . هل وشى به  
مسعود العابد واقبل الجند للقبض عليه ؟ ... وانتظر حكم القدر  
لا يحاول الفرار بعد طول كفاح . هذه هي المرحلة الحاسمة ، وليس  
له ان يتحدى المكتوب عليه . ولكن مسعوداً دنا اليه يقول بهمس :  
الى اين ؟ ... فسحنا لك في منزلنا . فانت ابدأ ضيفنا ، ونحن  
واياك على الدهر . لا علينا ونحن نشاطرك نضالك عن وطننا !  
فراعتة الحفاوة والاريجية . وقال يعتذر : اخاف ان اكون  
خطراً عليكما . فشكراً لرحابة صدركما . لست ارتضي لنفسي  
ان ارمي احداً بدائي ، حتى عدّوي . ساذكر لكما هذا الصنيع  
ما اسعف الزمن في البقاء !

فشدد مسعود العابد في القول : ارجع الينا . نحن على ابواب  
الشتاء ولن يدهم احد وكرنا . وسنرى ما يدعوننا اليه الصيف من  
تدبير !

فظل الشريد الطريد يمانع في الاجابة . قال مسعود : ابنتي  
من رأني في بقائك في ضيافتنا . ولقد اجمعنا على ان نشترى لك

قطيعاً ترعاه ، وتتقي به الظنون !

فتأثر وهو يلمس العاطفة السخية في ذينك القرويين . واغرورقت  
عيناه ارتياحاً ، وقال : غمرتاني بالجميل . اني لي أن اكافئكما ؟ ...  
أذكر اننا في أيام حرب وجوع ، وانني مضطهد ، فلا يشوقني ان  
اكون وبلاً عليكما !

فاستحلفه مسعود العابد بالله ان يعود . فاضطر الى الامتثال  
على استحياء . اي نبل يشوي باحشاء هذين الكريمين ؟

## ٢

الحرفان ترعى في القمة ، والراعي الشيخ يسوقها بعصاه . ويقف  
احياناً فيستريح . ويتناول من وسطه مزمار القصب فيطلق منه  
بعض الاغان . على ان الحانه دلت على كونه ليس بارعاً في النفخ  
في المزمار . فما يبني يتمرن . ويعمد الى الغناء فيجود باناشيد  
«ابو الذلف» ، و«المبجنة» و«العنابي» . ووضع منه انه في صوته اصدق  
منه في التزمير

ويعتلي الروابي . ويتدحرج في المنحدرات . ويغور في اعماق  
الاوردية متناقل الحطو . وتشجيه القبولة فيرتمي تحت شجرة من  
الجوز ، او السنديان ، ويسبح في احلامه . ويدركه النعاس فيسترسل  
الى ساعات هنيئة من خلو البال ، وقد نعم بالهواء الطلق ، وبالفضاء

الفسيح ، وببئسهنية الامان

وفي المساء ، عندما يعود بالقطيع الى ينبوع الماء الصافي ،  
البارد المجس ، وقد اطلقه صنين من ذوب ثلوجه ، يكب على  
السلسال القراح ويعب منه بما يملأ فيه ، وهو يحس بانه يُسقى ماء  
البقاء . ويقبل بالحراف الى الصيرة ، ويجد مسعوداً وراجحة بانتظاره ،  
يبسمان له ويسألانه عن مبلغ رضاه عن نهاره . فيردّ لهما الابتسامة  
ويقول : اراني ارسخ في العافية . على ان الجمود ليس من طبعي ،  
وقد كدت اخنق به . فمتى يكون الخلاص ؟

وتتجه عيناه الى البحر ويقول : انما لم تبصرا ما لاح لعيني .  
شاهدت في هذا الصباح سبع سفن حربية اقتربت من الشاطئ .  
ولا ريب انها من سفن الحلفاء ، وقد جاءت للانقاذ . وكدت  
اصفق لها واصيح : «نجونا . اليوم احتلال وغداً استقلال !» .  
غير انها لم تلبث ان ابتعدت بما اوجع روحي . لا خلاص بسوى  
نزول هؤلاء الاصدقاء ارضنا . ولكننا لا نريده مكناً ابدياً ، بل  
موقوتاً ، ريثما تنتظم به شؤوننا . والا اذا طال بقاؤهم عندنا فالمودة  
تنقلب الى بغضاء ، والمعونة تبيت استعماراً . من هالك الى مالك .  
مع ان لبنان للبنانيين ، ولن نعجز عن قيادة السفينة بدهاء !  
ونطق فيه علمه وصدق مخبره . هذا هو الطبيب ناضر عون لا  
راعي الغنم الصاعد القمم والهابط السفوح . وما انفكت راجحة تتحمس

له، وتجلس اليه فاتحة اذنيها لروايعه. وما فتىء يحدثها عن الروح  
الوطني، وعن ضرورة انما في النفوس . قال : في لبنان طغمة  
لا تزال تدرج في الذل يا راجحة ، وقد نشأت والسوط يلسع  
ظهورها. وامثال هؤلاء علينا باستئصالهم، وهم اشبه بالسوس في  
جسم الامة. لتلتفت الى الشبيبة ولتنفجها بدم طهور، فتدرك انها  
سيده نفسها !

فهتفت بمجشوع : ما اسمى هذه التعاليم . ألا زدني منها !  
قال يعرف بما اختزن من دراية وولاء : لن يمسي لبنان  
دولة وطيدة الا وقد ايقن انه حر، وازدري المحال. ولن يزدري  
المحال الا وهو يؤمن بنفسه، وبوقن انه ذو همة تناوى كل قاهر.  
وما يقتل الامم سوى اعتقادها انها عاجزة ، ومقصرة في مضار  
التحرر من نير الاسترقاق. فما ورثنا هذه الارض لنبيحها للطغاة  
ونجري فيها عبيداً ، وهي مجبولة بدم الآباء والاجداد . فلم يمت  
الاسلاف في جهادهم للحرية كي يعيش اخلافهم اذلاء، مكذوبين !  
فما برحت تطمع في المزيد من هذه الغوالي . فالطيب ناضر  
عون لا يلقي الكلام الجراف. ونزعت الى مرافقته في جولاته.  
فتوقل واياه الى الاعالي لتستمع الى حكمته. ونهدت الى الغوص  
على اسراره . فابن نشأ؟ ... وما هي منازعه؟ ... وهل يكون  
خلي القلب ؟

ولكنها خشيت اباهاً. فلن يبيح لها مسعود العابد هذه الطلاقة ،  
والراعي في عنفوان الشباب، وكل ما فيه يغري به . فاكنت بان  
ترافقه الى العين، وبان تجالسه على مصطبة المنزل، داعية اياه الى  
التحدث عما تنطوي عليه نفسه من معنى . وما كان يزجي اليها غير  
القول الصادق النبوة ، الوضاء الدخلة ، الرامي الى انشاء وطن،  
وقيام امة . وما ان يجري في هذا المبحث حتى يلوح منه لسامعيه  
انه ساهم شأواً، ويزم روحاً . فهم يصغون فيه الى ملك علوي  
تلطف وصار انساناً

وافتننت واجحة بهذا التفوق الكامن في نفس الطبيب الراعي .  
واخذت تنظر اليه كسيد لا كاجير ، كقائد لا كتابع . فما ان  
تبدو في حضرته حتى تتضاءل كأنها بين يدي المتسلط على بصيرتها .  
وانحبت على خدمته فأخذت تعد له الطعام اللذيذ، بما لا تجهز منه  
حتى لها ولايبها ، كأن ناصر عون ارفع طينة واسنى مقاماً  
واذا ما خاطبها انحنت كأنها في معبد، وكان روحاً سماوياً  
يبشها المنزلات . واحست بانها اضحت موثقة الروح بهذا الباذخ  
الشان ، الكريم الطوية ، وبانها مضطرة الى اللحاق به انى اتجه .  
وكلما سارت الى العين، لتوقبه في اوبته، حملت اليه اشهى الفاكة .  
فيلقي بين يديها طاقة من ازهار الجبل تعب طول نهاره في جمعها  
وتعجب الرعاة من زميلهم الشيخ الغريب عن مراتع صنين،

الابكم كأنه الصخر، وليس يجلو لهم امره، المهذب كأنه من تلاميذ  
الجامعات، الوئيد الخطو والجليل النظرة كأنه من الانبياء. فأني  
ديار قذفتهم به، وكيف اهتدى الى مسعود العابد؟... وما هذا  
الشوق إليه في قلب راجحة، وما عرفوا الفتاة من سوى ذوات  
الرصانة والعفة؟

ونخيل اليهم في البدء ان صلاتها به لا تعدو الشفقة. ولكن  
هذا الماضي في اللقاء عند العين، ومبادلة طاقات الزهر، وحفقات  
الفاكهة، نقرت بهم الى الظن الاثيم. أتكون راجحة العابد على شغف  
بالراعي الشيخ المجهول؟

ولكنه ليس بالشيخ، وهو يتسلق الروانس بهمة المكننز  
العصب، المجدول الساق، ويرشق الشاة التائفة بجحر لا تطلقه  
سوى يمين العامر الشباب. واستطلع بعضهم مسعوداً امر هذا  
الراعي العجيب الميسم. فاعلن والد راجحة بافتوار التمويه: هذا  
طريد الصحراء. نبذه قومه فهرع اليّ يستجير بي، ويسترفدني، فما  
خيبتة. انه ليجهل عاداتنا وألفاظنا ويؤثر العزلة. دعوه في وحدته  
ولا عليكم منه!

فما شفى نهمتهم. فاعتزموا الوقوف بانفسهم على لباب اللغز،  
بان يحاولوا في الراعي الشيخ امراً لا يقف بهم عن كشف طويته.  
فسيفاجثونه في قيلولته ويتثبتون في امره، وقد تجلى لهم فيه سر



مكنون . ففي حوائبه خفايا يحثهم الفضول على جلائها . ولحقوا  
به في تسياره دون ان يفسحوا له في الاستباه بما أقرّوا . فابصرهم  
حوله، الا انه ما شكّ فيهم، وكان يمرّ بهم عفواً مكتفياً بتحتيتهم .  
واذا وجهوا اليه سؤالاً تصامّ عنهم، ومضى في الابتسام كأنه  
لم يفهم

وما رقد في ذلك النهار تحت سنديانة ضخمة الجذع، وسكن  
الى الاغفاء، حتى التفوا عليه ونزعوا منه، بحفّة، عقاله وكوفيته . فاذا  
به اسود الشعر . وهزّوا لحينه وشاربيه فتساقط شعرها بين  
ايديهم . وظهرت في الراعي دلائل الفتوة . فنظر بعضهم الى بعض  
مدهوشين . ماذا يلوح لهم ؟

وتحرك الراعي الشيخ فركنوا الى الفرار، وقد رسخ في ضمائرهم  
انهم وقعوا على سر جلال . فمن هو هذا المتنكر بثياب الرعاة،  
المتظاهر بالشيخوخة، اللاجيء الى مسعود العابد يحتمي به ؟ ...  
أيكون من هؤلاء الجواسيس، النافرين من السفن الحربية الى البر،  
للقوف على اخبار الجيش العثماني، وعلى مدى اختار الثورة في  
رؤوس اللبنانيين ؟

وتكاثروا بمذاك هؤلاء الجواسيس، تقذف بهم بوارج الخلفاء الى  
الشواطىء، فيرتادونها على طمانينة . ويتسربون في البلاد يجوبونها،  
ويتسقطون انبائها، ثم ينزحون عنها بامان . ولم يكن من شكّ

في انهم يتعرضون للمتالف في المغامرة ، الا ان المجازفة طابت لهم ، وقد سلموا من نكاتها، وهم الموقنون ان الدولة العثمانية لا تجيد الحرص على نفسها، وصون تخومها . عدا انهم في بلد لا يسعى بهم وهو الكاره للعثمانيين . واذا ما اصطادهم ذو يقظة، ملأوا جيبه مالا، فتعمى عنهم عينه . وليس ثمة من لا يصبو الى الدينار بقلبه وعقله، ويؤثره على امانته لرجال استانبول

واستفاق الطيب ناضر عون من رقدته، ووضع له ما حل به فهالته الفضيحة . انكشف امره . وجالت عيناه في ما حوله فما ابصر احداً . وعراه الخوف . من اطلع على سره؟ ... هل له ان يبيت الليلة في صنين بامان ؟

وعجل في الملمة نفسه . وعاد قبل الموعد بالخرقان الى الصيرة ، وهو في بحران جهوح ، استدارت به عيناه وجمدتا، كأن الحياة خبت فيها . وتاه خاطره فضاع عن وجهه، كأنه في ببداء ضلول ترصده فيها الهلكة . ولم تكن راجحة قد تهادت الى لقائه في العين، وما ازف اياه . وراعها مرآه وهو يبدو لها، واقلقها اصفراره فدنت منه تقول بخشية : ماذا ، ماذا ؟

قال يتعنع في بيانه : من صعد الى المشارف ورفع عقالي عن رأسي ، وانتزع حيتي ، أنت ام ابوك ؟

فاجابت وقد كادت مقلتاها تثبان من وقبيهما هولاً : لا أنا

ولا ابي . فهل من نفذ الى خفاياك ؟... من الوقع ؟  
فابان وهو يختلج رهبة : اقامتي بينكما اضحت خطرة علينا  
جميعاً . عليّ ان ارحل ، والا وقعنا في شرّ ورطة !  
فهتفت وفؤادها يبيد ذعراً : ترحل الى اين ؟... هذا مأواك  
وليس لك ان تبرحه !

— ولكنهم في اثري يا راجحة . لقد دروا بي . دعيني انصرف !  
فبكت وقالت ، وقد فاضت فيها ميولها اليه : أتصرف عني  
وقد امتلكني لطفك ، وطيب مخبرك ؟

فرضيت باحظر يساورها على ان يبقى الطبيب الشاب . هذا  
المجاهد الاروع ، الراضي بالمحن تنتابه في الذود عن كرامة بلده .  
ولم يكن يرقب النطاسي الباذل من نفسه هذه الصراحة تجبها بها  
راجحة ، مع يقينه ان حبها له بات امرأ مقضياً . ولكن في الحقاء ،  
بينها وبين نفسها . وما فتئت الشفتان تحاذران البوح بالمضمر . وجمد  
الطبيب ناضر عون حبال ما يسقط اليه . وومضت عيناه بالشغف  
المحرق وما استطاع نطقاً . لم يكن يرتاب بكون راجحة تمواه ،  
وحدها عليه دله على حنينها . فالترحيب به في المنزل ، وشراء  
القطيع كي يرعاه ، وحبس الطبيبات عليه ، ولقاؤه الى العين بالفاكهة ،  
والجلوس اليه باستنامة الوله ، والعمل بورغبته ، جنحت به كلها الى  
الايمان برسوخ جذور الهوى اليافع في قلب راجحة الحمي

والطيبب احبها وانتقى الافضاء اليها بانه علقها . وبوسعه ان  
يجبها دون ان يחדش فيها نصاعة المهجة ، وما يزال بعيداً عن النساء ،  
وقد صرفته السياسة حتى عن نفسه . اما الآن فقد هاج فيه الفتون .  
ولما خرج عن شدهه جمجمت شفتاه : أتحيينني يا راجحة كي تهي  
نفسك للمكاره في سبيلي ؟ ... لا ارى هذه المغامرة تضطرم في  
سوى مهج العاشقين . فالهائم ينكر روجه في انقاذ من اوثقه به  
الشغف الاثير !

فنبوت وما زالت تبكي : وماذا ترى مني ؟ ... ألا تدلك  
نظراتي وحركاتي على كوني اهاوك ؟ ... اذا لم اجهر حتى الساعة  
بما في نفسي ، فلقد اوضحت عيناي الجم من اشواقي . وانك للفظين ،  
فلا تحتاج الى ما يعدو الومضة !

فزفر وقال : ما كنت اشتهي ان ياتلف قلبانا يا راجحة ، وانا  
على ما تعلمين من الضعفة . ولكن الحب لا يبالي بالمعاذير ولا  
المعاذير يا صديقتي . انا مثلك في الكلف والولوع !  
وتعانقا عفواً كأن بعضهما مجذوب الى بعض . وطال العناق  
لا يخشيان فيه المفاجأة . وهتفت راجحة بالتبايع ، وقد انفصل الرأسان  
المنحدان : إبق . إبق !

فاجاب ولم يكن دونها التبايعاً : أبقى حتى على رهافة الحظر ؟  
فاعلنت بحدة تجتهد بها في صون قلبها من الالم ، وجبها من

الذبول : ساخفيك في بطن الارض. ابي يعرف في صنين مغاور  
لا تسمو اليها عين . فتعال اليه وهو يدراً عنا الجائحة !  
واندفعت به الى ابيها . ومسعود العابد في بستان الخوخ  
والنفاح، ينقب الارض، ويرجو في الصيف المطل غلة وافرة الربيع.  
وابصر ابنته والطبيب الراعي يتهاديان اليه فهشّ لهما . الا ان  
اساريرهما اللهاف خرجت به عن الطلاقة . فتولاه الجزع وصاح  
باضطراب مستوحشاً : - ماذا تحملان اليّ من الدواهي ؟... اني  
لامح في طلعتكما ما لا يجهر بالارتياح !

فنبوت راجحة : حلت بنا الفضيحة . هناك من استجلى خفايا  
الطبيب ناضر عون، فبات معروفاً بكونه هارباً من غضبة الدولة !  
فتلتم مسعود واستفهم برهبة : ماذا ؟... ماذا ؟  
فاعلنت وهي تكاد تسقط الى الارض وهلة : استيقظ الطبيب  
ناضر من قبلولته، في القمة، ولحيته وشارباه وعقاله وكوفيته مطروحة  
بجانبه . هناك من اطلع على سره ويسعى به . كيف السبيل الى  
اتقاء الضربة ؟

فوضح في الاب الملح، وانتشر في وجهه الذهول الابله . اي  
سبيل تبحث عنها راجحة للنجاة وما يبدو له بارق واعد ؟...  
قال الطبيب ناضر عون، يخفف عن الوالد المرتاع، عبء النازلة :  
فكرت في الرحيل يا صديقي، فابته عليّ ابنتك . فماذا ترى ؟

« فلم يكن مسعود يرى شيئاً سوى عنف الكارثة . قالت راجحة  
تخرج به عن سهوه وغصته : دعوته الى البقاء بيننا يا ابي ، وعاهدته  
على التفاتك اليه . أفما لك ان تدرأ عنه الملمة بحسن تدبيرك ؟  
واشارت الى الاعالي وهي تقول : أليس لديك في هذه الشوامخ  
ملجأ آمن يستقر به ؟

فاطرق مسعود ، وكأنه فطن الى ماوى حصين فقال : إلق  
بي يا ناصر . اعتقد اني اهتديت الى المشهى !

٣

في مساء ذلك النهار ، ماج القوم في بسكننا الملتحفة بخمائلها  
الحضال ، البادية للعين بساطاً اخضر لا تبلى له نضارة ، كأنها مشوى  
الربيع الغرير . وتداولوا فيما بينهم امر جاسوس ، من جواسيس  
الحلفاء ، فزع الى حمام . ولقد حدثهم عنه الرعاة قائلين : نحن  
ابصرناه باعيننا . كان راقداً تحت احدى اشجار السنديان ، وملتقاً  
بعباءة . واخفت الكوفية رأسه يعصبا العقال . وجلت وجهه  
لحية بيضاء يعلوها شاربان ابيضان . وعهد اليه مسعود العابد في  
رعاية قطيعه . الا ان مظهر الرجل لم يكن يدل على كونه من  
الرعاة . وسألناه عن اسمه ، وعن بلده ، فما اجاب . وتعامانا لا  
يركن الى سوى مسعود العابد ، وابنته راجحة . ولا بد للفتاة من

المسير في كل مساء الى لقائه في العين ، حاملة اليه اشهى الفاكهة .  
وكان يجيئها باضاميم من ازهار الجبل تتناولها منه بفائق المسرة .  
ولما رغبتنا الى مسعود جلاء حالة صاحبه ، قال لنا فيه انه من ابناء  
الصحراء النازحين عن ربوعهم ، وقد نبت بهم . وهو مما لم ينزل  
منا منازل الثقة ، فانكرناه وعمدنا الى الفحص عن الراهن بانفسنا !  
واوضح الرعاة ما اقدموا عليه من مفاجاة . واذا الراعي الشيخ  
يتكشف لهم عن شاب من ابناء الحضر . وتحرك فخافوا منه على  
انفسهم . وولوا الادبار وهبطوا البلدة يقصون عليها ما لاح لهم في  
مشارفها . وانهم لموفنون انهم حيال جاسوس من جواسيس الحلفاء ،  
يكرم وفادته مسعود العابد ، ويخفيه حرصاً عليه .

وراجت الاشاعات على مختلف وجوهها . وقال جميع من في  
ساحة البلدة : لو لم يكن مسعود يلقي الفائدة لرفض المجازفة .  
فلا شك في كونه يعرف من خزائن الحلفاء المال بالحفونات !  
وقال عشاق المزاح : الحيال الانكليزي يغري . فاذا هام به

مسعود العابد ، فلا عجب ، وقد استهوى قبله الملوك !  
وتحدثوا عن ثورة الشريف حسين ، امير مكة ، وملك الحجاز  
في ما بعد . ووقع اللفظ في مسامع رجال الدرك ، المتوقفين على  
حفظ الامن في بسكنتنا . ورجال الدرك ، مع كونهم من اللبنانيين  
الاقحاح ، فاقوا العثمانيين في تعصبهم للدولة العلية العثمانية . فما

دروا بان ثمة، في اعالي بسكنتنا، جاسوساً من جواسيس الحلفاء،  
حتى ركبوا اليه عنجهيتهم وقد تدججوا بالسلاح، كأنهم ساثرون  
الى مقاتلة جيش .

واعتزموا تطيير الاخبار الى قيادة الدرك في بعبدا، والى جميع  
المخافر، كي تقيم على حذر، طامعين في المكافأة. فالزلال سيجتاح  
الارض، فليحتس البشر. وبلغوا منزل مسعود العابد، فدخلوه  
والشر يخندق في وجوههم، فائلين: ابن الراعي الشيخ يا مسعود؟  
فملك والد راجحة نفسه حيال الوجوه العابسة، والبندقيات  
المتوعدة، والحراب المتدليلة الى الافخاذ تعربد حتى في صمتها .  
على ان مسعوداً العابد رحب، وهش، وبش. ودعا الحانقين،  
المنطاييرن اليه شرراً أكولاً، الى دخول المنزل، والجلوس في الصدر.  
سيطلعهم على الجلي. ونادى ابنته يقول لها: ابن اللغائف وفناجين  
القهوة لسادتنا الافندية يا راجحة؟

وليس يجهل ما لهذا المظهر، من الاكرام، من اثر في تخفيف  
النقمة. فيتلاشى الغيظ، وتسكن الظنة. ورأى رجال الدرك ألا  
يجيبوه الى الدعوة الحفيفة، وظلوا وقوفاً. فامسك بايديهم وساقهم  
الى المقاعد، طالباً اليهم الاستراحة. فمن الراهن انهم تعبوا وهم  
يتوقلون اليه. وانجلهم ايناسه فاطاعوا، واستقروا بالمقاعد. ولكن  
دون ان تجول في ملاحظهم القاسية رعشة من بسة. وشدوا في



معرفة الراعي الجاسوس . فقال مسعود العابد، دون ان يتراءى  
فيه نزرٌ من خداع : لعنة الله عليه ، لا ادري ما اصابه .  
بحث عنه ولم اعرف له مقراً . عاد بالحرفان الى الحظيرة واحتجب .  
هل لكم ان ترشدوني الى مقره ؟... ليس من عادته ان يجتفي !  
فصرخوا به : لا نخدعنا . ان لم ترشدنا اليه دفعناك مكانه الى  
السجن . وربما الى الموت . ليس الرجل غير جاسوس من جواسيس  
الحلفاء ، لجأ اليك فصنته !

فضحك مسعود العابد وقال : ذهب بكم الوهم بعيداً . أنجيل  
اليكم اني ابيع لاعداء الدولة ، حرسها الله ، ان ينسلوا الى منزلي ؟ ..  
نحن نكرم في لبنان اثنين ، لا ثالث لهما ، الله ومولانا السلطان .  
بادشاهم جوق باشا !

وهنف باللغة التركية لرب الامر في استانبول ، محمد رشاد  
الخامس ، بما معناه : « عاش مولانا طويلاً ! » . ولكن الجنود لم  
يؤخذوا بالممالة ، فصاحوا به : لا تحاول مخادعتنا . انت فتحت  
ابواب منزلك لجاسوس من جواسيس الاعداء . فاين هو ، والا  
كبلناك بالقيود ، وسقناك الى الدبوان العرفي في عاليه بتهمة الحيانة !  
والدبوان العرفي في عاليه لا يخيف مسعوداً العابد وحده ، بل  
جميع من في لبنان ، والداخل اليه مفقود . فما ارتفعت الاعواد ،  
لصلب من رأت فيهم الدولة العثمانية زمرة من الحائنين ، بسوى

مشيئة هذا المجلس المستحل الموت، كأن الروح لديه عود ثقاب .  
واكن مسعوداً العابد تمالك حبال التهديد . وقال وهو يبتسم محوياً  
للجهامة السائدة : أتدفعونني الى المجلس العرفي لأجل شريد، طريد،  
لا اعرف له اصلاً من فصل ؟ ... ألا خففوا عنكم . ليس الراعي  
الشيخ من سوى ابناء البادية . نشبت بينه وبين قومه عداوة،  
فهجر الصحراء وأوى اليها . فاقمناه برعى خرافنا . وبجئنا عنه اللبلة  
كي نحمل اليه عشاءه ، فلم نبصره . ويدعشنا ان تسمعونا انه من  
جواسيس الخلفاء . وما للجواسيس ان يكونوا رعاة في هذه  
الشواهي الخالية من الانس !

فقال كبيرهم، وهو الرقيب شكيب افندي، وقد ابقى في وجهه  
داء الجدري بليغ الاثر، وانتصب شارباً كأنهما قرنان نطاحان:  
لا نحاول تضليلنا . ليس لابن البادية ان يتنكر . ذلك الراعي  
المقيم لديك تظاهره بالشيخوخة وهو في غلواء الشباب !

فانكر ان يكون على بيئته من هذا التخفي، وهتف : والله،  
هذا ما لم اتبينه فيه . كل ما عرفت عنه انه مسكين . من اولئك  
الفاحصين عن لقمتهم يكافحون بها الجوع . ولم اسمعه، مع طول  
اقامته عندي ، يتذمر . ولا تجلي لي انه من الاشرار . وجل  
ما استطعت الامام به، من متعدد احاديثه، ان اخوانه طردوه،  
وان ثمة خلافاً بينه وبينهم نشب لأجل امرأة . واذا صدق ظني

فهو ممن تجتسى عليهم الربع . حاول احد ارباب الجاه ، في القبيلة ،  
ان يسلبه زوجته ، فبطش به وركن الى الفرار !  
فاعلن الرقيب ساخراً محتدماً : هذه اكدوبة تعللنا بها . ابن  
الرجل ؟

فابان مسعود العابد ، وما زال مسيطراً على نهيته ، ورحابة  
صدره : لست اخفيه في قميصي ، ولا في بيتي . وها هوذا البيت .  
فاهتدوا فيه الى ضالتكم . انفذوا الى اعماقه ، واقلبوا كل ما فيه ،  
رأساً على عقب ، فاذا بدا لكم الرجل فاقتلوني !  
فشهر عليه الرقيب المجذور ، المنتصب الشاربين ، بندقيته  
بمحاول ان يصرعه بها . وجندي واحد هيز في ذلك الحين بلدة  
على بكرة ابيها . فهتف به مسعود العابد يدعوه الى التآني : على  
رسلك . ليس لك ان تحكم عليّ حكمك القاطع ، وانت لا تملك  
من الادلة ما يشهد عليّ بانني خرقت حرمة الولا . لرب الدولة ، مولانا  
السلطان ، نصره الله !

فصرخ الرقيب بشدة وامتهان من لا تأخذه الاقوال السماع  
المستفيضة في شفتي مسعود العابد : اراك تعلمت الحمامة ، وانت  
لم تخرج في علمك العالي عن حرارة الحقل ، وجمع الزبل .  
فتكرم بالسكوت واحذر ان تعترض ، والا حطمت رأسك !  
وتأجج فيه الغضب كالمسوع . فاحمر وجهه . وظهرت اسنانه

السمر، العوج، توحى بتكشيرة الذئب. وبسكنتنا تعرف من امر  
شكيب افندي كل دلال . فهو صاحب ابدأ، كأنه في ازمة مستمرة  
من تزق . فلا يرضى، ولا يسكن، وليس لكبير حرمة لديه .  
وضحك منه القوم غير مهاودين. ولكن في سرهم. وما يخفى عليهم  
ان كلمة واحدة منه تسوقهم الى اعماق القبور . يكفي ان يقول  
فيهم انهم يكيدون للدولة العثمانية الجليلة، نصرتها السماء . فنظر  
اليه مسعود العابد نظرة المغلوب على امره ، وقال : لا تظلمني  
يا شكيب افندي . انا من المخلصين لامنا الدولة العثمانية ، كتب  
الله لها الظفر باعدادها الاوغاد !

فزمجر، كأنه راكب العرش : مرحباً اخلاص . ان هو الا  
كلمة تمضعها اشداقكم . كلكم بات في هذه الايام مخلصاً للدولة  
العثمانية، والسوط والسيوف يعصفان بكم. ولكنكم عثمانيون بالقول،  
لا بالعمل . فمتى كان هذا الجبل يدين بدين العثمانيين ؟

وصرف باسنانه، وندي جبينه، وتفتح منخراه . فتجراً مسعود  
العابد على القول : يا ليلة الشؤم ، يا شكيب افندي ، ألسنت  
لبنانياً ؟

فهتف به، وهو يغلي، وعلى شفتيه هالة من زبد : انا عثماني من  
بطن امي. وافاخر بكوني خادم مولانا السلطان . فلا تماحك بغلاظة  
في ما يبعد بنا عما جئنا لاجله . أما دعوتك الى سدّ فمك ؟ ...

اسكت . أزعجت مسامعنا بالنعيق !

وضربه بعقب البندقية على أم رأسه . فسال الدم على الجبين  
والوجه ، وما تحرك مسعود العابد ، ولا صرخ صرخة الألم ، بل سدد  
الى الرقيب ، المنقوش الوجه بالجدري الاكول ، نظرة نافمة . وقال  
بهدهوء العاجز الموتور : إلى هذا الحد وصل بنا حب بعضنا بعضاً  
يا شكيب افندي ؟

فجلجل الرقيب الغضبان : دعوتك الى السكوت ، فاسكت ،  
والا لقيت اختها !

على ان مسعوداً العابد ، اذا سكت ، فما سكتت راجحة . ولقد  
صاحت بالرقيب الشرس التباه : ما ذنبه كي تضربه بعقب البندقية  
وقد كدت تقتله ؟ ... هل قتل ، هل سرق ، هل عكر صفو  
الامن ؟ ... ابن الرحمة في قلوبكم ؟ ... أهكذا توظفون النظام ؟  
ونبح الكلب . غير ان راجحة فرضت عليه الجمود . وتأمل  
شكيب افندي ، راجحة العابد ، بعين ملأى بالسخر القارص . وقال  
بشراسته المطبوعة : لم يفعل شيئاً مما ذكرت . ولكنه فاقها  
جميعاً وقد خان الدولة . ونصيب الخائن الموت !

والتفت الى اثنين من جنوده قائلاً لهما بعنجهيته الفظة :  
او ثقاه . سندفعه الى بعيدا . ومنها يسلك طريقه الى المجلس العرفي  
في عاليه !

ولكن راجحة، لم تطق ان تبصر اباها مكبلاً بالحديد . فوقفت  
بينه وبين الجنديين وهي تصبح بقوة : لن يلمسه احد باذى الا  
وقد تداعيت في الدفاع عنه . ليس للبريء ان يلقي الظلم .  
اذا كنتم ترتابون بالراعي الشيخ، فالحقوا به، وما يزال في جوار  
بسكننا . مسعود العابد طاهر القلب والجبين !

وتجلت محاسنها وهي تدود عن ابيها بصادق العزم . والتفت  
اليها شكيب افندي ، البشع الصورة ، اللئيم الروح ، المنتصب  
كالعصا لفرط هزاله، وقد امتصه الحقد ، وايبسه الجفاء ، فشاقته  
دوعتها وحماستها . ودنا منها يقول ببشاشة المستهوي، مع كونه  
لا يبسم حتى لمانع البشري : لا تخرجينا ، أبقاك الله . علينا ان  
نقوم بما يفرض صون الامن . والافدليننا على الراعي المتخفي، اذا  
سئت انقاذ ابيك !

قالت وهي تلهث ، وما زالت على عبوس : أنجيل اليك اننا  
نعرف مقره ولا نهديك الطريق ؟ ... لو علمنا انه من الجواسيس  
لسرنا به بانفسنا اليكم . فاي فائدة لنا من كتمان امره، وهو ليس  
قريباً لنا، ولا بمن يجودون علينا بما ل... لا ريب انه خدعنا،  
كما خدع الدولة، ان يكن من الجواسيس الانكاد !

وتكلمت بوفر من اقناع . ليس من مصلحة ابيها ان يرحب  
بجاسوس . ولن يخفي عليه ما يرقبه من ويل اذا فعل . ولكن

الرفيب المجذور ابى ان يقنع، فقال : هذا ما سوف يبسط ابوك  
في عاليه لرجال الديوان العرفي . ومن حقهم وخدم ان ينعموا عليه  
بالبراة ، او ان يدينوه !

فنبرت كأن الامر امرها : ابى لن يبرح هذا المكان لتهمة  
كاذبة !

ومنعت الجنديين من الاقتراب من مسعود العابد ايها .  
فصرف شكيب افندي باسنانه ، وقد نظائر سخطاً ، وزعق : ماذا ...?  
أنترضيننا ؟ ... وددت لو لم تكوني امرأة !

ومشى اليها يقبض على ذراعها بعنف طاحن ، والغضبة تقطر  
من وجهه الكريه ، المنقوش كالرحى . ودمدم عليها بقوله اللهبان ،  
اللهم : ليس لنا ان نحتمل دلالك . اذكري اننا من الجند ، وان  
من حقنا ان نقبض عليك ، وندفعك الى السجن ، اذا مضيت في  
منعنا من القيام بمهتنا . فاعقلي واحرصي على نفسك !

ومع فائر غيظه راقه الاستمتاع ببضاختها ، وابى ان يفلتها .  
الا كم هي شبة ، هذه الروعاء النفور . وسعت للنجاة من قبضته  
الموجعة ، الجافية . فقال بصلف الاعتداد : لا تتعي في الباطل .  
ليس لفيلق من الجند ان ينتزعك مني !

وعاد يأمر الجنديين بشدة وثاق مسعود العابد . فاعولت راجحة .  
وسعت للانقراض عليهما كي تمسك بهما عن تقييد ايها . الا ان

الرقيب، الناعم بامساكها، ظل يشدّ بها اليه، كأنه الكلابية الشحيحة  
بفريستها. وهاج فيه الشوق، فتظاهر بالخوف من نجاتها منه، وطوقها  
بيديه. وكم تعاضمت فيه النشوة وقد التصق صدره بصدر راجحة،  
واحسّ بنهدها الاعجر يبحث عن مكان ينفذ اليه في صدره،  
وما كان ليلتوي. فضاع الرقيب عن نفسه حبال الفتنة الطاغية،  
الروية، وجنح الى التملّس. بيد ان راجحة درت بما تحن اليه  
شهوته الاثيمة، فدفعته عنها بجميع قواها هاتفة به : نذل، نذل!  
وتراءى له انها نخعته، واذلته حبال رجاله، فهد الى الانتقام هاتفاً  
بن معه : اوثقوا الاثنين معاً. ولتنحدر بهما الى المخفر. وهناك  
سوف نرى !

وابتعد عن راجحة يتحامى الالتفات اليها، خجلاً واضطغاناً،  
وخيبته الصافعة تغلي في عروقه فتكوبه. واطاع الجنود فضربوا  
الوثاق على الاب وابنته، ومسعود العابد يقول : مهلاً يا جماعة.  
انكم لتتجنون علينا. ليس لنا في هذه الصرود ان نحفل بالسياسة،  
وما نحن من اهلها. ربيع شجرة من التفاح يساوي عندنا السياسة  
واربابها، وكلنا يجهلها، وله عنها غنى. وان اكن في عرفكم مجرمًا،  
فما ذنب ابنتي ؟

فصرخ به شكيب افندي، وقد ضاق صدره بكل ما لقي من  
خذلان وصدام : اخرس، والا اذقتك حتفك !



وعاد يتوعده بعقب البندقية، ويهتف بالجنود : الى بسكنتنا.  
اسرعوا !

وكان الليل قد انتشر ، الا ان الظلمة لم تدلهم . ومشى  
الرقيب المجذور في المؤخرة ، وعيناه على راجحة ، ويمناه في شاربيه  
المعقوفين تغلها . واندلع منه الهيام والغضب . فهو في صبوة  
الى هذه الحساء الصلبة الشكبية ، وفي حرد عليها ، وما عرف امرأة  
تملك حذتها القاطعة ، ولا نهدها الفج كأنه الحجر . وقد لاح لشكيب  
افندي كالا جاصة قبل ان تنضج . واستفاقت في هذا المفتون  
بالحسن ، الحائب في الملمس ، غريزة النهش المانع . وابقن ان البغية  
لا تعصيه ، وله في الظفر بها متعدد الاساليب ، وكأها ناجع . فان  
تكن راجحة من الحديد ، فهو من الصلب . ولن نحتمل هذه اللينة ،  
المتشاحمة ، فلول المصادمة .

وبلغت القافلة المخفر ، وشكيب افندي لا يزال يقتل شاربيه ،  
ويعقفهما اشبه بالابطال الصناديد . ويقطب وجهه . كأن القدرة  
في طول الشاربين ، واستدارة اطرافهما ، والعبوس . وجلس في  
صدر المخفر ، كأنه عنقوة بن شداد . ودعا الى استنطاق مسعود  
العابد باعصاب متوترة ، وبكلمات نائثة ، جافية : اسمك ؟ .. اسم  
امك ؟ .. عمرك ؟ .. حرفتك ؟

ولكن اولئك الواشين في بسكنتنا بمسعود لم يلبثوا ان ندموا

على البادرة، ومالوا الى الاستشفاع له: عنوك عنه لاجلنا يا شقيب  
افندي، اكراماً لنا . ليس للجواسيس ان يأرووا البنا ولا لقمة  
لهم في هذه الربوع المقفرة . وماذا ترى في بسكنتنا غير خمائل  
ورياض وصرود جرد؟... فالبلدة غارقة في حدائقها وفي صخورها،  
لا تفكر في سوى موارد رزقها. ومتى كان مسعود العابد يشتغل  
بالسياسة، ويرحب بمحترفيها، وهو فلاح ابن فلاح، لاهم له غير  
الفوز بجني ربيع تهبه له الحقول؟

ولكن الرقيب، الدميم الروح، مانع في السماح قائلًا: دعوني  
اتوفر على انجاز مهوتي. فالامر افلت من يدي. واضحى حق النظر  
فيه من شأن الديوان العرفي. فلا تنقذوا مسعوداً العابد من قبضة  
العدالة لتطرحوني مكانه. واذا اغضيت عنه، انطلق غداً منكم  
العشرات، ليسعوا بي لدى قائدي. ولست بمن يشتهون ان يثووا  
باعماق السجن، ولا ان يتدلوا على الاعواد!

والتفت بعين حمراء، تذيع مآربه النهم، الى راجحة، الوافقة  
في الزاوية ثائرة اللب، مكدودة الضمير، ترقب بجزع ما ستفضي  
اليه الحال. أتمثل واباها في عاليه، في الديوان العرفي؟... ولكنه  
مشوى المنايا. وليس لمن يدخله ان يبرحه الى سوى المفصلة تستل  
منه خفقة الجنان. ففي منصاته، ذوو محالب، وانباب مسنونة، للبضع  
والقضم. ورضيت راجحة لنفسها بالفناء لاجل من نهوى. اما

ابوها فاي اثم اجترح...؟ وتعبت بسكنتنا في الجنوح بالرقيب  
المجدور عن الاخذ بالجد، فلم تفلح. شكيب افندي ينتصر للنظام،  
ولمصلحة مولاه السلطان، عز نصره، ووطد عرشه. ونهك مسعوداً  
العابد بالاستئلة. وما زال مسعود ينكر كونه يعرف امر الراعي  
المتخفي. ومضى شكيب افندي يتهدد بالدوان العرفي، قائلاً: لا  
بأس عليك ان تنفي على مسمعي إمامك بالحقائق. فإذا اتالم  
احسن انتزاعها منك، ففي الدوان العرفي من يملك الوسيلة الشافية  
من المواربة. وهناك السوط، والفلق، والحجرة السوداء، الحانقة،  
والعطش، والجوع!

واطلق أفاظه بجائح الوعيد. ونوديت راجحة للكلام، فوقفت  
ازاء شكيب افندي وما تزال على سموها. فليس لها ان تهون  
ما دامت طاهرة العرض، مؤمنة بحق امته بالحياة. وتكلم الرقيب،  
الغليظ الكبد، بألها بخشونة عن اسمها وعمرها وحرفتها، وما تعلم  
من امر الراعي الفار. فنفت معرفتها به. قال شكيب افندي  
وقد كمن في عينيه الشر: كيف تجهلينه، وما برحت تسيرون في  
كل مساء الى لقائه على العين، وفي يدك اشهى الفاكهة، فيحبو  
اليك وفي يمينه طاقة من الريحان...؟ فهل لمثلك ان تتبادل هذه  
اللطائف وراعي غم...؟ ولكنها هدايا جديرة بالعشاق، والعشاق  
الفتيان. اي انك كنت تعلمين ان الراعي لبس من الشيوخ، ولا

من الرعاة ، بل من الجواسيس السفلة ، الجاحدين ربهم وامتهم .  
الا ان خوفه من اقاده الى التخفي . فمن هو الرجل ؟  
ورام سحقها ، وهذا موعد الانتقام . فاجابت وفي بيانها جرأة ،  
وفي وقفها استعلاء : أليس للرحمة مجال الى القلوب في معتقدكم ؟ ..  
عرفت الرجل شيخاً بانساً ، فاشفقت عليه . وكيف ابيع له ان  
يكون راعي غنم ، لو كنت أهواه ، وفي منزلنا في الاعالي متسع  
للإبواء والاختفاء ؟

فقال بشدة ، والجهامة تمنع في حفر الاخاديد في وجهه المشوه :  
لا تسلكي التعاريج ، وليس لك ان تحجبي باصبعك جبل صنين الجبار .  
فالحقيقة ظاهرة مثله لكل عين . فما راعي الغنم ، غير جاسوس  
خائن . واذا كنت لا تشفقين على نفسك ، فاشفقي على ابيك ، ولا  
تعرضيه للهلكة . فالديوان العرفي لا يملك نزرأ من رافة ، وفيه  
حطابون لقطع الاعواد ، ونجارون لصقلها ونصبها ، وجلادون  
لقصف الرقاب !

وقبض على معصمها بما يتأجج فيه من حنين ، وما استطاع ان  
يحثت فيه نداء الصباية ، وقد زاده الاخفاق رهافة . ولم تنزع  
راجحة الى الافلات من قبضته ، وقد ادركت مبلغ اثره في تفريج  
الكربة . اجل ، عليها ان تشفق على ابيها . وفسحت للرفيب ،  
المشتاق ، المجال الى بيان الطلبة . قالت : وانت ، هل تملك هذا

النزر من الرأفة ؟

فتجلى له، في عينيها، بارق من امل اختلجت له مهجته اغتباطاً.  
واعلن بشبه همس : الامر موقوف عليك !

وسدد اليها عينين من ضرم، جمعتهما بين المسألة والانذار. فقالت  
راجحة: ان يكن لي، في اقرار الخلاص يد، فلا بمانعة عندي !  
فاستنبأ مدهوشاً، كأنه لا يؤمن بما يعي: لا تمنعين في ماذا؟  
- في كل ما تريدني عليه !

فتعاطم دحشه. واستفهم وهو لا يزال يرتاب بما يسمع، وليس  
لذاك الصدود القاطع ان يكون نفاخة تفقأها هينمة : أتذيعين  
صدقاً؟... هل تكونين لي بملء مفاتنك ؟

فاجابت لا تحترس : بملء مفاتني، على مدى رغباتك جمعاء.  
وكل ما اطمع فيه، في مقابل هذه العطية، ان تنقذ ابي من السجن،  
وان توضح لرؤسائك انك لم تقع، عندنا، على ما يحفز الى الريبة.  
فالراعي من البدو. وما جاء بسكنتنا، متخفياً، لسوى النجاة من  
بطش اخوانه، وقد ارتكب فيهم نكراً !

فاعلن بمستطير الفرحة، وقد ماع كله، كأنه جراب ماء ثقبه  
محرز : وهو ما سافعل. على ان تحرصي على عهدك !

فابانت بلا احجام، وقد مالت الى القدية : كن واثقاً بي .  
وجلّ ما ادعوك الى الاخذ به، ان تفتن الى كوفي عذراء !

فاوضح شكيب افندي، وهو يترنح طرباً وهياماً: وستظلين  
تلك العذراء . فلا عليك !

وابتسم لها . وقتل شاربيه انتفاخاً . بلغ المنشود ببضع كلمات  
تتكشف عن فسوة . وقال وهو يسيل بهجة : هاتي الآن قبلة .  
والآتي الآتي !

فتوردت وجنتها خجلاً حتى كاد الدم ينبجس من عينيها ومنخرها  
وشفتيها . ولم يمتنع الرقيب ، الدميم ، المجدور ، من طبع فيه على  
مبسمها ، مع كل ما لاح له فيها من رعدة وهول . وقال ، وقد  
غلت فيه نشوته ، ويده تدغدغ النهدي الاعرج : انت خابية من  
اصفى الحمرة . فطرة واحدة منها يسكرها قبيل . ففي محياك طابع  
السماء . وفي نهديك قوة الاعتزاز ، كأن في صدرك عالماً من شوخ !  
فعبست ، وودت لو تحسف بها الارض . ما حداها على احتمال  
هذه الطعنة ، في صميم طهارتها ، سوى ميلها الى انقاذ ابيها من خطر  
الديوان العرفي ، والى درء الويل عن الطبيب ناضر عون . فتنام  
قوات الامن عن مطاردته وتبيح له الطمأنينة . وهي اذا قبضت عليه  
دفعته تواء الى المشنقة

وتجلى لشكيب افندي ان امتداحه راجحة لم ينل اعجابها . فقال  
في نفسه : لا تزال حديثة العهد في الحرفة . وما ان تتعود حتى  
تتبدل . علينا ان ننتظر . اجتياز الطريق خطوة خطوة !

ووعد نفسه بها كلها . وخاطبها بقوله : ساخلي على الفور سبيل  
ابيك . على ان تذكرى ما تعاهدنا عليه . والا عدنا الى الاحراج .  
فلا يزال لديّ واسع المدى للاتهام !  
فتمتت وعيناها في الارض : ستكون راضياً !

فكتب في المحضر : « اطلقنا مسعوداً العابد وابنته لكون  
ادلة التهمة غير موفورة » . وطوى الاوراق واخفاها في الدرج ،  
لحين الحاجة . باتت راجحة له . وهي في عرفه تعادل السلطان ،  
والعرش ، والدولة العثمانية . فكل ذلك الاخلاص الفضايف ، لمولاه  
« البادشاه » ، تبدد في لمحة ، كدخان اللفافة . وما غاب عنه ان  
راجحة هانت عليه في جميع رغائبه . والتهمة الجائحة تكرهها على  
الاستسلام الاعمى . فلن تبيع للمشنقة ان تحطف انفاس ابيها ،  
وبوسعها انقاذه من الموت ببعض البذل ، وان تكن ستريق فيه  
ماء وجهها . قد تجازف بحياتها ، وتؤثر التلاشي على الذل ، ولكنها  
لن تخاطر ب حياة والدها . فتعطي اغلى ما عندها ، كي تستبقي من  
ازجاها الى النور

واقبل شكيب افندي على مسعود العابد يقول له بنبرة المزهوة ،  
الواهب الروح : لم يتضح لنا ، حتى الساعة ، مبلغ التهمة من الصواب ،  
فاجمعنا على اخلاء سبيلك . على ان نجيبنا بكفيل يضمن مجيئك الينا  
كلما دعوناك . فسنصدق في امرك حتى ننبين في الظنة وجه الواقع .

انصرف بسلام !

فتعجب والد راجحة من هذا الانتعاش ، بعد الذبول ، وقد  
كاد يمتسي من ضيوف الآخرة . واستدارت عيناه . وشاع في  
اساريره وارف الجبور . أنجلي سبيله بعدما حسب نفسه يترجع على  
الاعواد ؟... وهتف للبشرى : أرأيت يا شكيب افندي اني  
بريء ؟... خرب الله بيت من وشى بي . الله ينصر السلطان ، وما  
كنا له غير موالين اوفياء !

فضحك شكيب افندي . مسكين هو السلطان ان يكن يعتمد  
على دعاء مسعود العابد ، وعلى وفاء الرقيب شكيب افندي نفسه . فلا  
ريب ان الاضحلال نصيبه . وجهل والد راجحة الحافظ الراهن  
الى استمناعه بالحربة . فعليه ان يشكر لابنته افتدائها اياه ، وقد  
اعطته من روحها ، وانفتها ، دون ان يدري . وسأل عن راجحة :  
وابنتي ؟... أتبرح السجن معي ؟

فاوضح الرقيب بابتسامة طفحي ، تنضح بخفي المعاني ، مما نذت عن  
الاب الحيران : انما معاً بامان يا صاحبي . على اني سارتاد مقر كما  
حيناً بعد حين ، كي استجلي الحقيقة . فلا تروا عكماً المباغته !  
فنشر مسعود العابد كلمات الترحيب بصوت عريض ، مستطيل ،  
قائلاً بدفقة من مسرة : اهلاً وسهلاً ومرحباً بشكيب افندي !  
وقبض على ذراع ابنته هاتفاً بمديد الارتياح : الحمد لله على



ظهور براءة تانيا راجحة. والشكر لشكيب افندي، وقد آمن بكوننا  
من اصفياء القلوب !

وانحنى حيال رئيس الدرك في بسكنتنا، حتى كاد يغور بين  
قدميه . وبرح وابنته المخفر. وشخص له انه خدع الرقيب. والرقيب  
ما يزال يتسم ابتسامة الظفر. ويتراءى له انه احتال على مسعود  
وسلبه ابنته . واستشارت راجحة ضميرها في ما ابرمت من  
عقد. ونهدت الى نقضه . ولكن انى لها الخلاص بما رفعت على كتفها  
من اعباء؟... ان لم تحقق ملتس الرقيب، فستعاد فصول التهديد،  
وتقود الى التنكيل الصاعق

واستوضح الاب، وقد امسى وابنته في منزله في بسكنتنا، بين  
امرأته وجميع اولاده : ولكن كيف عاد فايقن اننا لا نخفي  
جاسوساً يا راجحة ، أتعلمين؟... لا ارى في كل ما وقع غير حلم  
عاطل من الانسجام. ماذا طرأ على ذلك الرأس الصلد، من ادلة  
الاقتناع، ما اهاب به الى تبديل رأيه فينا؟... لقد لمست الموت  
بيدي . وشعرت بجبل الاعواد بشدة على عنقي. فكدت اختمق !  
فقلبت شفيتها تتجاهل الواقع . غير ان من انعم في حياها  
النظر لس فيها ممض التفكير . فهي تتألم . قال ابوها : أروك  
ان نعود الليلة الى صنين ؟

فاجابت، وهي تفكر في الطيب ناضر عون: سنعود. ولكن

ليس وحدنا . فماذا على اخي نديم لو كان رفيقنا ؟  
فصاح الجميع : سنتسلق كلنا القمة . فمن المحال ان نبقىكما ،  
في موحش الحلاء ، وحدكما !  
فقالت راجحة تصدّهم عن المغامرة ، ولبسوا باضطرار اليها :  
لا حاجة اليكم باجمعكم . نديم وحده يكفي !  
ونديم في الخامسة عشرة . على ان الناظر اليه بحسبه في الثامنة  
عشرة ، لطول قامته ، وعرض صدره . وما طرّاً شارباه ، ولا ظهر  
فيه اثر من آثار الرجولة الباكرة . وهو على اكرام لابيّه ، وولاء  
لاخته ، وعلى مفرط الشبه بها . فاعلن بحماسة الفتيان الاشداء :  
سأكون رفيقكما . لتسلق فوراً الهضبة !

وتغلّثوا في احشاء الليل شاخصين الى المنزل المنفرد ، العالق  
بين السفح والقمة ، كالحائر المقر . ورافقهم الكلب الامين يشق  
امامهم الطريق دليلاً صادقاً ، وحامياً وفيماً . ولاح القمر من وراء  
تلة كنقطة فوق حرف . فبدد عنهم ، بطلعته الانوس ، عبء الوحشة  
والظلمة . ورات راجحة ، ان تفضي الى ابيها ، بما بدر فيها من شكيب  
افندي ، الطامع في خصب المواهة . ولكن ليس هنا ، فيما يصعدون  
الرابية . بل هناك ، في المنزل الاعزل ، الساكن الحشاشة . وتبين  
ابوها ، من صمتها ، كونها غير مطمئنة . فإن كابوساً من رصاص يجثم  
بصدرها ، وليست تضحك ، ولا تطبل الحديث . مع ان من عاداتها

الافاضة، وهي في ساعات جذها . فاستطلعها الحافز الى جفافها،  
قائلاً: ولكن ما بك؟... يخيل الى من يراك انك لا تزالين في  
السجن؟

فاجبت عالياً: ليس بي شيء!  
وهمت في اذنه: اني لافكر في ناضر، وفي شكيب، وارجو  
ان نكون نجونا!

ودخلوا المنزل الغائر في الاعالي الرهيبه وراجحة تسأل نفسها:  
هل رجع الى حجرته ليرقد فيها؟... ألا يخشى البقاء وحيداً في  
مغاور صنين؟... هناك الذئب، والضبع، فكيف يقاومها؟  
وقلقت شديداً على الطيب ناضر عون، وما اهتدت له في المنزل  
الى اثر. فاستوضحت اباها: ماذا ترى حلّ به؟... أنبقيه وحده  
في الكهوف؟

فحار الاب في ما يجيب . قالت جازعة: ألا تهاجمه الوحوش؟  
فتعاطمت في الاب الحيرة . أيتوقل، في الليل البهيم، الى مخبأ  
الطيب، ويعود به الى حجرته وسريره؟... ولكن شكيب افندي  
قد يكون لهم بالمرصاد . واطلع ابنته على ما في نفسه . قالت  
راجحة: لا عليك من رقيب الدرك في بسكنتنا . اني لقابضة على  
زمامه . كل ما علينا ان ننقذ ناضراً من فتكات الضواري!  
فايدها في المشتى . ولم يجد محيداً عن التلية، معلناً: صدقت!

وهم باقتحام صدر الجبل. فقالت راجحة : ساكون رفيقتك.  
وعليّ ان أسرّ اليك بما لاغنية عن إمامك به !  
فهنف بها: بل إبقى هنا. ما يحملك على مكابدة مشقات الوعورة،  
وعلى من نترك نديماً ؟

فاجاب نديم : ساكون رفيقكما !  
فابدى الاب: ولكن البرد قارس، ولا قبل لك به .  
فانتظرنا هنا !

ورضي بان ترافقه راجحة، لفرط اصرارها على اللحاق به. ثم  
عاد ورضي بمسير ابنه بجانبه، وليس له في المنزل المنفرد من يؤنسه.  
وصعدوا الهضبة الصلداة في البحث عن الطيب، والكلب يسبقهم  
اليها. قالت راجحة في الطريق، وقد تقدمت اخاها، تمشي وراء  
ابيها : أيروقك ان تقف على ما دفع قائد مخفر بسكنتنا الى  
الافراج عنا ؟

فابدى بنبرة الفضول المشتاق : وكيف لا اريد ؟  
قالت لا تتعاسى الابانة الفجّة : طعمه في ابنتك . وقد اضطررت  
الى مجاهرته باني راضية به !  
فانقل اليها شاهراً قبضة يده، وفي نيته ان يسحقها بها. وزجر  
وقد امسك بخناقها : ماذا يا فاجرة ؟

فافلنت منه بقوة، وقالت بحزم : تابع طريقك. سنعلم كل

شيء . ليس لك ان تجيش قبل وقوفك على الحفايا !

فصاح بنزق : لاخطفنّ روحك !

فدفعته امامها تميل به الى الصمت، وقالت : اسمع . لا تقاطعني الا وقد انتهيت بما اريد معالنتك به . وعدت الرقيب المجدور بان اكون له ، وابحت له تقبيلي . وهذه القبلة هي ما انقذنا من السجن ، ومن الدبوان العرفي في عاليه ، لا ايمان شكيب افندي ببراءتنا . كما انها انقذت ناصر عون من الهلاك . والرقيب سيقبل الينا ، لا ليتبين صدقنا في ما صارحناه به ، بل ليجلس اليّ ، ويلهو بمحاسني . وسينال رغبته ، ولا يناها . فدعني اتدبر الامر . ولا تخاشنه وانت تبصره يتردد الينا . بل اجتهد في الترحيب به . وسيقع على ما يرضيك !

فما درى كيف يحتمل ما تدعوه الى الصبر على مضضه وعاره . وتجلت له الدوافع الى اخلاء سبيله ، وسبيل ابنته . فاستفهم وهو على غليان : ولكن كيف تقوين على النجاة من شره؟ ... نفسي تحدثنى بالفتك به ، بل لاسفكن دمك ودمه . ولتكن عاليه . وليكن الدبوان العرفي . فما احلى المشنقة في صون الكرامة !

وامتدت اليها يدها تبحثان عن خناقها . فتراجعت عنه هاتفة بغیظ : لا تسترسل الى غضبك الا وقد سمعت كل ما ارغب في اعلانه . حاسن قائد المخفر ، وعليّ تأديبه . تظاهر في حضرته بانك

تجهل كل ما نشرت عليك، وعندى الدواء الشافي !  
فساءل نفسه كيف يقوى على التجاهل ، والاثم يُقترف في  
منزله ، على سعه وبصره ؟... ونبر بمستطيل الحنق : لست اطبق !  
فقالت راجحة تدعوه الى الاتكال على فطنتها، والى التخفيف  
من سخطه : عليك ألا تضيق بما يقع ، والفوز لنا !  
وهمت في اذنه قولاً رشيداً ، فيه جرأة ، وفيه دهاء ، حداه على  
السكوت ، ولكن وهو يرتاب بنجاح الحطة . ان راجحة لتحاول  
امراً لا تكتب لها فيه السلامة وقد حفت به الحظر . وجنح مسعود  
العابد الى شائك التفكير . فهو في موقف حرج لا يدري به  
أتصان حياته ، أم يسان شرفه ؟... على انه ود ان يسلم الشرف ،  
ولتذهب الحياة . وليس فيها ، وقد نتنت ، غير ذل وعذاب يمرّ  
بهما العيش ، وتخزي العين ، ويرتبك الضمير  
ومضة من أنفة تعادل عمراً طويلاً ملطخاً بالسفال

## ٤

تمايل خيال في الظلام قف له شعر رأس مسعود العابد ،  
وابنه نديم ، وابنته راجحة . وعلا نباح الكلب يمزق سكون  
الليل . وقبضت يد مسعود بعنف على فأسه ، وخشي على ولديه .  
فمن يكون هذا المقلق المتربص ، أوحشاً ام انساناً ؟... أشكيب

افندي، ام ناصر عون ؟

ووثب في اثره الكلب يملأ بنباحه صنين الرابض في قلب  
الدهر . واقترب مسعود العابد بخطو وثيد ، محترس . واذا  
الكلب يسكن ، ويقفز قفزات الابتهاج ، ويعود الى مسعود وولديه  
يتبصبص . فهتفت راجحة : هذا هو الطيب ناصر . استانس به  
الكلب فرجع الينا مستبشراً خيراً !

ونادت باعلى صوتها : سيدي الطيب !

فلم يكن من الشيع الا ان مشى اليهم قائلاً بمسرة : انتم  
هنا ؟... الا معذرة من النبل الاشم . رأيت ان انحدرو اليكم  
كي اري ما انتهيتم اليه . فاني لفي قلق شديد عليكم ، وما نالكم  
مني غير الاذى !

فقال مسعود العابد وهو يبسم بسمة المرح : اوشكنا ان نبلغ  
اعماق المهواة ، الا ان القدرة انتشلتنا . ساقنا رئيس الدرك في  
بسكتنا الى المخفر . وكاد يدفعنا الى الديوان العرفي في اعاليه ، لولا  
لطف الله !

وتذكر والد راجحة ما كلفه الافراج عنه ، فزالته عن شفتيه  
البسمة ، واوشك ان يطلق الشتيمة . فما في البشر غير آثمين .  
وتكلمت راجحة فقالت : ولا تزال تحت الحظر . ابي رئيس الدرك ،  
شكيب افندي ، اخلاء سبيلنا ، الا وقد فرض علينا الشروط القاسية .

فسيقاجئنا في عزلتنا ساعة يشاء ليرصد احوالنا !  
فعبس الطيب ناضر عون، وسأل بغيظ: هل توعدك بالتجسس  
عليكما ؟

قالت : نعم . وهو يتهمنا بكوننا فسحنا اليها جاسوس  
من جواسيس الحلفاء . فالرعاة ابغوه انهم رأوا فيك جاسوساً!  
فما درى كيف يعتذر . قال : عفوكما عني . ما كنت ارغب  
لكما في الازعاج . على اني سارحل عن صنين . فالارض واسعة .  
ويوجد روعي ان اكون مصدر اذى !

فاعلنت راجحة بشدة : بل ستبقى . ليس ما يمنع ان نجبي  
اليك في كهفك ، فنعيش معاً !

فاكبر فيها جلال الفداء . انها لتبذل في الترفيه عنه ما يعدو  
وهي . وزفر مسعود العابد وقال : أيروقك ان تجريه الى  
المشقة ؟

فاجابت : لسنا افضل منه . فلا بأس ان نشاطره مصيره .  
اذا سلم سلمنا جميعاً ، والا كنا في البلية سواء !  
فقال ناضر عون، وقد ازداد اعجاباً بسمو شمائلها: هذا سخاء  
غير جدير به مثلي يا راجحة !

قالت : ان لم نكرم فيك رجل العلم، فاننا لنكرم فتى الوطن!  
ورأى مسعود العابد ان يعودوا جميعاً الى المنزل، وليس



البقاء في الاعالي محمود العاقبة . فقال الطبيب : ولكنني لن ارجع اليكم ، واقامني بينكم تكلفكم الروح !

فقال الثلاثة معاً : انزع ثوب الرعاة ولا علينا منك . ستقول عنك انك نسينا !

فاذعن بعد لأبي . وخلع عنه عمامته وعباءته ولحيته وشاربيه وطرحها في الانجاد ، تتقاذفها الرياح الى المهاوي . وسار على مقربة من راجحة يمسك بها كلما اوشكت ان تكبو ، بل كلما تراهى له انها ستكبو ، وقد استلذ ملامستها . وهي نفسها راقها ان تحتك به ، وان تستند اليه

ولدى وصولهم الى المنزل ، دخلت راجحة الحجرة الموقوفة على الطبيب ناضر تصلح سريره . ولحق بها ناضر . فشعرت ، وقد اتسعت لهما الخلوة ، ان بها حاجة الى الكلام . ستجهر على مسمع الطبيب بكل ما اتفق لها : قالت : لم أشأ ان اتبسط في حضرة والذي في الابانة . اما ، ونحن على انفراد ، فساوضح لك ما وقع . ما كاد الرعاة يلبون بسرك ، حتى هبطوا بسكنتنا يذيعون فيها ما شاهدوا فيك . ودرى شكيب افندي فحشد جنوده . وتسلق الينا المشارف . وسألنا عنك فانكرنا وجودك بيننا . فقبض على ابي . وما سمعنا نعترض على ظلمه ، حتى انقضت ببندقية على رأس والذي ففدغه . فاغلظت له القول . فدعا الى شد وثاق مسعود العابد . فايبت

عليه ان يتأدى في طغيانه . فدنا مني وقبض على معصمي . وتعاضمت  
فحته فالتصق بي . فصحت به : « نذل ، نذل ! » . فابتعد عني وهو  
يدعو الى شد وثاقي

« وقادنا الجند الى المخفر . وايقنت ، هناك ، ان الهلاك اضحى  
امراً راهناً . وخفت عليك . فمن لك وقد ضحى بنا الديوان  
العرفي ؟ ... من يحمل اليك الزاد ، ويبتك العزاء ، ويأسو جراحك ،  
ويقبك التلف ؟ ... وخفت على ابي ، وليس له ان يذهب شهيد  
المروءة . ولاح لي في شكيب افندي ، رئيس المخفر ، انه لا يزال  
يرنو اليّ بعينيه الهاثمتين ، وانه يرفب رضاي كي يفرج عنا . ولم  
اجل عليه بهذا الرضى ، لاجلك ، ولاجل ابي . فعاد يقبض على معصمي ،  
فما سعيت للافلات منه . ودعاني الى موافقته على شهوته وهو  
منقذي . فقلت : « لك كل ما تروم ، على ان تنقذ ابي ! » . فطوق خصري  
وقبلني قبلة من نار ما تفتأ تحرق شفتي . وكما تذكرتها اوشك ان  
انقبأ ، وبجمر وجهي . على اني تماسكت في احتمال الضيم كي اضمن  
نجاتك ، ونجاة والدي . واطلقنا شكيب افندي ننعم بالحربة ، على  
ان يتردد البنا للبحث عنك . على حين لا يبتغي الا التلذذ بي .  
فاذا شئت ان اكابد هذا الذل ، فلن امانع في احتماله كي تسلم !  
فصاح وقد هاله ما ياذن به : وهل بلغت نذالة المجرم هذا الأمد ؟  
قالت : لا تلمه ، وهو اشبه بسادته . انهم لقوم يلهون ،

ويستعينون بمصالح الدولة على توفير لهم . وكل ما عليك ان  
توضح لي موقفك منه . اترضى عن هذا الرجس ؟  
فهدر : لاقتلته يا راجحة !  
قالت : ولكن دمه يذهب بنا . فما النفع من قتله وسنعدم  
ارواحنا ؟

فانتابته الحيرة واستفهم : اذن ما العمل ، ما العمل ؟  
- العمل ان تقبني اذاه !  
- وكيف يتسع لي الى منع الأذى ؟  
فاجابت ، وما بدا لها الامر على صعوبة : بما يفرض الحب على  
الحبيب . ان حجتي في الذود عنك لتسمن ، اذ ذاك ، وترجع . فلا  
يندد بي اهلي وقد ازجيتهم الى المكاره لاجل من لا تربطهم  
به صلة !

فاتسعت عيناه ذهولاً . أتريد منه ان يتزوجها ؟ ... ليس  
يعاند في هذا الزواج وهو يحبها . ولكنه اذا فعل رمى الاسرة  
بنكد امضى . فلا ينجو منهم احد من نعمة السلطة . قال : وما يكون  
منا وقد تزوجنا يا راجحة ، ألا ترين اننا سنغيب في حفرة الابد ؟  
قالت : لا خوف علينا . سنتسلق كهوف صين ونعيش فيها .  
واخي يحمل الينا زادنا . واذا دهمنا الويل نزل بنا معاً . فليس  
اشهى من المساواة في رحبة المودة !

فهنف، وما كان له ان يرد لها رجاوة بعد كل ما نعم به من هباتها : لن يكون الامر الا كما تشتهين . ابن ابوك يعقد لي عليك ؟

ونادى بملء صوته : ايها السيد مسعود !

فاسرع الاب يقول : ماذا ؟... ماذا ؟

قال الطيب ناضر عون : ساتزوج الليلة راجحة . فلا بد ان

نختم الترح بالفرح . ابن رجل الدين يجمع بيننا ؟

وابى الانتظار حتى الصباح . فقال مسعود العابد، وما زال

فدغه يكويه ، وقد نشط للرغبة : ومن لنا يحمله الينا في

الظلمة ؟... بوسعنا ان نصبر حتى فجر غد !

فقال نديم : انا ادعو رجل الدين !

وانطلق الى بسكنتا ورفيقه الكلب اليقظان . وطرق باب

رجل الدين قائلاً : انهض يا سيدي . فالامر يدعو الى العجلة .

في اعالي بسكنتا من يناديك !

فلبى رجل الله، وليس له ان يزري بالضرورة القاهرة . وعقد

للطيب ناضر عون على راجحة العابد. وفي الصباح، كانت راجحة

تدعو اخاها نديماً ، وتنشر في مسعاه، باستعطاف، حديثاً ارتبك له

نديم . غير انه ما لبث ان قال : لا عليكما . احتجبا بسلام !

فغادرت راجحة منزل الروائس لتسلك وزوجها الطيب

معارض القمة، يلوذان بكهف خفي، حريز . ويمرّ بهما نديم وهو

يسوق القطيع، وبودع باب الكهف زادهما . ويجالسهما احبائاً .  
ويسرد لهما ما عنده من حكايات البلدة ، ومن اقاويص شكيب  
افندي . وينحدر وايهما في الحقاء الى المنزل ، المتبطن الهضبة ،  
فيقضيان فيه الليل ، وشطراً من النهار ، ونديم عين لهما على المباغثة .  
وما نسي الرقيب شكيب افندي ان له ، في أعالي بسكنتا ،  
مورداً ماتعاً . راجحة العابد تجس عليه ايامها . وتسلق اليها  
الآ كام . وابصر اباهما . فحياه مسعود ، ورحب به : البيت بيتك  
يا صديقي الاوفي . وهل لنا ان ننسى زكي المعروف ؟

والقوم في لبنان يدرجون على سنة الكرم . فالضيف رب  
المنزل . وشكيب افندي ابتم بهناءة . اقبل ينهل من ينبوع  
العذب . وجلس وسأل عن راجحة . فقال مسعود : هي بين  
يديك !

ونادى ابنته : راجحة ، شكيب افندي عندنا . فتعالي للسلام  
عليه . هو بشوق اليك !

فدرجت اليه وقد تعطرت ، وتبرجت . وفاح منها الطيب  
وهي تبدو ، فزاد في الالتفات الى حلاوتها . ومدت يدها الى الرقيب  
تصافحه : أهلاً وسهلاً يا شكيب افندي !

وانصرف مسعود العابد لاعداد النارجيلة ، وشكيب افندي  
من مدمنيها . وسنحت النهزة للرقيب ، فاشار الى راجحة ان افترني

مني . فلم تمتنع . وقبلها شكيب افندي في شفيتها، فردت له قبلته .  
وطوق خصرها فالتصقت به . ودغدغ نهدها . فانتفضت وابتسمت  
بغنج ، اكثر منها باستجيا . فضمها اليه الرقيب المجدور وقال :  
أما تدرين اني أحبك ؟

ونعم بساعة بمراع من المتعة لا تزال على بعض البراءة . فما  
فتى . يذكر ان راجحة عذراء . وأعدت له مسعود العابد خوانياً  
حافلاً بالعرق اللبناي الصافي ، وبالأفاويه . فشرب واكل . وأجال  
عينيه في راجحة وهو على مفرط الجبور . ووعد بان يعود .  
وكلما بدا في المنزل الاعزل لقي ابنة مسعود العابد البكر تحقني  
به ، وتهب له شفيتها وجيدها . وما انفك يعجب بنهدها المنتبر ،  
بالاجاصة الزاخرة باللحم والدم المتشجين ، الصلين . على انه  
طمع في التماذي . فلا عليه وقد ارتوى ، ونقع الغلة . شبع من  
تقبيل الشفتين ، والوجنتين ، والشعر ، والجيد ، وملامسة الصدر ،  
وبات يصبو الى ما هو اشهى

وكانت سنة ١٩١٨ قد انتصفت . واقبل الصيف . وقطفت  
بسكتابوا كبير العنب والتين . وراق شكيب افندي ان يكسر  
جرة العسل ، والا فلن يطيب له العيش . وابدى رغبته على مسمع  
من راجحة . قال : اجتزنا معظم المراحل . ولم يبق علينا غير مرحلة  
واحدة . فما يمنع من بلوغها ؟

فابتسمت وعيناها في الارض . قال : هل من مانع ؟

فاوضحت امرها : أتتسى اني عذراء ؟

فلم يحفل بالعذر . كل ما ينهد اليه ان يستمتع باللذة . فأخذت  
تماطله وهو يبلج في الشهوة . قالت : أما تعاهدنا على العفو عن العذراء ؟  
فجلجل بعنجهيته التالدة : ألا مرحباً عذراء . ان لم تعلمي  
برغبتي فلا يزال للديوان العربي بليغ الأثر !

قالت مسترحمة : اتق الله في العذارى يا شكيب افندي !  
فناقف وقبض على جيدها ، ولواها بين يديه . ومال على نهدها  
يحسّه بقبضته القاسية . ولكن هذا النهد ترحزح عن مكانه ، كأنه  
من طين موآر . فارتاع شكيب افندي حبال المفاجأة . وشقّ  
القميص . فما ابصر هناك نهداً ، بل كتلة من قطن ، يعلوها نسيج  
خشن بمسك بها ، لثلاث ترهل فتمحى . فانتاب الحبل الرقيق الامين  
لجلالة مولاه السلطان . وانفجر بصيحة الضغن : ماذا ارى ؟ ...  
ماذا ؟ ... ألا تكون راجحة بين يدي ؟

فاجابت الفتاة : ولكني راجحة !

فتعمق شكيب افندي في الاستجلاء . واذا به يعلم انه ليس  
حبال راجحة ، بل حبال شقيقها نديم . عشيقته ذكر لا انثى .  
فجنّ جنونه . أتخذعه ابنة مسعود العابد حتى منتهى الزرابة ؟ ...  
وعلت فقهة بباب الحجر . فما كان من شكيب افندي الا ان

شهر مسدسه، ورام ان يقتل المخائل الشامت . ولكن يداً، اقوى  
من يده، قبضت في لمحة خاطفة على ذراعه، وانتزعت منه مسدسه  
وهزته بعنف . وارتفع صوت صارخ ، رهيب ، ماحق ، يقول :  
ولى عهد الظلم ايها السافل . واطلقت على بيروت قوات الانقاذ .  
رحم الله سادتك العثمانيين !

وكان المتكلم الطيب ناضر عون . وقد بدت وراءه راجحة،  
ذات الدماء العريض . هي ناسجة الاحبولة . وقد حفزت اليها  
اباها واخاها نديماً . ونديم شبيها . ، فاجادا التمثيل .  
والاحتلال وقع حقاً . وخفقت في بيروت الراية العربية .  
وتضعع العثمانيون . فصعق شقيب افندي، وفتح فماً مشدوهاً .  
قطيعة والف قطيعة ! ... ضلله طويلاً النهدي الكذوب !



شريعة الفجاب

يوم اعتلى يوسف مسعود الجارو في صهوة جواده ، في ساحة الباروك ، البلدة الشاهقة العالقة بالسحاب كأنها الجوزاء ، واخذ يطلق الرصاص يمنة ويسرة ، من بندقيته الألمانية البعيدة المرمى ، الصادقة الهدف ، لم يسمع من حوله نامة تشبه عن مشاكسته ، وغطرسته . فالكلمة له ، وهو الشاكي السلاح ، المستفيض النزق  
 - واشاح عنه بنو قومه يتدمرون من صخبه وعربدته ، قائلين فيه : مجنون . اضاعت الحفرة صوابه ، فافلق الآمنين ، ونطق بالحنى العرييد !

وتحاموا مصادمته . فابتعدوا عنه لئلا يكرههم على التحدي .  
 اما هو فلم يسكت ، وما انقطع عن اطلاق الرصاص ، وقد استطالت الشتائم في شفتيه تستهين بالجميع . فالجريء من نازله .  
 والبطل من فهره . واجال عينيه في من حوله ، فاذا الساحة تقفر بمن يصونون حميتهم من الضيم . وما بقي ثمة غير الاطفال ، والنساء ، وبعض الحكماء والمستضعفين

وحلا الجو ليوسف مسعود فاستأسد . وما عفّ عن كلمة جارحة الا اسقط بها للارض ومن عليها ، وللفلك وما يجوي .

وظل العقلاء يتقون الشر ، ويحاذرون اكراه السفية على الصمت . وهم يعرفونه شرارة في يابس الحطب . فما ان يغضب - وما اكثر ما يغضب ! - حتى يضررها حامية ، فتلذع ، ونحرق ، وتتكدس بها الاحقاد والنقمة ، مداميك على مداميك وفي الباروك ، البلدة الصلبة ، العالية المناف من لبنان ، المنتصبة على منكب جبال الشوف كأنها التمثال الاشم ، قوم أباة لا يرهبون الشدة يكتبون بها ، ولا يحتجبون عن الوقعة وقد توهجت لهبتها . الا انهم يتقادون من ان يثيروها فيما بينهم . فيحمل الاخ على اخيه . وتتفكك حلقات الالفة بين ابناء العشيرة . وهو في شرعة الاخاء حرام

وليس فيهم من يجهل روح يوسف مسعود الجاروفي ، وفيه بوادر من هوس . فلا يصفو ، ولا يتند . كأنه في فوهة بركان . فان لم يتدفق بالسباب في اليوم الواحد مئة مرة ، وان لم يتحكك باثنين او بثلاثة من الناس ، فيشتهم ، ويخاصمهم ، ويباطحهم ، ويشهر عليهم مسدسه ، فالجياة لا تتكشف له عن وجهها الانيس

وهيات ان يبدو في ساحة القرية بلا سلاح . فان لم تكن بندقيته الى كتفه ، فلا يجلو عن وسطه الخنجر والمسدس . وهو على طول قامته ، وسعة ألواح ، ومناعة اعصاب . اسمر .

عابس الوجه . اسود الشاربين . في الخامسة والعشرين . يمشي  
وكانه القضاء . اشتغل في بده عهده در كيا . وقلّ في ابناء  
القرى في لبنان من لم تحدّثه يوماً نفسه بان يكون من رجال  
الامن ، وله ثمة مورد مأمون يقبه مغالبة الارض ، واستحلاب  
الصخر . بيد ان لواء الدرك نبذ يوسف مسعود لفرط ما عانى  
من حدته ، وصلافته . فما يستقر بمكان الا والصراخ يعلو ، كأن  
القيامة قامت !

وتعود اخوانه في الباروك خشونته وأشره ، فاجتنبوه . على  
ان سكوتهم عنه زاده بطراً ، فتمسّر . وما بدا في ذلك اليوم ،  
الرفيق المجهس ، في ساحة القرية صاحباً ، متطير الرصاص ،  
لامر يدعو الى الجفوة والحنق ، بل طلباً للمناكدة . وللمستاء  
ان ينطح الصخرة ، وبوهنها ... اذا استطاع !

وهذه الصخرة لقيت من ينطحها في ذلك اليوم المشؤوم .  
فلم يطلق نجم سرحان ، احد اشياخ الباروك ، الناعمين بالمشيب  
الوقور ، ان تسقط الشنائم في اذنيه دراكاً ، وهو يتجرّز منها ،  
وينفر من قائلها . فالتفت الى يوسف مسعود يعالنه يجفاف :  
اعتقد ان هذا السفه بلغ مداه ، يا يوسف ، وقد حان لك ان  
تنتهي منه . فالقرية ليست بجبرة على الاصغاء الى بذاءتك . فدعنا  
من قذعك الشنيع !

فجدج يوسف مسعود مخاطبه بعين قاسية ، يتطايّر شررها .  
وغاظه ان يفجأه نجم سرحان بالصدمة ، وهو آخر من يرقب منه  
ان يتصدى له . وصرف باسنانه حتى كاد يبريها . وما درى بما  
يردّ به على شيخ مجلته ، ويتجنب الاساءة اليه . على ان نجم  
سرحان اخرجته ، وفرض عليه الجواب . فقال بنفرة : احفظ  
لسانك ، يا شيخ نجم . لست ارضى ان ينبري لي من يعزّ عليّ  
ان اخاشنه . فهل تنسى أي كرامة لك عندي ؟  
ولكن نجم سرحان ما اكتفى ، بل قال : ان يكن لي  
عندك بعض الكرامة ، فصن القرية من عضات لسانك ، ومن  
رصاصاتك . فما كانت الباروك لمثلك مشاعاً !

فعاد يوسف مسعود يطحن اسنانه . ما كان يميل الى النيل  
من الشيخ نجم ، وله في بيت الرجل من يصبو اليها ، ولا يلين  
لسواها . فالعادة الناشئة ، في تلك الظلال ، حبيبة الي من لم  
يكن يستطيع ان يحب احداً سوى نفسه ، كأن الجميع ليسوا  
ذوي مكانة لديه . قال وهو يجهد جهده في زحزحة نجم سرحان  
عن اخراج اياه : دعني لشهوتي ، يا شيخ نجم . فما عهدت  
اليك الباروك في الدفاع عنها !

وادار له ظهره ، لا يبتغي ان يجيبه بنكر . غير أن نجماً ،  
وقد احس بكونه انتصر على يوسف مسعود ، مضى في التنديد

به قائلاً بامتهان: يجرع الواحد منكم كأساً من الخمر، فيتراهى  
له انه عنتر عبس، وان الكون يضيق به. فينتفش، ويحتقر من  
حوله، مع كونه ريشة في جناح مبيض!

فسمع يوسف. وجميع من في الساحة سمعوا. وشعر  
الجارو في بان الاحتمال بات يجاوز الوسع. فالتفت الى نجم  
سرحان بعينين اطبقهما الغضب بعض اطباقه، ونبر بغيظ: انك  
لتفرض عليّ ما لا ارتضي لنفسي، يا شيخ نجم. هلا دخلت  
منزلك، وكفيتني شرك؟

وجاشت فيه النقمة. بيد ان نجماً، وله في مجال الغارات  
وثبات، لم يكن ممن يلويهم التهديد في البلدة المنتصبة كالعلم،  
في الباذخ من لبنان الاشم، فصاح: لتمتد يدك علي مداها،  
يا يوسف، ولا تقل نجم سرحان قد شاخ!

وهو بيان من امتدت به السن، وفاءت به الهمة بعد مضاء،  
فابى ان يقرّ لنفسه، ولا لمن حوله بالتواء العزم، ووهن الساعد.  
وقد يصارح نفسه، على مضض، بما يعرفه. اما ان يذيع  
عباه، في من عرفوه على عزة، وصدق وكد، فهو ما يتحرّز  
من اعلانه. والشيوخوخة تغالي، مع عنايتها، في دحض العناء،  
كأنها تنكر نفسها. وكبج يوسف جماحه. وظل يتصوّن عن  
ايلام والد صفيّة، صفيّته ذات السني الدفاق، والخلق الوضاء،

بجاهداً في الابتعاد عنه . ولكن هذه الوقاية زادت في جراءة  
الشيخ الغضبان . كأن عهد الفتوة استيقظ فيه وعلى به دمه .  
فنفر الى صدر الساحة يقول بشموخ ، عابثاً بدعوة حبيب ابنته  
الى التروي : قضيت عهد شبابي في مصاولة ذوي البأس ، ولا  
يضيرني ، وانا في مشيبي ، ان أجهه كل ذي اعتداد ، يا يوسف !  
فزفر الجاروفي ، وقد ترامى له ان نجم سرحان يجره عفواً  
الى المخاصمة . وهتف من كبد تملتل : هلا غربت عني ،  
واكرمت شعرك الابيض ، يا نجم ؟

فضرب نجم سرحان بمداسه الارض ، وصرخ بنزوة الاعتداد :  
ان تكن رجلاً غالبت هذا الابيض الرأس ، يا ابن الجاروفي !  
فلم يبق من سبيل الى الاشاحة عن الصدام . نجم سرحان  
يريدها على مستفيض الغليان . وارتدت اليه يوسف مسعود صائحاً  
به : أما ادركت انك دون الكفاح ؟ ... ارجع الى بيتك .  
هذا الجفاء فيك ينبو عن موضعه !

فقبض نجم على جمام الفرس ، زاعقاً بسخط : لا يخيل اليك  
أن عمك دونك . هذه هي الساحة . فترجل ، ان تكن ذلك  
السمين الضلع !

فلبى يوسف مسعود والحنق فيه يفور . وركض من في  
الساحة من ابناء القرية يصيحون : حذار ان تؤذيه ، يا يوسف .

فهو بمقام ابيك !

ولكن نجماً اراد لنفسه الاذى ، وقد امسك بمخناق يوسف  
مسعود ، ولطمه . فكان جواب اللطمة رصاصة نزلت من نجم  
سرحان جيئنه . فما نبس حتى بأنثة ، وقد سقط فوراً الى  
الارض ، يتشعط بدمه . وعلا الصراخ من كل جانب :  
قتله ، قتله !

وتصاعدت ولولة النساء . وماجت القرية هولاً . وملاً بنوها  
ساحتها هاتفين : اقبضوا عليه . اقبضوا عليه !  
ومن يقبض على يوسف مسعود الجاروفي ، وهو المسك  
ببندقية الالمانية الثاقبة الصخر ، والمعترّ بقوته وجسارته كأنه  
الفهد ؟ ... فامتطى جواده الوثاب واحتجب في لمحة كالومضة .  
وبحثت عنه القرية فلم تجده . وجلّ ما عرفت عنه انه دفع  
جواده الى نبع الباروك . ومن النبع لكزه يشقّ به الاعالي  
الوعرة ، الحافلة بالصخور الدكن ، اضراس القمم الابكار  
وظلت الولاية تنتفض برعب وحقد . وما تماسكت صفيّة ،  
وهي تثب الى ابيها الصريع ، عن نبش شعرها وحلجها ، صارخة  
ببلء حنجرتها : هل قتلك يوسف مسعود ؟ ... ليت تحطمت  
بينه ، قبل ان تسد اليك الرصاص . بل ليت استقر بقلبه رصاصه ،  
فمات وسلمت . على اني سأثار لك منه . فلن اخلع جدادي



عليك الا وقد سقيت الارض دم الاثيم !

وانفجرت بالندب والنواح كافرة بهواها . وحمل ابنا  
القرية الجثة الى مسكنها المشرف على الساحة ، وهم يعلنون  
بامتهان : على من تجرأ يوسف مسعود ؟ ... هل من الفخر له  
ان يصرع شيخاً يكاد يطويه الضريح ؟  
وصبوا عليه لعنائهم . ما يعيش في سوى النوازل ، كأن الهدوء  
يشقيه . ولد في جحر الافاعي ، وعاش بفجيجها ، وسيجوت بسمها ،  
وقد جاوز في فحشه الامد

واجتمعوا على مطاردته . فاذا وهنت دونه قوات الامن ، فلهم  
من عزماتهم ما يقوون به على قهره ، مها بلغ من الصلابة .  
ورجال الامن ظهروا في الساحة والنبا يسقط اليهم . ولكنهم  
بدوا فيها للتعزية بالقتيل ، وليس للقاتل اثر في البلدة المعتصمة  
بالاطواد

ووقفت صفة في جماعات المعزين والباكين ، وهي لا تزال  
منبوثة الشعر ، نصيح مخاطبة الجثمان الهامد : ابي ، لست ابنتك  
ان لم اقتله بيدي . سفك دمك فلا ترض عني ان لم اسفك دمه .  
شرعتنا دم بدم !

واصفى اليها باعجاب جميع من ضمهم المأتم . وما كانوا  
ليجهلوا ان يوسف مسعود الجاروفي على كلف بها . بل هم لم

يجهلوا انها تؤيد هذا الكلف ، وتستلطف من وقعت منه .  
ورفوفها الآن ، عند جثمان ابيها ، منادية بالاخذ بالثار ، جنح  
بهم الى اليقين ان اكرام الاب يرجح الافتتان بالحبيب . وما  
ندّ عنهم ان صفة تجهر بالقول المحكم الذممة ، وما تعودت  
الكلام الجزاف . واني يصبو فؤادها الى من بطش بابيها ،  
وطرحها وحيدة ، على وحشة ويتم ؟

وتأفقت الباروك باجمعها من المشاكس المجرم يوسف مسعود ،  
وما يؤكن اليه في صداقة ، ولا يرجى منه وفاء . ونشطت في  
الفحص عنه والقبض عليه كي تطرحه في قبضة العدل . فيقتص  
منه النظام ، وما ينفك يعبث بجلاله ، ويشتم منعمته . وانطلق  
رهط الى الاعالي في نصرة رجال الامن على القاتل . ولكن يوسف  
مسعود ضاعت آثاره ، كأنه شرارة انقادت ثم اضمحلت . وقال  
ابناء بلده : لقد فزع الى جبل الباروك العالي الذرى . وقد  
يكون نوارى في غابة الارز !

وجبل الباروك ما يفتأ يحرص على بقايا من اشجار لبنان  
البواسق ، الصلاب . فردّ عنها التلاشي ، واحتضنها بعطف الشجيع ،  
كأنه يابى ان يكون ذلك الاجرد المحض . وهو منها كالاصع ،  
الضنين ببضع شعرات في مفرقه ، لا تحجب صلته ، ولكنها  
دليله على عهد الفتوة الممرع

وفي شجرات الارز، النامية في جبل الباروك، متسع للاحتجاب.  
فهنالك غابة ظليمة، متشابكة الاغصان، تبيح للاجئين اليها  
التواري فيها عن الانظار، وتجود عليهم بالامن الرفيه. فلا  
عليهم من صدعات الزمن اذا ما توافر لهم، وهم فيها، المأكل  
والمشرب. على ان يحذروا الشتاء الهدار، وتلوجه من جبل  
الباروك مرتفع هنيء، يطول فيه القرار. فيبيت الجبل المبسوط  
المدى، المنيف الهامة، جناحاً ابيض، كأنه رمز النصاعة والجلال  
وما اخطأ من قال في يوسف مسعود انه لجأ الى غابة الارز  
في الباروك، بعد فتكه بنجم سرحان. فهي خير عاصم له من  
مباغئات رجال الدرك. وثمة من المخابىء، في الطود المترامي  
الاطراف، ما لم تطرفه قدم. فاذا ما عمد يوسف مسعود  
الى استظلالها، حمته من المنطلقين في اثره للقبض عليه

وليس يحتاج في عزله الموحشة الى سوى الزاد. فان يقع  
عليه، فالسلامة مكتوبة له. وما لمطارديه ان ينالوا منه مأربة.  
وله ان ينقلب الى سهل البقاع حين يدهمه الشتاء. فيضيع في  
الفسحات المتأدية البساط، بل الممتدة بساطاً تلو بساط، كأنها  
تستبين بالانصرام

ويوسف مسعود الجاروفي ابن هاتيك الارجاء. فما تحفى  
عليه مكانها. وتراءت له فيها الدعة وهو يهفو اليها، بعد

اقدامه على البطش بوالد صفية . ولكن الشعور بالامان لم ينقذه  
من الندم النهائي . فعلى اي جريمة اقدم بقضائه على نجم  
سرحان?... أما كان عليه ان يصبر على دلال ابن خمس وستين ،  
بحسب قوله منزلة?... ولن يعيره بنو قومه الالتواء ، وهو  
يبدى الجلد حيال ما جبهه به الشيخ نجم من غصبة وشموخ .  
فلن يقال فيه ، وقد سكت ، انه انهزم . بل يقال انه انحنى لجلال  
المشيب ، واكرم الشيخوخة المنحدرة الى بؤرة الفناء

وأحس ، فيما يدفع جواده الى صميم غابة الارز ، بانه خرج  
عن صعيد الهدى . فما كان لرصاصه ان ينفجر مع انقراض نجم  
سرحان عليه باللطمة . ولكن هذه اللطمة طمست فيه النهاية ،  
فضاع عن امره . وهل له ان ينام عمى يطمه ، وهو يجد في  
نفسه من الانفة ، ما لا يحتمل عبسة?... جميع من في الباروك  
وجوارها يهتابونه . ومن لا يتهيبه انقاه . فكيف يميز لنجم  
سرحان ان يبينه بتلك الحشونة الحاطمة?... له ان يكون والد  
صفية ، وان يكون شيخاً في الخامسة والستين ، وان يتقد بالحمية ،  
فما لهذه المزايا كلها ان تطلق يده ، في اللطمة ، يخضب بها وجه  
يوسف مسعود ، المتطير شرراً لطنين ذبابة يقلق مسعده  
وعذر يوسف نفسه وعتب عليها . نجم سرحان اخرجته ، واكرهه  
على افتراف الاثم . فهو من هذه الناحية على خلو بال . على ان

ما يعذبه ، كون الضحية والد من هوى . فماذا تقول فيه صفة  
وقد ذهب بأبيها ، وأمال عزها ؟... أتظل على هيامها به ؟  
وخشي ان تصدق عنه . بل ان هذا الصدوف واقع وليس  
عنه غناء . فما لفتاة ، مها بلغ منها اسفاف الطبع ، ان ترضى  
عن قاتل ابيها ، والكره له يجري فيها على طفاح . وكيف تقبله  
زوجاً وهي تودّ لو تطويه انتقاماً ؟... وقطع منها يوسف مسعود  
كل امل . وداعاً عهد الهوى الداوي !... سيعيش لنفسه . بل  
لنزقه . فيهدد ويقتل ، ويثير الرعب في الارواح ، ويتحدى  
رجال الأمن . فيهلك منهم من تسعفه فيه يمينه . ولهم أن يحجوه  
اذا تمكنوا منه . فالمغالبه تفرض الصراع

وما عقد يوسف مسعود الرجاء على الفوز ، وكلمة الحثام  
القاطعة كلمة الجند . الا انه ازمع الدفاع عن نفسه . فلن يذهب  
بخساً . وأوجهه أن ينصرف عاجلاً عن دنياه ، وما كان فيها غير  
طيف شرود . على انه بمن يؤمنون بالقضاء والقدر ، ويسترسل الى  
احكامها . هذه هي ابامه وقد كتبت عليه منذ مولده . بل قبل  
ان يولد . فالكون ، في عرفه ، قام على مساق متسلسل الصفحات ،  
ومن المحال ان يخرج عن النظام المقدور

وطال تفكيره في صفة . وتاق الى الوقوف على رأيا فيه .  
فماذا ترى في ما بدر منه ؟... من الراهن انها تلغنه . ولكن

هل يطيعها قلبها في اطلاق اللعنة؟ ... ان المظاهر لتتحتم عليها  
رشفه بالمثالب ، وهو قاتل ابيها ، فهل يؤيدها جنانها في نفث  
الدعوات عليه ، وهو حبيبها ، فيتفق اصغراها على هدمه ؟  
ومال الى الايمان بانتصارها له . ستغفر له زلته وقد اقدم  
عليها في ساعة من ساعات الطيش . ثم لن يغيب عنها ان اباها  
احرجه ، وجنح به عن الصبر . وليس له ان يحتمل اللطمة وهو  
في الباروك من ارباب البأس والحمية . ولم يمت فيه الامل .  
وما للرجاء انطفاء حتى في فحمة اليأس  
واستقر تحت شجرة من الارز اشبه بالصرح في علوها ،  
وانبساط اغصانها . ولم يترجل ، بل ألقى اذنأ الى الوادي  
ليسمع ما يحمل اليه الصدى . انطارده قوات الامن ؟ ...  
وسقط اليه وقع خطوات . هم في اثره وقد اخذوا يعتلون اليه  
الروائس . ولكنه سيضللهم . لن يقورا عليه وهو ادرى منهم  
بجفايا المكان

واجمع على بلوغ القمة . سيتسلق في الموقل الوعر اسمى  
ذروة ، ويشرف منها على القوة المندفعة الى امساكه . فاذا ما  
رمته بالنار ، قابلها باطلاقات من بندقيته لن يسلم مطارده من  
شرها . وصعد به الجواد المعارج العالية الصخور ، الصعبة المرتقى ،  
حتى ليكاد يزلق عنها لفرط انحدارها . وخذش سمع الجاروفي ازيز

الرصاص . رآه الجند فصبّوا عليه نيرانهم . ودفع جواده الى  
ما وراء صخرة شاهقة ، هاتفاً ببندقيته : عاجليهم بما يهرون !  
وشعر الجند بان اليد المسددة اليهم النار مجرّبة ، لا تنبو عنها  
الخنكة . فالرصاص يكاد يصطادهم واحداً ، واحداً ، لولا ما  
لاذوا به من المتاريس . واضطروا الى التقهقر حبال براعة يوسف  
مسهود في الاصابة . فعليهم ان يدرأوا عنهم الخطر ، وقد جرح  
بعضهم رشاش الصخور المتفتنة برصاص القاتل الفارّ  
وما فتى يوسف مسعود يهتف بهم : للبطل فيكم ان يكشف  
عن جبينه !

وهم يعرفونه ، يوم كان مثلهم في الدرك ، يجيد اطلاق النار .  
فلا تطيش له رصاصة . وتواروا يسترون هزيمتهم ببضع اطلاقات ،  
لئلا يقول فيهم انهم هربوا منه . ولم يجهل انه دحرم . فضحك  
وقال : ما هم غير جماعة من المرتزقة . وليس للمرتزقة ثبات في  
موقعة ، وهم طلاب لقمة ، يخافون على امعاتهم ان تندلق اذا ما  
خاضوا غمار المنايا !

وعاد الى جواده يعتليه ويزجيه الى سامق القمم . ولولا  
مضاء الجواد ، الصلب الحافر ، لتدحرج مراراً الى الهاوي المتعددة  
في الجبل الرحيب . وبلغ يوسف مسعود رأس الطود وايقن  
بالسلامة . فأضحى الشوف عن يمينه ، والبقاع عن يساره ، وهو

منهما كحامل الميزان. ولاحث له السماء قريبة منه وقد تطاوات  
اليها قبضته، كأنه يروم الاعتصام بها من مطاردية. ولكن انى  
يقع على المأكل...؟ وبجث عن الرعاة، وهم على وفرة في جبل  
الباروك. واهتدى منهم الى من لا يتورع عن البذل في ارضاء  
الجاروفي. وليس فيهم من يجمله. قالوا: نحن طوع يدك!  
وما كذبوا في ما اعلنوا. فاتهم ليعطونه منهم ما يشتهي،  
ويكتمون سره، ويرشدونه الى المخبأ الآمن، وكلهم على اعجاب  
بفتى الهمة والاقدام. وراوا فيه سيدهم. وجلسوا اليه يصيخون  
الى احاديثه، ويكبرون جراته، ويستخفون بمنائيه، فاثلين:  
كلنا بجانبك. لدينا السلاح والمال. فاذا شئت ان نكون من  
رجالك، فليس فينا من يتردد في ان يهب لك الروح، ونحن فداء  
امثالك الابطال!

٤ ولهؤلاء الاشداء، حتى على هوس، فنة تنصرهم. وترى  
فيهم رمز القوة والشجاعة. وتميل الى تأييدهم في كل ما يجتريه  
عليه. وهم في عرفها عنوان البسالة. والبسالة صنم مرموق يسجد  
بين يديه حفل من الحاشعين. وارتاح الجاروفي الى ما وقع عليه  
في الرعاة من مواءمة ٧ وما جاوز في ما التمس منهم ما يبيع  
لهم الوسع. فليحملوا اليه انباء بلدته الباروك، وليجيبوه  
بالطعام، وليستطلعوا له امر صفة. أنتقم شديداً عليه، ام



تكتفي بان تبكي ابها ، وقد غفرت لحبيبها ضلاله ، وكان في  
وقفته الآثمة على احراج ، اكرهه على الشذوذ ؟  
والرعاة ما تنكبوا عن التلبية ، وهم يكبرون سطوته ،  
ويتغنون بآثره . فروروا له ما شاهدوا في الباروك وما سمعوا .  
رجال الامن يرصدونه . وصفيّة تمضي في انتحائها . وابناء القرية  
يقولون فيه إنه مغوار ، وبعضهم لا يتخرجون عن الاعلان  
انه ... مجنون !

## ٢

رقد يوسف مسعود في المغاور والكهوف ، بجانب جحر  
الافعى ، ووجار الذئب والثعلب ، وقرية النمل ، وكور  
الزنبور . وشرب لبن المعز ، واكل العصفور ، ومضغ البلوط .  
ودخن اللفائف ، ورشف الحمرة ، وكان يجيئه بها الرعاة ،  
واستمع باناشيد هؤلاء البارعين في نفخ مزمار القصب ، وفي  
الترنم باغاني المواليتا والعتابي . وفي العصر يركب جواده ،  
ويجول في القمة ، وعيناه في المنحدرات والنفوح  
وما خلع اسلحته ولا ثيابه . فينام والبندقية في كتفه ،  
والمسدس والخنجر في وسطه . وينهض وما يزال الخنجر  
والمسدس والبندقية في متناول يده . فهو ابدأ على حذر .

وقال له الرعاة يوماً ان رجال الدرك قبضوا عليهم ، وهددوهم بالسجن ان لم يطلعوهم على اخباره ، ويرشدوهم اليه . فانكروا ان يكونوا ابصروه . فرماهم الجند بالشتائم الغلاظ ، وكادوا يشخون فيهم ضرباً ، قائلين لهم بنقمة : ان لم تأتونا الليلة بالنبيا الجلي ، منعنا عنكم المرعى ، وسقناكم الى معقل بيت الدين ، مكبلين بالقيود !

فقال يوسف مسعود ، وقد استشاط غضباً : أيكروهنكم على البوح باخباري ؟ ... ولكن ابلغوهم اني هنا بانتظارهم . فما بهم لا يكلفون انفسهم المجيء اليّ ؟

وسخر بهؤلاء المتوعدين من بعيد . فما بمسك بهم عن مصادمته في القمة ، والقبض عليه حياً او ميتاً ؟ ... انهم لا يبطال اذا فعلوا . قال الرعاة : وكلهم يتردد الى منزل نجم سرحان ، ويتودد الى صفيّة ، ويعالنها بعزمه على جرّك اليها مخذولاً ، زريباً ! ففقه ضاحكاً ، وليس له الا ان يقهقه ، وقال : ولكن لياتوا ، لياتوا . أشخص اليهم في مخابثهم ؟ ... متى كان الجبناء شجعاناً ؟ على ان ما ساءه ، وقضى على قهقهته بالجمود ، جلوس الدرّكيين الى صفيّة ، وتوددهم اليها . أنخطر لاحدهم ان ينتزعها منه ؟ ... وازمع مخاطبتها في امره ، وما يزال منها على لاعج الكلف . فهلا صفحت عنه ، وابتاحت له العودة اليها ، فيعيش

واباها على مستطاب الانس ؟

ولكن من يحمل اليها رسالته ؟ ... لو ملك اليقين أنها  
تفسح له اليها ، لانحدر الى الباروك ، والنسل الى مأواها ملتصقاً  
غفواً . بيد انه يخاف ، اذا ما اقدم على هذه القجة ، ان تستجير  
صفيّة منه . وقد يتكاثر عليه ابناء القرية ، فلا يفلت من ايديهم .  
واذا سلم منهم ، فلن ينجو الا وهو يخضب الارض بنجيب  
بعضهم ، وليس ينزع الى المضي في اختلاس الارواح  
اذن من يكون رسوله الى الفتاة ؟ ... ومثلها في عهد  
الرضى . قاوم الجميع رغبته في العقد له عليها ، فأخرست  
الجميع ، وما اجازت لهم الطعن عليه . فهو من تتوق اليه  
نفسها . وليس لمن تلتفت اليه ان تتناوله اللسن بغمز . قال  
ابوها : ولكن من اختوت ؟ ... هل وضع لك امر من تجنحين  
اليه ؟ ... ليس يحتمل دغدغة . وما في لسانه كلمة طيبة الفوح .  
ولا ثروة لديه . ولا حرفة يتكسب بها . ولا مقام . فهل نبذت  
سائر طلابك كي تقفي نفسك على هذا الفلتان ؟

فاكتفت بان نجيب ناشطة في صبايتها : ما يشتهي سواه  
خاطري . قد يكون طائشاً ، ارعن ، الا اني ساروخه ، واقيم  
منه ذا لبن ومكانة . فالمرأة تذلل المحال ، ولا يضيق بها ان  
تحول الصحراء القاحلة الى روضة بمراع !

فنبه ابوها وما زال يمانع : ولكنك تشقين به !  
- لن اشقى ، وسوف تراه سلس المقادة ، كريم الطبع !  
واضطر نجم سرحان الى السكوت ، كأن لا رأي له في  
ابنته ، مع اعتداده بكونه صاحب الكلمة القاطعة في بيته . فان  
لصفيّة عليه دالة يابى ان يتحرر منها . وعرفها ذات فطنة ،  
واحتراس ، فاباح لها الامر . على ان لا يفرر بها خفقان قلبها ،  
فتضيع في التماس السراب

ولم يمنع يوسف مسعود من مخاطبة الفتاة وبجالتها . فقد  
تنفر منه حين تلمس عن كذب شذوذه . او انها قد تحدث فيه  
من التبديل ما لا يقوى عليه سوى ارباب المعجزات  
وسكر يوسف بالحمرة المعتقد المتلازمة في خابية نجم سرحان .  
فهو منها في دعة وبهجة . وقال يسرد لصفيّة هيامه بها : ما عرفت  
اني على احساس بالهوى الا وقد رنوت اليك . وانكرت على  
نفسي ، قبل ان اراك ، نبضة الولوع ، كأنني مقصوص من جذع  
يبس . اما الآن ، فقد توهج قلبي بنشوة الهيام ، والفضل لما  
ازدنت به من مواهة ، ورضانة ، يجتذبان اليك حتى الخليّ الحرون !  
فاعلنت وهي تبسم : ولكنني اريدك على التخلي عن عنجهيتك .  
فليس العهد عهد شراسة وغضب ، بل عهد لطافة ورفق !  
فضحك عالياً وقال مداعباً : ماذا يبقى من يوسف مسعود

وهو ينزع منه نزقه؟... أفلا تدرين ان خطري في هذه الغضبة  
السريعة، المشتعلة بها اعصابي؟... فانا حين ابدو مخوف، يرهب  
القوم جانبي ويتقونني . على حين أصبح كالجميع اذا سلخت مني  
طابعي، واضيع في الكومة. فما يجشاني احد، ولا يقام لي وزن.  
مع اني من هؤلاء الساعين للظهور، لا للاحتجاب، يا صفة .  
ولست اجيد غير التباهي بقوة ساعدي، وما انا بذوي وجاهة،  
ولا بذوي علم . فابقيني على علمي، ولا تمحي مني لونا اعيش به،  
والا تجاهلني جميع من حولي، وأزروا بي !

وسألها في الأبقاء على خلقه، وله في المناكرة لذة وصيت .  
فتعرف الباروك وضواحيها انه حاضر ابدأ، وليس بمن يطمسهم  
التناسي، ويدب اليهم الحمول . وجنح بها الى موافقته على  
عجيبته، وما تطيب له الحياة ان لم يكن فظاً . على ان هذا  
الفظ في الناس، حمل وديع في حضرة من يوثقه بها اندي الحنين  
وتبينت منه انه لا يفيض بالباطل . فما ان يجلس اليها حتى  
يعروه انقلاب خاطف . فينتلق من شفتيه الكلام النظيم . ولا  
تخلج في حنجرتة شتية، كأنه من اولئك الاعفة، الحراس  
على وضاعة اللسان، ونقاورة الدخلة . وما يكاد يبدو في الساحة،  
حتى يعود الى ما كان فيه من صلف، وغطرسة، وتنكيد  
واضطرت صفة الى قبوله، على ما يشوبه من خير، وليست

تقوى فيه على تقويم الاود . وبذلت له المودة بلا امسك . وما  
ضنت عليه بصفايا الولوع . فلقيت فيه وجهاً كريماً ، مع كل ما  
نمي اليها عنه من انحطاط خلق ، وقسوة روح . قال محرّضوها  
عليه ، وذوو القول الجارح على وفرة : ما وقعت على سوى  
المدر ، وقد فاتك الدرّ . يوسف مسعود سيبدد مالك ، ويقصف  
عودك . أما ابصرت في الباروك غير هذا الالهوج ، الغضوب ؟  
فهاجت ونبرت : اخترته لنفسي ، لا لكم . فاكرموا  
عاطفتي ، ولا ترضوا قلبي . ان يكن لي ان اشقى بقرب من  
وقعت عليه ، فالتبعة على كبدي . واذا ادركت النعمة ،  
فكونوا شركائي في المسرة !

وما وقف يوسف مسعود منها موقف الجاف اليد . فاهدى  
اليها الكرائم بسماح . وما لقي من ايها نجم سرحان النقرة .  
فرحب به نجم متغاضباً عن هوسه . فما دامت صفة تستملحه ،  
فلماذا يصرفه ابوها عنها ، والجدال في شهوات ذوي الصبابة عقيم ؟  
وما يفتأ يوسف يذكر قولها له في احدى الامسيات ، وقد  
تهاديا معاً الى نبع الباروك ، تحت رعاية ايها : حبي لك صافٍ  
كسياه هذا النبع ، وغزير كفيضاتها ، الا انه ابعد منها مدى ،  
ولا نهاية له !

وهي كلمات حفرها في ذهنه وصدرة . ولا ينفك يرددها في

كل ساعة من ساعات يقظته . وما غفل عنها الا ولطمة نجم  
سرحان تنقض عليه فتخلع صوابه . وما كان نجم باضطرار الى  
المغالظة . ومن الحير له ان يملك يوسف مسعود المقام في بلدته .  
فلا يجرؤ احد على الوقوف دون القذيفة المتفجرة ابدأ . ولكنها  
هنية من شؤم ، قادت الى مستحکم النكر

غير ان يوسف مسعود ينهد الى التماس المغفرة . فهو مجرم .  
وانه ليتوق الى التكفير عن اثمه بما تستطيع صفيه . فماذا تقدر  
على غريمها من فداء ، كي ينعم بعفوها عنه ؟ ... وقصّ على  
الرعاة ما يضطرب فيه من ارتباك وجزع . وطلب اليهم ان  
يرشدوه الى سيد الخطو . وليس للمنكوب ، وهو الاعمى  
البصيرة ، ان يتدي . قال : انتم اصفى مني ذهناً وجناناً وما  
اكتويتم بالنازلة . وابنة نجم سرحان أحبها . فكيف احو من  
روعا كوني قاتل ابياها ؟

وتعددت آراؤهم . وما اجمعوا على سوى ضرورة اطلاعها  
على ما يختلج فيه من ندم وشوق . قال واللوعة بمسكة بخنافة :  
ومن رسولي اليها ؟

فما ظهر فيهم من يحجم عن اداء المهمة . كلهم لها . قال  
يوسف مسعود وقد اصطفى بونس الاعرج : انت على حلاوة  
لسان يا بونس ، وعلى بشاشة وفتنة . وتثوي بالباروك نفسها ،

فانطلق الى صفيّة وابلغها امرى . ولن ألقنك ما عليك ان

تقول ، وانت على حسن بيان ، وصدق مخبر !

وتأود يوسف مسعود الصلب الشكيمة ، الحديد اللسان .

فهل له ان يشكو حالته الى اخوانه الرعاة، وهم ادرى منه به...؟

واشفقوا عليه من نفسه . فهو في لاعج الحرقه . وانطلق يونس

الاعرج الى الباروك مطرقاً . انه ليحمل اتقلاً من تكاليف .

فكيف يبدو ازاء صفيّة سرحان ، ويعالنها بما اعاب به يوسف

مسعود الى مجاهرتها به ؟ ... أترضي ان تأذن بالاسم الشائك

الوقع ، المكروه ؟

وخشي يونس ان تدل عليه صفيّة قوات الامن ، وتصارحها

بانه شاهد يوسف مسعود، واقبل اليها في رسالة يؤديها عن الجاني.

الا انه ، وقد وعد ، ساءه الا يبرّ في الوعد . سيمثل في بيت

نجم سرحان، ويطلع صفيّة على رغبة الجاروفي، قائل ايها . فاذا

طرده من حضرتها ، وشكته الى رجال الدرك ، وامسكوه ،

فحسبه انه انجز ما عليه

ورضي بان يجازف بايامه لاحقاق ما اوثق به نفسه من عهد.

وما للحياة ، في عرفه ، شأن ان لم تكن خالصة من الكذب

والجبن . ومشى الى صفيّة بخطوات حازمة ، لا ترهب . ولاح

له رجال الدرك في ساحة القرية يحدقون اليه بعيون غضاب ،



كانه من ذوي الشبهة، وهو يجاور في القمة يوسف مسعود . فما  
اكثر لهم . غير انه حاذر ان يبصروه يدخل منزل نجم سرحان .  
ولا بد ان يلمتوا بالحافز الى سعيه لمراى الابنة المنغمسة في  
احزانها . فما اوفده اليها غير الجاروفي الوهان ✓  
واحنال بونس الاعرج على دخول الماوى . فما ولج الا  
والجنود يميلون عنه . وحيا صفة نجمة المشارك في اللوعة .  
وجلس بقربها يقول : رحم الله اباك ، تعودت أن أجيء مراراً  
اليه . فاقاسه ، في الليالي الحوالك ، سهراته بجانب الموقد ،  
واستمع له في حكايته عن الزمن الحالي . دام لك من بعده طول  
البقاء !

وجاء اليها بثياب البراري . فالمداس على ضخامة ، وقد  
زادت اثقاله المسامير الغارقة في النعل . اما لونه فلون الغبار ،  
وما نعم يوماً بالمسح . وعلى البدن معطف من جلد الاكبش .  
وتحت المعطف صدره سوداء ، فسروال اسود وافر الرتوق .  
وعلى الرأس لبادة استدار عليها الوسخ كالهالة . اما الوجه  
فمستطيل ، تفشو فيه السمرة . والعينان زرقاوان . والشاربان  
طريزان . وما خلعت الباصرتان من لمعات الذكاء . وارتسمت  
على الشفتين موجتان من سخر . على ان الموقف لا يجيز المزاح .  
فاكتفى بونس بتدخين لفافة ، وبجسو فنجان من القهوة . و اراد

الكلام ، فارتج عليه

وماذا يقول لصفية الغائرة في حدادها ، وقد انجلت عن محياها  
رعشة الانس ، كأنها تمثال الكآبة الراسخ القرار ، وجمدت في  
شفتيها الكلمات لتفسح الى الزفرات ، كأنها لا ترشح بسوى  
دخان حشاشتها اللهبى ، وطفحت عينها بالدمع ، كأن للينابيع  
من المقل فوار المعين ؟ ... ماذا يقول لها ، والمبحث وعر ، وجثة  
ايبها ما تبرح تفوص في بلبل الدم ؟ ... وغار في لجة التفكير  
الاليم . انه ليخشى الحيبة . وطال سكوته . ولكن ليس لهذا  
السكوت ان يطول سرمداً . فما يستقر بونس الاعرج بمعبد . وصفية  
ساءلت نفسها عما يهيب به الى ارتباد منزلها ، وليس من عادته  
ان يجالسها . فهل بدا اراءها ليحدثها عن يوسف مسعود ؟  
واندفع بونس بمجّ الدخان المالىء فيه ، فيحجب به سماء  
الحجرة . وبين الاقدام والاحجام ، المتصاولين في خاطره ،  
افاض بما في نفسه ، وما نبا عن الجسارة . قال : شاهدت يوسف  
مسعود ، يا صفية . فهو تائه اللب ، شديد الندم ، يروي فسته  
وينوح . فهل من رحمة ؟ ... انه ليحذف اليك على يديه  
ورجليه . ويتمرغ في تراب عنتك ، على ان تغفري له . أأغله  
بيريق من امل ؟

فتأت عينها ، كأنهما نصلتان نفرتا معاً من غمديهما للطعان .

ونبرت بصوت ناعم ، ذبّاح : أجنون انت ، يا بونس ؟ ...  
هل نأى عنك الرشد ؟ ... ما هذا التجديف على الخلاق ؟ ...  
أندعوني الى عتقّ ابي ؟ ... والله ، لولا حرمة نجم سرحان ،  
وفطرة اكرام الضيف ، لصرخت بك ان ارحل . فالمكان  
يتبرم بك . ولمنعتك حتى الابد من دوس هذه العتبة . كيف  
تريدني على العفو عن هادم منعتنا ، وكاسر رايتنا ، وماحي هنائنا ؟ ...  
هلا خرست عن حديث النكد والعدوان ؟

- ولكني ابصرته على خبل ، لفرط الحسرة على ما اجترح !  
- ان تكن ابصرته فلماذا لا تدل عليه رجال الامن ، أفلا  
ترام في ساحة الباروك يبحثون عنه ؟ ... انك لتخون فرض  
المرومة وانت تلمّ بمقر القاتل ولا ترشد اليه ، بل انت تسيء  
الى شرعة الصدق والاخلاص . فما كان نجم سرحان لك عدواً  
كي تصون قائله من العقاب . ألا ابن هو المجرم ؟ ... هلا  
تكلمت ؟ ... ان لم تطلعي على مكمنه شكوتك الى رجال  
الامن بنهمة كتمان الحق . قل ابن المقيت ، والا فاحذر انتقامي .  
قوات الدرك بالباب تترصد ، فان لم تتكلم دللتها عليك !

فلم يرهب التهديد وقال : لك ان تنادهم جميعاً للقبض  
عليّ ، فلن يظفروا مني بطائل . فاني اعرف مقر يوسف مسعود  
كما اعرف طريق بيتي ، غير اني لن ابوح بالسر . ولرجال

الدرك ان يجلدوني بسياطهم، وان يحطموا رأسي باعقاب بندقياتهم،  
فلن يقفوا مني على الحقايا . عاهدت الجارو في على الستر ، واني  
لساتر، حتى على انتثار دمي. ومن المحال ان افشي الخبر لسواك .  
ولكن بعدما توافقيني على المسير الى يوسف مسعود، ونصبح في  
قمة جبل الباروك !

فزعت : اذن انت شريك اللص . انت قاتل مثله .  
يا بارى . اي جنون قaddock اليّ وحملك على النفوة بالحنى ؟...  
أما تكفيني رزيثي بابي، حتى تقبل انت بهذه الغواشي، فيتضاعف  
بك الويل ؟

ونفضت وفي نيتها ان تنادي رجال الدرك لامساکه ،  
واكراهه على الافرار بما يعلن . بيد انها استطاعت ان تملك  
نفسها بقوة خارقة ، وقالت متوعدة : لا تدفعني الى ايذائك ،  
يا بونس . اني لانفر من الايذاء . فان تكن على ولاء لنا، فحدثني  
بجلاء عن مشوى اللص، ولن تدري قوة الامن بما قصت عليّ !  
فقال ، وما هانت فيه رباطة الجأش : سأرشدك الى يوسف  
مسعود اذا اطعتني في الشخصوص اليه ، وعاهدتني على تفجسه  
بالغفران . كنت ادعوه للمجيء اليك ، بيد اني اخشى عليه من  
فتكات الجند . فلن يستسلم اليهم كي يلقي عقاب السجن ، بل  
سيضطر الى مناواتهم . وفي المناوأة تتساقط الضحايا . وما

استطيب مرأى الدم. اذكري أنه هواك، وانك منه على متوقد  
الحنين !

فاخذت تبكي. وسكنت فيها الحدة. فما اصعب وقفها على  
حيرة من امرها، وهي المترجحة بين قلبها وفرض الانتقام لناجلها.  
لقد احبت يوسف مسعود ، ولكن انى تستبقي شغفها به بعد  
فتكه بابيها ؟ ... قالت والحقد فيها على طفوح ، والحب يسعى  
لتلين نغمتها ثم ينثني : وهل لي ان اقيم على مودة من قضى على  
والدي ، يا يونس ؟ ... اني لمن النذالة ، على جمام ، اذا عدت  
فرنوت الى المجرم بسوى عين المقت ، وكلية رغبة في محوه .  
واذا سرت بي اليه فكأنك تدفعني الى الانتقام منه بيدي . أما  
تخشى عليه ؟ ... أما تخشى عليّ وانت تحدثني بالصفح عن قاتل  
ابي ، وما يزال دم نجم سرحان طريئاً ، يخضب ساحة الباروك ،  
ويلطخ باندلافة ثيابنا، ويصبغ بينوعه ملامسنا؟... ألا ارحمني، اذا  
ابيت ان ترحم الشهيد الحمي !

فأبان يونس ، وقد تراءى له انه تمكن منها : لست اقرأ  
في عينيك الغل . فما تزالين على سلامة طوية ، وعلى نزوع الى  
يوسف مسعود . واذا ما تمثلت الواقعة ، تجلى لك ان اباك هو  
المعتدي. فما حملة على اللطمة هوي بها على وجه الجاروني؟ ...  
هل يجبل انه منه على فوهة بركان ؟ ... في الباروك فئة من

ذوي البأس نستهبين بالعشرات من أمثال يوسف مسعود ، على  
انها تتفادى من التحكك به في احتدام غيظه . وابوك خير من  
عرف في الشاب هذه الغلواء ، فما اهاب به الى لطمه ، وما  
جزاء اللطم ، في شرع يوسف ، غير القتل ؟ ... أما يبدو لك  
ان أباك بحث عن منيته بنفسه ؟

قالت تستنبط لابيها وجيه العذر : ابي ابن خمس وستين ،  
ويوسف مسعود في الخامسة والعشرين ، فهل كان يضير الشباب ،  
الصبر على المشيب ؟ ... بحسب الشيوخ انفسهم قادة وهداة ،  
وقد اختروا بتجارب الزمن . وتب لهم شيخوختهم المستغلية  
الدالة على رطاب العود ، فتفيض افواههم بالعظة الزاجرة . وما  
على الشباب وقد احتمل ؟ ... ويوسف على صلة أيّدة بنا .  
فما كان يمنعه من النظر الى ابي كأب له ؟ ... أما يدعني العقد  
له عليّ ، أما يجديني على كلف به ، ألا يمسي ، وقد تزوجني ، ولداً  
آخر لنجم سرحان ، فكيف يبطش الولد بوالده لاجل لطفة ،  
ومن حق الاب ان يسدها الى بنيه حتى قسراً واعتسافاً ؟ ...  
لا ، ما انصف الجاروني ، يا يونس . فدعني من التحدث عنه .  
وان تكن تطمع في افرار العدالة ، فابلق قوات الامن خبره ،  
وخفف عن نجم سرحان في مدفنه . انه ليلهث تحت عبء الغدرا!  
ولكن يونس الاعرج ما دلف اليها لبسعى بمن اوفده الى

التشفع عندها فيه . قال : رحم الله اباك ، لست اراه يجنح الى  
التثقيب عليك بان يرفع على عاتقك حملاً تنوئين به . فهل  
ولذلك لتقضي ايامك في القلق والاجهد ؟ ... لو استطلعته رايه ،  
في موقفك ، لدعاك الى الصبح والنسيان ، والرضى عن يوسف  
مسعود بعلاً مأمون العون ، يشر به غدك ، ويدل فيك على  
نبل الضير !

فتمجبت من نفسها كيف نصبر على هذه الدعوة الى الزواج .  
فهل لها ان تبيع ليونس الاعرج هذا التادي في النيل من  
كرامتها وكرامة ابيها ؟ ... وهتفت مغتاظة ، لا تطيق الاصغاء  
الى الفحش : اسكت ، يا يونس . انك لتشتت علينا وانت  
تطارحني الحديث الضلول . اذا شئت ان تبقى ، تحت سقف هذا  
البيت ، فلا تلسع اذني بالسباب والتجديف !

ونظقت بالكلمة الفصل . واضطر يونس الاعرج الى الصمت .  
فلم يبق لديه في الجراب ذخر ، وكل جهد في السعي للاستدراج  
ذهبت به المعاندة الصماء . وليس له ان يتأدى في الاقناع ، وفي  
التادي ايلام نفس ، وتشويه ذكرى . صفة سرحان مستمسكة  
بالنقمة والحقد ، صوتاً لتوات الدم الطليل

صفية نحبو الى العشرين . طويلة ، سمراء ، تلمع في وجهها  
القسم عينان سوداوان ، يتطاير منهما وفر من قوة ، واعتداد ،  
وصدق . وينجلي في وقتها استعلاء ، وفي مشيتها دلال . رأت  
فيها الباروك مثال الحشمة والحسن ، فما بخلت عليها بالاعجاب  
وليس لصفية أم ، بل خالة . وهذه الحالة تستقر بالمنزل  
كالخزانة المهمة . فلا شأن لها ، ولا رأي ، والكلمة كلمة  
صفية . ولقد درج في هذا الصعيد نجم سرحان ، ولا يحيد عما أقر  
والاب كتب ، قبيل ان تطير انقاسه ، وصيته . وفي هذه  
الوصية خص ابنته بثروته جميعاً ، وما ابقى لحالتها سوى حق  
الاقامة والغذاء والكساء . وما تنكرت صفية لمشيئة ابيها ،  
فاباحت للخالة العيش على سعة ، لا تبخل عليها بالرفق والاكرام  
وما ونيت الفتاة تفكر في مطلب يوسف مسعود منها .  
هل اعتراه الحبل فدفع اليها من يلتمس له ، وهو قاتل ابيها ،  
صفحها عنه في جنايته الفادحة ، واجابته الى هيامه بها ؟ ... ولكن  
ماذا تقول فيها القرية اذا فعلت ، بل ماذا يقول فيها ضميرها وهي  
تخرج عن محجة الوفاء ؟ ... لقد احى من قلبها يوسف مسعود ،  
الحبيب الاثير ، وما استقر بوعيا غير يوسف المجرم ، الوغد .  
وعليها ان تنتقم منه تلبية لنداء زكي دم وترها به



وساءت نفسها هل بقيت في قرارة جاشها خلجة من حنين  
الى القاتل ؟ ... ان قلبها ليؤيدها في دفقة الكره . فليس لها  
ان تعفو عن حرمها ولي نعمتها ، وكل ما فيها يستصرخ العدل ،  
ودره الظلم . يوسف مسعود بات لها عدواً . والافئدة المثلومة  
الكرامة ، مها هاجها الحنين ، لا تصفو لمن يطبعها بطابع الدم  
ونادت بالقضاء على الاتيم . وما نداء عنها قسمها وقد عاهدت  
على الفتك بغريمها . فما تزال شرعة دم بدم نافذة في هاتيك  
الانجاد والاغوار من لبنان . وهي شرعة الغاب الطاغية ،  
واحدى عطايا العصور الغابرة . على ان صفة نجح اليها وتروى  
فيها المنقذ من الضيم والعار . فلا يرد العين عن الروح المخلوعة  
قسراً سوى الخلاع روح المعتدي . عين بعين ، وسن بسن .  
ما تزال شرعة « حمورابي » عالية البنود

وصفة سنقتل بيدها يوسف مسعود . وليباركها نجم سرحان  
في ضربه ، وقد دفعت عنه عبء الشمانة والذل . لن يذهب  
نافه القدر ، واليد الجانية ستسقط في مبلع المنون

وهزت برأسها وهي تستعيد في نفسها اقوال يونس الاعرج .  
كيف ملك القحة على مخاطبتها في الحرام ؟ ... وسرها ان يمضي  
يوسف مسعود في حنينه اليها ، لا شوقاً منها الى مرآه ، وارتياباً  
الى هواه الدميم ، بل ليقينها انه يتعذب وقد فتك بابيها ، واقام

منها على حرمان . وفي عذابه بعض العزاء لها ، والمجرم يتلوى  
ندماً وحنقاً ، وقد خسر الهناء والاطمئنان

ولم يغب عنها ان يونس الاعرج سينقل اليه كل ما سمع  
منها ، فيزيده نكدآ وغمآ . ورقبت ان يبدو يوسف ، في  
احدى العشايا ، في منزلها ، مقبلاً اليها في التماس الغفران . ولن  
يلقى غير الموت وستذيقه حتفه . فما بايعت نفسها باطلاً على  
سحقه ، انتصاراً لذكرى نجم سرحان ، الراححة بالمرض والمهم  
ويونس الاعرج ، وقد نوقل في الفجر الى قمة الجبل ، تغفل  
الجند وهو يرامم بجرون في اثره ، ليعرفوا منه مقر يوسف مسعود .  
فحام ، بدهاء الراعي الوافي الحذر ، على الروابي والسفوح ، وضللمهم .  
فما ان يعتلي الهضبة ، حتى يهبط الوادي . وبلغ غابة الأرز ينفخ  
في مزمار القصب ، ويعني مواويل الاستعتاب ، وينحني على الحجارة  
يلتقطها ، ويرمي بها قطيعه

وأدهش رجال الامن بتعاريجه . فقال بعضهم لبعض : انه  
لواسع الحيلة . درى بكوننا نرصده ، فتلاعب بنا . لا بد ان  
يكون واسع الامام بامر يوسف مسعود !

وانتصف النهار وما زال يونس يحوم على الارب ، بين صاعد  
وهابط . واشتدت وطأة الشمس ، فتغدى رجال الدرك ،  
والتمسوا القبولة ، وفي ظنهم ان يونس الاعرج في الوادي ،

فلن يضيعوا عنه . وكانوا خمسة . ونشطوا للمقبل الهنيء في الجبل  
الحسن الوجه ، والرقيق الحشا . فما تفتحت عيونهم الا والعصر  
يجنح بالشمس الى المغيب . وبحثوا عن يونس الاعرج فلم يقفوا  
له على ظل . انساب في الوعر الى حيث لا تتناول اليه العيون  
واتهم بعضهم بعضاً بالغفلة . كلهم منها بريء . على حين تشملهم  
التبعة جميعاً . وخافوا وقعها ، فانطلقوا في المخارم يبحثون  
عن انسل منهم فضاعوا عنه ، وكأنه غمامة صيف ، ما انبتقت  
حتى انقشعت . ويونس الاعرج حبا الى يوسف مسعود في كهفه ،  
في عرض الجبل . وبلغ مدخل الكهف هاتفاً : ها انذا . لقد  
جئت !

والجارو في يرقبه على نار . فابتهج وقد لاح له . وانعم النظر  
في وجه الراعي الحصيف . أيجمل اليه النبا السار ؟ ... وهو مع  
ياسه من هذا النبا ، لم يزل منه على بقية من أمل . فقد يندى  
الصخر ببعض الماء . على ان طلعة يونس الاعرج لم تكتب لعلالة  
الرجاء النمو والانتعاش . فارتسنت في شفتي العاشق المخدول  
بسمة صفراء . واستوضح بجمجمة تحشى أن تنجلي : ألا تكون  
موفقاً ، يا يونس ؟

فتردد الراعي في الجواب . الا انه اطال الى يوسف مسعود  
النظر الحزين ، وقال : ألا تدري الى ابن اوفدتني ؟ ... والله ،

كل ما ملكت من دهاء ، وجراءة ، وزلاقة لسان ، ما كان  
لينجع في هذه الراسخة في العناد . فليست تحتل ان تسمع بك ،  
وانت قاتل ابيها ، وقد تلاشى في صدرها كل ما كانت تزدر  
لك من حنان !

فاستجلى بجنق المغبون ، المفؤود : اما استطعت ان تميل بها  
الى بعض الرأفة ؟

- ولا الى بعض التفاتة . وقد لمست فيها الدهش من نفسها ،  
وهي ترضى عن مكاشفتي اياها بمثل هذا الحديث الحاطم ، ودم  
ابيها ، المسفوك بيدك ، لم يجف ، وما زال على غليان !  
فاستقصى بالتباعد : اذن ما هو موقفها مني ؟

فأجاب يونس الاعرج بما لاح له ، لا يلطف من مرارة  
الحببية : موقف الحقد والكراهة حتى الابد !

فنخع بقولته يوسف مسعود . واحس المشاغب الشرس بأنه  
اضحى في حقارة الدرر . جنى على قلبه بجنائته على من يحب .  
ولعن ساعة الحقة . ما عرف نفسه الا متسرعاً . لقد لدغ كبده  
في بطشه بنجم سرحان . تباً لنجم ، ما حملة على اعتراضه في  
وثبته؟... هل غاب عنه اي شظايا من ويل هو يوسف مسعود؟..  
قال وهو يتأوه : ألا اقوى على مرآها ، يا يونس ؟  
٨

فاشفق عليه يونس الاعرج فيما يسمع زفيره ، وقال : لك

ان تراها متى شئت . فأني لاقودك اليها دون ان يدري بك الجند ،  
ودون ان تعلم انك تلج منزلها . اما ما يكون منها حين تراك ،  
فهو ما لست اقوى على تخمينه . ولكن هل لها ان ترحب بك  
وانت ناحر ايها ؟ ... ما يكون رأيك فيها وقد رضيت عنك ؟  
- وهل تناستني ، كأني الحلم ؟

- ما تناستك ، بل تذكرك ابدأ . الا انها تذكرك بمقت ،

وبرغبة في الانتقام منك !

فضرب كفاً بكفٍ وهتف : قتلتي ، يا يونس !

فشعر يونس الاعرج بأنه جاوز في القول الصافع مدى التؤدة .  
قال : والله ، ما اريد لك سوى فضااض النعمة . ولكني انقل  
اليك ما عالنتني به ، كي تبين نظرتها اليك . وسأبدو لاجلك في  
حضرتها كلما انتدبتني لمحادثتها في امرك . ولا بأس بأن يطاردني  
الجند ، وما أشتني الا ان اقيم منك على اكرام . فإن تلبية  
مثلك مقدورة عليّ !

فانتعش بعض الانتعاش ، وقد طاب له سماع القولة اللينة  
بعد الحديث الهادم . قال بخنوع السائل المكروب : أعود  
اليها ، اذا التمس منك ان تجود عليّ بهذا الصنيع ؟

واقاض بالكلام الذليل . وما عرفه يونس الاعرج في  
استرخاء . فهتف بب له القدرة على الاحتمال : ولكني أجاهد في

سبيلك امنع الاخطار . جرت قوة الدرك في اثري حتى غابته  
الارز ، كي تستجلي بي مكنك ، وهي الموقنة اني على اتصال  
بك . غير اني دوختها بما سلكت من تلافيف . فضاعت عني ،  
وما تزال تجدد في الاهتداء اليّ ، ولن تدرك المأمول !

قال وما ينفك على ضراعة : اذن عدّ الى صفة في امري ،  
وابلغها اني زاحف الى سجنني ، بل الى قبوري ، اذا لم تشفق عليّ ،  
وتعجل في تلبية ندائي . فانا اترجح بين الموت والحياة ، وهما معاً  
في سفتيها . فاذا ارادتني على البقاء ، فلتسرع لتضميد كلومي .  
والا فانا سائر الى حتفي ، فهل ترضى عن موتي ؟

فأعلن يونس الأعرج لا يتخلف عن بذل : سأقتحم كل صعب  
لابلاغها ما أنت فيه من ضنى !

فأبان يوسف مسعود : حدثها عن شقائي ، وعن ثورة الحب  
في قلبي . وصارحها بانني عبد مشيئتها . فاذا ساقها ان استسلم الى  
رجال الامن ، فانا بين أيديهم . لبتودوني الى ظلمات السجون .  
واذا دفعتني الى الرمس ، فما أشتهي إلاّ الشواء به ، كي أظفر  
بعطفها . وكل ما أطمع فيه ان تصفح عن زلتي !

وهاله أن يبدو بهذه المسكنة ، كالمستعطي . على ان تزوجه  
الى صفة قضى عليه بالاستئانة في استرحامها . قال يونس الأعرج :  
ليس لي ان انحدر قبل اسبوع الى الباروك . أما وأنت تستشفعني

الى ابنة نجم سرحان ، فسأعفو عاجلاً اليها . وموعدي بها بعد  
غد . وكنت أنطلق اليها الليلة ، غير ان الدرك بالمرصاد .  
فسيرتابون بي وهم يبصرونني في غدو ورواح ، بين القرية والقمة .  
أنحسبهم يناون عن غابة الأرز؟... ما أراهم الا " مستترين فيها !  
ولكن يوسف ضاق عن انتظار يومين . فما يقف بيونس  
عن القفز فوراً الى الباروك ، وليس لرجال الامن ان يشكوا  
فيه ، والمصلحة تقدر عليه التنقل دراكماً بين المتن والسفح ؟...  
غير ان يونس ، وهو الأصوب رأياً ، وليس له في الأمر نفع ،  
دعا الى التريث . فالضرورة تقدر الانتظار كي تستشير صفة  
نفسها . فالتأجيل أفضل من العجلة في خطب مودة القلوب النافرة .  
ولا بد للزمن ان يلوي فيها نأقء العنف . فتلمل يونس مسعود ،  
الا انه تظاهر بالافتناع ، وقال : صدقت . فلماذا اللجاجة ؟  
مع انه لو استطاع ان يطير كالشرر الى صفة ، فيستميلها  
الى الرأفة به ، لانقض في لمحة خاطفة على الباروك . ولكن  
امره ليس ملك يمينه . فعليه ان يحتمل دلال من ترجيه اليهم  
الحاجة . ثم قد يكون يونس الاعرج على رأي خمير . فلا ينطق  
بالباطل . واقعد الجارو في صخرة قريبة منه . ونظر الى الحلاء  
المنتشر حوله ، وزفر . ان المصائب لتقبل عفواً ، دون ان  
ترقبها الحواطر . وتبرم بالوحشة . فهو بشوق الى المجالس الحافلة

بالاخوان كي يموت عنه ، والى رضى صفة ، كي ينأ  
وشخص له انه يجتنق في عزله . فالسجن اشهى من هذه  
الصخور العوايس ، وكلها اخرس . فلو نطقت لذهبت ببعض  
الملل . واوجعه ان يسف حتى يرتجى مساعدة احد الرعاة . فإين  
اعتزازه بنفسه في ساحة الباروك ، وعلى النبع ، يوم لم يكن  
لامثال يونس الاعرج ان يقتربوا منه ، ويتجاسروا عليه  
حتى بتحية ؟

وايقن ان طيشه جميع به . ليس له ان يلجأ ابدأ الى الغضب  
والحشونة . فالهوس يكلف صاحبه المشقات الجسام ، ويجدش أنفته  
وقام الى جواده يلامس معرفته ، ويعانقه . هذا هو الصديق  
الامين ، الاوحد . واعتلاه ودفعه في مسالك القمة ، على غير  
هدى من امره . فاذا ما كبا ، ورمى به الى الصخور ، فانه  
لينقذه من حياة لم يبق فيها غير العناء .

ويونس الاعرج انصرف عن المكان . وما يبتغي البقاء في  
المقام الجافي . وقال لنفسه ، وهو ينأى في طلب العشب للقطيع :  
صاحب الحاجة ارعن . هذه هي حال يوسف مسعود . يجنح الى  
قضاء شؤونه في لحظة . وكنت أجيبه الى المطلب ، وما يضيرني  
ان اندرج الى الباروك . غير ان العودة السريعة الى صفة  
تريد في صلابتها . وعلينا ان نهبها بعض الوقت كي يسلس قيادها !



وما انكر على نفسه اخلاصه للجاروفي . على ان هذا الملتهب  
ندماً ، وخشياً ، وصبابة ، ينزع فوراً الى اطفاء ما يستعر فيه  
من نار ، كي يسلم من نهش الحروق . وجهل ، وهو المكتوي  
بالضرم ، ان الشفاء العاجل محال . فعليه ان يرصد الاوان  
الموائم ، للنجاة من اللدعة الاكول

وعاد اليه يونس الاعرج ، في دهمة الليل ، يعلله بالامل .  
ففي التروي نيل الارب . ومال به الى اكراه نفسه على الجلد .  
ليكن واسع الصدر ، وليحتمل كابوس الثواني الحرار . ولكن  
ابن يقضي الامد الفاصل بينه وبين جواب صفة ؟ ... أيقضه  
في النوم ، والارق يعبث به ؟ ... أيطويه على متن جواده ؟ ...  
والى ابن ينتهي به المسير ؟ ... ثم ان قوات الجند تطوقه من  
كل جانب ، وليس فيها من يجهل ان الجاروفي قاتل . بل ليس  
فيها من يجهل الجاروفي ، وقد كان بالامس القريب من هذه  
القوات ، يحمل البندقية ، ويجرس ابواب المخافر والشكنات ،  
ويطارد اللصوص

وحار في موقفه . ما اطول الزمن على المقيم بالانتظار . ودعا  
يونس الاعرج الى شراء الشعير للجواد . وارتقى في البكور رأس  
الجبيل بشرف منه على آكام لبنان وسهوله واوديته . فاحضرة  
في كل مكان ، كأن لبنان مرتع الانس والصبورة . فلا يتنفس

عن سوى اطمئنان، ولا يطمئن الا وقد جاش في خاطره القول  
المجئح ، فيكتب سطوراً من روعة خضلة ، تنطق بها الروانس  
والسفوح والاغوار. على ان الجارو في لم يطرب للمنظر الجميل ،  
ونفسه تنبو عن الطرب . فقفل الى الكهف . ونادى اليه  
الرعاة ، يحفزهم الى انشاد الاغاني الشائعة ، وارهدف لهم اذنيه .  
بيد ان الاغاني على حلاوتها ، ورخامة صوت منشديها ، لم تخرج  
به عن ألمه وبلباله الحائقين

ورنا الى يونس الاعرج يستحلفه بنظراته الكئيبة ،  
المستعطفة ، كي ينجده . وغازب يونس ألا يجيب في الوشيك . فقال  
بجدة ، الا انها مجلبة بالولاء : سائب بلا ابطاء اليها ، على ان  
التبعة عليك اذا دهمني الاخفاق !

فاجاب وقد انفجرت فيه اشوافه ، واستطالت زفراته : علي  
كل درك ، يا يونس . فاسرع وانجز ما بدأت !  
فجري الراعي الامين في طريق القرية . لتنزل به الكوارث  
على فيض ، فلن يبالي شدتها . فان يكن رجال الامن يرقبون  
عودته ، للامساك به ، فليجروه الى بطون الدهاليز ، وليقبضوا  
عليه . فلم تمت المروءة في الصدور . وعلى ذي الحمية ان يضحى  
بالعزيز ، كي يرد الكدر عنم بشوهم القلق والضم  
وتوسط غابة الارز، وهو بحسب قوات الامن ستفجأه ،

وتكثفه ، وتزجيه الى الساحة بامتهان القاهر الشامت . بيد ان رجال الامن لم يظهروا في غابة ارز الباروك ، تاج شوامخ الشوف ، والعنوان الابليج من عناوين لبنان العريق النجار ، الفياض بالعزة والمنعة . فان غابة الارز في الباروك لأوسع مدى من غابة ارز الشمال ، واوفى شجراً ، على ان الدعوة اليها ما اقيت انصاراً ، ففاقتها غابة الشمال سمعة ، وشأواً ، وقد أضحت مزاراً وشعاراً . وثوت غابة الباروك بوحشتها القاسية ، تكابد جفوة الاهمال . وتابع فيها يونس الاعرج خطوه ، وعيناه في كل جانب . بيد انه بلغ الضيعة ولم يعترضه معترض ، كأن العيون غاروا في الصلصال

وادهشه ان لا يبصر حماة النظام حتى في ساحة القرية . هل ايقنوا بكلامهم عن يوسف مسعود ؟ ... وزرب قطيعه في الصيرة ، وما عرّج على مبيته ، بل سار تواء الى صفة سرحان ، وما تزال كلمات يوسف مسعود في مسمعه ، وكلها ينوء بالاسترحام

واتسعت عيننا صفة لمرآه . ما به يعود ولم يكذب يرحل ؟ ... ونبرت به مغضبة : أما تزال رسول يوسف مسعود ، يا يونس ؟ فاجاب لا ينفي كون الجاروفي اطلقه اليها : لا اراك على غبن ، وانا ذلك الرسول !

فقطبت ونبرت : ولماذا العودة ، وقد عرفت جوابي ؟ ...

ليس للصلّ ان يأوي اليّ . هلا ابلغته اني اشتهي قتله بيدي ؟  
فابتسم ابتسامة مرّة، وعالنها بتؤدة المتمني، وغصة المكلوم:  
رويدك . يوسف مسعود اخطأ . وهو ينهد الى التوبة . فلا  
تسدّي عليه ابواب الرحمة . ومن لك سواه يعشقه فؤادك؟...  
فهل لك ان تنسخي من قلبك اياماً طبيبات ، قضيتها جنباً الى  
جنب ؟ ... واعود بك الى موقف ابيك قبل مقتله . نجم  
سرحان لعب بالنار ، وما كان له ان يخرق مناعة الشرف في  
الجاروفي . فلطمه في كبد الساحة . وهتجه عليه !

فتفاقم فيها الخنق وصاحت : تريد ماذا ، يا يونس ؟

— اريد ان تغفري له ، وأن تعديه بالبقاء على عهده ، حتى

اذا ما أزفت الساعة ، نعمتا بالزواج !

— أتريد مني هذا كله ، فاصفح اليد المخضبة بدم ابي ؟

— ليس لنا ان نذكر ساعة الشر . فلا عليك وانت ترتقين

الفتق . فهل تخلو الافئدة النبيلة من شمم السماح ؟

— وماذا يقول الناس ؟... وكيف أخقت صيحة ضيري؟

— الناس يروقهم تحطيم قلبك . فكوفي ادهى منهم وصونه

من الانتثار . وهل يخفى عليك امر الناس ، وما يفرحون في

سوى رزيئتك ؟... هذه حالتهم ازاء الجميع . وما تطبق نفس

نفساً اخرى . فكوفي أمضى من هؤلاء الغيارى الكاذبين ، وما

برومون غير الاذى تحت ستار النصح . والتفتي الى نعيمك !

- وهل يرضى ابي عني ؟

- ابوك اخرج يوسف مسعود ، فوقعت الواقعة . وعليه  
در كها . ومهما بلغ منه العتو ، فلن يرتضي ان يشوّه عليك رغدك !  
فصرخت به وحنقها يفور : أتدري ما عليّ فيك ، يا يونس ؟ ...  
ما يجدر بك غير الحنق . هذا اللسان النضاض بين شديقك  
عليّ باقتلاعه ، وانت تفيض ، ولا تحفل ، بهذه الحواصد . هل  
ماتت فيك الكرامة ، وخبا الجباء ؟

قال يرتضي لنفسه كل مهانة واذى : انتقمي مني ، وانظري  
اليّ كأنني اوديت بابيك ، واصفحي عن يوسف مسعود !  
فسددت اليه نظرة باترة ، وزعقت بحدة : أتشتهي ان اعفو  
عن المجرم ؟ ... أما يردعك الحجل عن اعلان هذا الفحش ؟  
فتنهذ وهتف : وددت لو شاهدته ، يا صفيّة . فتداعت عنه  
عنجبيته ، وبات في لين ناضج الشر . فما تعلق له نبرة ، كأن  
صوته انطقاً . ولا يجيد غير الزفير . فهو يطلق ابدأ اشجانته في  
شعلة انفاسه ، وما يقيم على سوى جمر . واخاطبه كي يسمع ،  
فيتبه عني . وانشد له الموالياً ، وانفخ في القصب ، وكأنني جبال  
صخرة من هاتيك الصخور الجائمة في الفجوات . فما يفكر في  
سواك . وما يصبو الى سوى مرآك ، كي يسمع من فمك

الفران. وهو يعالنيك بانه رهن مشيتك. فاذا امرته بالاستسلام  
الى الجند، وهب لهم نفسه. واذا فرضت عليه الانطواء في ضريح،  
فلا ينبو عن المفروض. لم يبق فيه خيال من يوسف مسعود،  
وقد بات على جمود ونحول. فانك لتجهلينه، وقد ابصرته،  
ويوالك ما عراه من تبديل. وما يجهل انه يقدر عليك ما لا  
تطبيقين، وهو يرتجي صفحك عنه. الا ان قلبه على متاجع الحنين  
اليك. فهلا صعدت قمة الباروك كي تجودي عليه بسعة حلمك؟  
فتبرمت بالمحال. هل ضاع يونس الاعرج عن نفسه، فافاض  
بالهذيان؟... قالت بدمدمة الموتور: انهض وانصرف، يا يونس.  
انهض وانصرف. انا اطردك من بيتي!

فلم يتحرك، بل قال: لا تسحقي قلبي، وفي رحابة العفو  
متسع حل كل عصي!

فامسكت بذراعه تجرّه الى الباب، صارخة به بنفرة  
وامتهان: اخرج، اخرج. لست ادري كيف اجيز لك،  
وتستجيز لنفسك، الجهر بهذا القول القبيح!

قال يشدد عليها في الرضى بمطلبه: ليس يغيب عن خاطري  
ان حبك ليوسف مسعود لا يبرح فيك على بعض الناء. الا انك  
تخشين مطاعن القرية عليك، فتأني انفتك ان تكوئي لقائل ابيك.  
اما انا فقد لقيت لك مخرجاً من ارتباكك. فما يمنع ان يتزوجك

الجاروفي ، وان ترحلا معاً عن لبنان . وفي اميركا مجال مديد  
للاحتجاب عن الانظار ؟

فظلت على صرختها الفياضة بالكره والغل : ادعوك الى  
الانصراف . أخرج . أخرج !

فارتدت اليها يقول بنصح الامين : ما لنا ولتخرصات الناس ،  
يا صفة . سيرى في طريق قلبك ، فتأمني الزل !  
فما زالت تصرخ به باحتدام : أخرج ، أخرج . لا حق لك  
بالبقاء لحظة في هذا الوكر !

فم يسمع ، بل قال يضرم فيها لمبة الحنو : ليس لك ان  
تتبعيه اباك . حسبنا ان نصاب باحدنا . فهل تتوقين الى خسارة  
اثنين معاً ؟

فظلت نصيح : انصرف . انت تهشم وجه الحق . فاليك عني !  
ولكنه رسخ في وقفته ، وقال بصلاية وعناد : لن ارحل الا  
وقد سمعت منك انك لا تتنكرين لطلبتي . والا فانا هنا حتى  
انقضاء الزمان !

فاحست بالحيرة تفتابها . وقالت وهي تسعى للخلاص من  
حرج الموقف : أترضى لي ، وانت ابن الباروك ، ان اكون  
لقاتل ابي ؟

— ارضى لك بان تجري في مسلك عاطفتك !

- حتى على عبثي بالمألوف ؟

فأعلن بغيظ : مصيبتنا في الحياة هذا المألوف . فنحن لا نعيش كما نستطيع ، ولا نجهر بما نحس به ، مخافة ان نخرق سمناً مرسوماً لنا . ولكن من رسم هذا السم ؟... أليس بشراً مثلنا ؟... ما يقره انسان ، لا يصعب على انسان آخر تعديله ، بل نقضه . تعالي معي الى يوسف مسعود ، ودعي عنك ترهات المتعنتين !

فأطرقت و كأنها اقتنعت بما يصارحها به . فالركون الى احكام الناس مضیعة لشهوة الضمير . قالت بعد فترة من صمت : وكيف السبيل الى يوسف دون أن يرانا أحد ؟

فأجاب وقد سره الفوز بالبغية : اتكلي عليّ وأنت الراجحة . فما علينا الا ان نتبطن اليه الليل ، فنسلم من كل عين شذراء ! فبكت وقالت : انك لتكرهني على الاساءة الى روح نجم سرحان ، يا يونس !

فهنف وفي نفسه اعتزاز ، وقد اتسع له الى تلبين الصلب : معاذ الله ان اتجرأ على هذا الاثم . فما ادفعك الى سوى رحبة الهناء . ليس من الانصاف ، ان يشقى روحان حبيبان ، كي يطرب الشامتون . متى تنشطين لصعود قمة الباروك ؟ فاستفهمت بصوت منلجلج ، خشيان : أيبكون يوسف بالانتظار ؟



فتنه وقال : ان روحه لتوقب هذه اللحظة . فاذا لم ينعم  
بها قضى شهيد غرامه ، وانت بوفاء !  
واودع لهجته كل ما يملك من قوة الاجتذاب . قالت صفة  
ورأسها في الارض : سألني ، يا يونس . صدقت . فليس من  
كرم الطبع ان نذهب باثنين معاً . نجم سرحان رجل شيخ ،  
ذاق من الايام حلوها ومرّها . اما يوسف مسعود فما يبرح في  
ارج الشباب . ومن حقه ان يعيش كي يسعد بعمره . ولأجل  
سعادته سأغالب كل عقبة . سأستخف باقاويل الناس ، وانا سيدة  
امري . فان لي قلباً احاذر ان ينشقى . وهذا القلب يدعوني الى  
التوفيه عنه . وسافعل . فليس لي ان اكره من احب ، وقد  
أخرجه في الذود عن أنفته ابي . ولكن قل لي ، يا يونس ، هل  
من سبيل لنا الى اميركا ، ويوسف متهم بجريمة قتل ، والسجن  
يرقبه ؟

فابان الراعي وفي فؤاده يشيع جزيل الطرب : لن نعدم  
الاهتداء الى الطريق الآمن . ففي بيروت جماعة ممن أوتوا  
المقدرة ، فلا يضيق بهم ان يتلاعبوا بالاسماء . وخليل يمسي  
لديهم اسعد ، واسعد اميناً ، وامين منصوراً . وسنلجأ الى  
هؤلاء في ستر امرنا ، ونحن الموفقون !

فغمغت بصوت حسير ، لا يزال التردد يشوبه : اذن امري

بين يديك . فلا تخيبي . انطلق الى يوسف . وابلغه اني ساكون  
في آخر هذا الاسبوع ... لديه !

فهاجه الفرح وصاح : اتفعلين ؟

فاجابت بهدوء : ألا في مَ تتعب نفسك ؟ ... ألا تجتهد  
في استمالي الى رأيك ؟ ... هذا الجهد اقرر . فاذهب الى الجار وفي .  
وابلغه ان حيي له لا يبرح على عنقه . الا اني لن اركب البحار ،  
الا وقد امسيت زوجته ، على شرعة الله !

فهنف والمسرة الطفحي تغمره : كل ما ترتجين سننجزه .  
شكراً لك . بددت عنا الظلمات . في صباح غد ساكون في  
رأس الجبل . وسينتفش قلب يوسف مسعود بنعمة الغفران والامان !  
وكاد ينحني على يدها ، فيقبلها اقراراً بجميلها . ففي مطاوي  
نفسها من النبل ما ادهشه ، وقد رضيت بان تكون لقاتل ابيها ،  
مستهيئة بكل ما يخرق الناس من اضاليل لا يذاه بعضهم بعضاً ،  
وخنق بهجة الارواح . كأن لا يطمع الناس في سوى شقاء الناس .  
وما يقلق هذه الافئدة ، المجدولة من لحم ودم ، الا ان تبصر في من  
يلوحون لها الجبور والاطمئنان

في اعلى قمة الباروك ، المشرفة على الدنيا ، كأنها منارة  
العالم، جلس يوسف مسعود يرقب عودة يونس الاعرج، ورحمة  
الله . فأبى ان يصدق ان صفة تمضي في كرها له ، وهي من  
صارحه بخففة الحب، ورسوخ الهيام . وسها في اطرافه . وتأوه .  
واشدد به العذاب . وعتب على نجم سرحان وقد رام التباهي  
بفتوته ، وهو ابن ستين . فهدم نفسه، وفصل بين قلبين يعيشان  
للهمى الحلال

وما انكر الجارو في انه يستعجل الزمن ، في دعوته صفة  
الى الصفع عنه . فليس لها ان تغفر ، حتى على ميلها الى الغفران ،  
والجرمة ما تزال حديثة العهد، والجمان ما يبرح رطب الكفن .  
على ان الغرام اللجوج ما كان لبسكن . ولقد ملّ يوسف  
مسعود وحشة البراري ، وجنح الى الرحيل عن لبنان . ولكنه  
لن يرحل وحده ، بل ستكون صفة رفيقته الى المهجر ، وهناك  
موئل الرفاه

وليس الجارو في بالرجل الفقير ، وفي جيبه ثلاثئة دينار ذهباً ،  
لا تفارقه . فيتمنطق بها وبنام ، وهي مشدودة على وسطه .  
وقد يكون بعض سر بطره ، في هذا الذهب ، المحشو في كيسه .  
وله في القرية منزل ، وحقل ، وكرم من الزيتون وافر الغلة .

على انه يكتفي بالدنانير الثلاثة لتدبير أمره . فما ان تعالنه  
صفية برضاها عنه ، حتى يجوب واياها الكون على سعة مده  
ونام وهو يجلس على الصخر عرضة لاذى الوحش والحشرة .  
بل لم يكن النوم بطبعه ، وما ان يغمض عينيه ، في تهوية عارضة ،  
حتى يستيقظ ويتأوه . فهو في تعس كفور . وموعده ويونس  
الاعرج بلجة الصباح . فلا تكاد الشمس ، تنشر لواءها الزاهي ،  
حتى يبدو يونس في القمة الشامخة . وما ارتاب يوسف مسعود  
بقدره الراعي على الاستدراج . فان هذا السارح مع قطيعه ،  
في البراري ، ليرتع في ذكاء فوار ، لا ييزه فيه حتى المتبحرون  
في العلم . فيحاور ، ويناقش ، بفطنة لا يجبوها وهج ، وبجبة لا  
تنضب ، ولا يرث لها خبط . حتى لقد قال فيه أبناء الباروك :  
كف راعينا جهاينة الفكر !

وتحدثوا عن أرباب الحظوظ . لو اتفق ليونس الأعرج ،  
من يدفعه الى معاهد العلم ، لكان في طليعة موكب الحصافة  
والسداد . وما ليوسف مسعود أن يهون بهذا الرسول الوافر  
الحجا . ولكن هل يتغلب على الحوائل ، وثمة الحرون العسير ؟  
ولم يجد يوسف غير اللقائف يداوي بها صبره الواهي . فيذيبها  
الواحدة تلو الاخرى ، ويسائل نفسه عن عظمة الحب وبعيد  
شأوه . فهل لمن ليج به الهوى ، ان يذل ، حتى ينسى قدره ، ونحوه

صلابته ، ويمسي دجاجة في قفص ؟

ولاح الفجر ، فنهض يوسف مسعود عن الصخرة ، ومشى  
طويلاً في ناحية الباروك . أفلا يبدو يونس بمواشيه ؟ ... وكاد  
يبلغ غابة الأرز ، فاتقى الاقتراب منها لئلا يصطاده الجند . وما  
أقبل وحده في جولته وبندقيته تقتعد كتفه . وسدد العين الى  
المنحدرات الصلد ، أما من أثر للرعاة ؟

وشاهدتم يقبلون بعضهم تلو بعض . فهتف بهم : أين يونس ؟  
قالوا : يونس في الضيعة ، وستطول به العودة الى المرعى !  
ولكن يونس بدا بغتة كأنه حاضر أبداً . وصاح بجي  
اخوانه يبشر خصيب : السلام على الجماعة !  
فصاحوا جميعاً : مرحباً ، مرحباً !

فاستدلّ يوسف مسعود ، من هذه الطلاقة في يونس ، على  
كون الأمل بسط جناحيه . فالتوفيق لم يخن الراعي اللسان .  
وابتسم له وهتف به : ماذا تحمل في جرابك ، أقمحاً أم شعيراً ؟  
فأذاع يتباهى بتفوقه : ما نحصد غير القمح ، والله !  
- هل لانت وأجابت ؟

- وهل لها ان تقسو ، وأنا طيبها ؟

فوثب عليه الجاروفي يعانقه صائحاً بمستطير الجذل : وحق  
السماء ، أنت وحدك راعيها !

والح في المعرفة . ماذا قالت صفيه ، وعلى م عوتت ؟ ...  
فقال يونس يتلذذ برأى يوسف مسعود في ابتهاج : ما قالت  
الا الحير ، وما عوتت على سواه !  
- أتأتي الي ونفرت معاً ؟

- ستأتي في آخر هذا الاسبوع ، وتنطلق وإياك الى بيروت .  
على انها ، لن تركب البحر الى المهجر ، إلا وقد تزوجتها ، على  
سنة الله !

فأعلن برهيف نبرة ، وقد تغمته مستطيل البشر : هذا كل ما  
أبتغي ، يا صديقي . دام لك البقاء ، كم خففت عني . أنت زينة كل  
من أجاد الكلام فينا . ما كنت أحسب اني سأقع على من يحل  
العقدة . لا ريب انك سيد الموهوبين ، وقد أفلحت . ما ذل  
الجاروني في سوى هيامه بهذه الفاتنة . أف للحب ، ما أمضاه ،  
وما أدهاه . لكانه المصيبة !

ونقد الراعي خمسة دنانير تتقد كواكب في حالك الجبهة .  
فتعالى يونس الأعرج عن مبيع المعروف بالمال ، قائلاً بحمية  
الانوف : ما رأيتني أسمى للكسب ، وأنا أجاهد في اكرام  
البطولة ، يا يوسف . إبق دنانيرك لنفسك ، فأنت بحاجة اليها ،  
وستعتلي البحار !

ورفض أن يجود عليها بنظرة . فجار يوسف مسعود في ما

يكافئه به . قال : ولكنك تحجلني من نفسي ، وأنت منقذي .  
وللمنقذ الحق بحسن الجزاء !

وتناول مسدسه من وسطه . وأهداه الى الراعي النبيل الخلق ،  
قائلاً : لا أحسبك تصرّ على الرفض . هذه هدية ، لا منحة .  
ولا بأس أن تحفظها تذكّاراً مني ، وقد جمعت بيننا المودة !  
فلم يستطع يونس الأعرج التنكب عن الرضى . فقال وهو  
يبسم للمسدس الغالي البدل ، الحديث الطراز ، الساطع كأنه  
شعلة من ضياء : رضيت به منك لقتل عدوك . فأنا حارسك ،  
ورفيقك ، وخادمك !

ومشى وإياه الى الكهف ، وهما يتساقطان الحديث . ومال  
يوسف مسعود الى معرفة كل ما أفاضت به صفة . قال يونس :  
عانيت في ترويضها كل صعب . فشتمتني مراراً ، وطردتني مراراً ،  
وأنا أتجاهل كل ما تقذفني به من إهانة . وطدت النية على  
خدمتك ، واحتملت . وجنحت بها الى العبث بالاعراف ، والى  
السخر بالأقوابيل . فالناس لا يشتهون هناء الناس ، بل ينهدون  
الى ايلامهم . ودعوته الى هجران الباروك ، والنفرة الى أميركا  
الحافلة بالخلق ، وقليل فيها من يعرف الآخر . فأطرفت .  
وتبينت من أطرافها ان الحب لم يمت فيها ، واني أقوى منها في  
المصاولة . وكان ما رجوت . فسلخت منها مكابرتها ، وأجابتنى

الى ملتيمي . ستقبل في آخر الأسبوع !

— أتقبل الى هذه القمة ؟

— ستترناد هذه الأنحاء . وسأكون رفيقها الى كهفك . بل

لا بأس عليك وأنت ترقبنا في غابة الأرز !

فعاد يوسف مسعود الى معانقة الراعي الجمّ الولاء ، قائلاً

بطافح الشكران : أعدت إليّ الحياة ، يا صديقي !

وتبدّلت حالته وقد نأت عنه أشجانه . فهو سعيد بصفح

من يهاها ، ورضاها به زوجاً ، مع كل ما دهمها في مودته من

رضوض . ونادى اليه الرعاة ليقاسموه فرحته بالغناء ، والرقص ،

واطلاق الرصاص . وهو نفسه أخذ يرقص ويغني . ودعا بالحجرة .

ليسكر جميع هؤلاء الرفاق ، واليوم عيد . وضاع عن نفسه

لفرط البهجة . انه لمجنون . والفرح يذهب بالنهية كالترح .

واشتاق آخر الاسبوع . وما انفك يجري في أثر يونس الأعرج

مستطلعاً أمر صفيّة . ستأتي ، وسيهبط واياها بيروت ، ويتزوجان

فيها . ومن بيروت تحملها الباخرة الى أميركا ، ويستقران

بالبرازيل . وليوسف هناك ابن عمته سليم ياغي ، فيقوده في

الطريق السوري . وهتف بيونس : طاب العيش ، يا ابن الأعرج .

ولكن ظلمك من سمّك الأعرج ، وأنت المستقيم !

وغلب عليه الضحك . فهو في فقهة اني انجه . ووزع على



الرعاة لفائف التبغ . ونقدم المال كي يحملوا من القرى اشهى  
المأكول . قال : اكتروا من شراء الدجاج والعصفور !  
ولم يكن باضطرار الى الاكباش ، وله منها في القطعان ما  
يرجع الحاجة . فيؤدي بدلها ويذبحها ويطعم الرعيان . ولما تدهده  
يونس الاعرج الى الباروك ، كي يأتي منها ، تحت ستار الليل ،  
بصفية سرحان ، وقد اشرف الاسبوع على الانتهاء ، رافقه يوسف  
مسعود الى غابة الارز ، الوارفة الجلال ، وعالنه بقوله : انا هنا  
ارصدك ، فابتعدا عن انظار الجند ، ولا تبطنًا في موافاتي .  
علينا ان نلتقي قبل طلوع الصباح !

ويونس وعد خيراً . ودرج الى الباروك ، على مستفيض  
اليقين ، ان صفية سرحان ستبرّ في الذمة . ودخل مأواها  
فابصرها في حلة قشبية ، كأنها على موعد . قال وهو يجيئها  
ببسة مشرقة : أتكونين على أهبة ؟

فاجابت بقولة جازمة تدحض كل لأي : ليس عليّ الا ان ألحق  
بك . فخذني اليه !

فراقه فيها شمم الوفاء . ما عاهدت على ختل . قال : علينا  
ان نصبر ريثما يجنّ الليل ، فندرج في ظله الى المرتقى الوعر !  
وتعشى ورجع اليها في الفحمة يقول : أزف الموعد . لنرحل !  
وتغلغلا في كبد الظلمة . وشقًا الفجوات ويونس يقول :

هو في غابة الارز يرقب وصولنا اليه . ولقد احيت موافقتك  
على شهوته مبيت الامل . فدفع عنه الحرقة ، وأحس بأنه يعيش !  
فلم تجب . وبعد مسير طويل ، ادرك فيه التعب صفة ،  
لاحت لهما غابة الارز ، في الديجور ، شجراً رهيباً ، حافل  
الصدر بالمكارة . الا انها ، وقد تعودا في الجبل حياه الشدة ،  
لم يرهبا المنظر الباعث في العروق رعشة الفزع . وتبطنا بواسق  
الاشجار وهما ينتظران ان يبدو لهما يوسف مسعود . ولقد بدا وهو  
يرتجف . واراد الكلام فانعقد لسانه . وما تجاسر على مصافحة  
صفة . بل دنا منها ، على ضوء قداحة اشعل فتيلها يونس  
الاعرج ، ينحني بين يديها ، بل يجثو . فهو يسألها العفو عنه .  
قالت وقد اختلجت في فؤادها نزع الحنين : ساحك الله ،  
يا يوسف . هل عز عليك أن تتاسك ؟ ... أنت تعرفه يستوي  
مثلك على العنف ، أفما كان عليك أن تحتمل ، وتكفينا ،  
وتكفي نفسك ، مؤونة التنكيد ؟

وزفرت كأن في صدرها مرجلاً يفور . وأوتي يوسف القدرة  
على النطق ، فقال : عفوك زاد في تجسيم احتقاري لنفسي . أنا  
خاطيء رجيم . الا ان السماح طبع فيك . فشكراً لك وقد  
ارتقيت دوني في مدارج السمو !  
واضطرب جأشه . فهو على خشية من هذه الواهبة له الغفران .

قالت : حدثني يوس بما رأيت فيه الصفح ضرورة . أبي نفسه  
يفكّ عنك، من العالم الآخر، ما أوثقت به ساعديك من قيود .  
أنت في حلّ من خطيئتك ، على جسامتها ، فارتع في ببحوحة  
السكون !

فقبل يدها كالمجرم، المحكوم عليه بالموت ، حبال من وهب  
له الحياة . وقال : ما عرفت ساعة اطمئنان منذ اجترأحي  
الوزر . ولولا رحمتك لكنت الآن في طريقي الى الهلكة تجرفني .  
فاغور في جنبها ضائع الامل ، معذب البال !

وقبل في حضرتها الارض . قالت : لن نبقي في لبنان .  
ولا احسبك تجهل ما اقدمت عليه لاجلك من خرق للمألوف .  
فالظعن عليّ سبباً كل فم ، وليس لي ان ارضى عمّن بطش  
بأبي . الا ان حبي لك اقوى مني . فانت من ارباب الحظوظ !

فشعر بانه ذرارة في ذيل ثوبها . وازدرى نفسه . فما لقي  
من حلمها كسفه . وهل من نفوس تنفض بمثل هذا السمو ،  
وما يتقد في سوى عروق الاولياء الاطهار ؟ ... قال يهد لها  
الى النجاة من عضات الالسن : سنرحل على الفور الى بيروت .  
ويتزوج فيها . ومنها نجتاز البحار الى اميركا . فنحتجب عن  
كل عين !

وساعدها على ركوب جواده الى الكهف القائم في اعلى القمة .

ومشى بقربها كالحادم المنبوذ . ولم يتجرأ على الكلام حتى بلوغ  
الكهف . فكان يسير مطرفاً ، ناعماً بفرحته ، مستحيياً من زلته .  
قالت صفيّة : لناخذ قبيل الرحيل بعض الراحة لانفسنا !

ونهدت الى النوم . فهي في عياء ناهك . ويوسف مسعود  
اغفى اغفاه الاطمئنان . لقي الكنز المفقود . على ان صفيّة  
تحفزت للاستواء وهي تسمع رفيقها في شخير . والتفتت اليه  
وتذكرت يمينها . ليس بجانبها حبيبها ، بل قاتل ابيها . وجاشت  
في ضميرها شريعة الغاب ، المسبطرة في هاتيك القمم على الارواح .  
رأس برأس وعنق بعنق . ولاح لها بندقيّة يوسف مسعود  
بقربه . واستجلت موقفها . ما جاءت لتعفو ، بل لتنتقم .  
احتالت على يوسف بالعفو ، والرضى به زوجاً ، كي تأخذه  
بجزيته . ابوها لن يرضى عنها وهي تحنث في يمينها الوثقى

وتجاذبتها الحواطر المتضاربة . أتصفح ، أم تثار ؟ ...  
أتنسى وتنكث ، أم تذكر وتفي ؟ ... وتمثلت اباها متجهم  
الاسارير ، معقود الناصية ، يلعنها . تراءى لها مزججراً ، يدعو عليها  
بالويل ، ويعيرها الغدر ، صارخاً بها : هل حالفته على دمي ،  
يا عاثة ؟

فارتعدت . انها لغادرة بابيها ، وبالدم المختلج في شرايينها ، ان  
لم تبرّ في قسمها . وشعرت بانها مجبرة على الامتثال لصوت الضمير ،

ولنداء الدم. عليها ان تنتقم لابيها المنكود، الغضبان. ومخافة  
ان يثنيها حبها عن انجاز شهوة الوفاء للابوة المجهودة، مالت على  
يوسف مسعود الغافي على طمانينة. وتناولت البندقية المضطجعة،  
البيظى، بقربه. وسددتها فوراً الى صدر القاتل. لا تلتفت الى  
معارضة قلبها، ولا تصغي الى زجر هواها. وضغطت القادح.  
فانفجرت رصاصة. وانتفض جسد. وطارت روح، دون ان  
تعلو لها نامة. قضى يوسف مسعود، فلتنعش عظام نجم سرحان  
في مشاها!

وعادت صفية الى الباروك على متن جواد حبيبها المقيت،  
وبيسينها بندقينه، وهي تهزج اهزوجة النصر، كأن اباهـا بعث حياً،  
وتذيع في بني قومها: انتقم لنجم سرحان المظلوم الطعين.  
فاوهمت يوسف مسعود اني اعود اليه، وتفقلتة في محباة،  
وقتلته برصاصه، اخذاً بثأر أبي، واحقاقاً لشرعة دم بدم. وهي  
شرعتنا. انطلقوا الى القمة فتقعوا على الجنان الغائص في النجيع.  
استراح نجم سرحان، واسترحت. فليمن آمناً في مرقد البليل!  
واطلقت اغاريد البهجة. شرعة الغاب ادركت تمامها.  
وامسكت صفية قلبها المرضوض عن الصراخ. ابوها يعلو حبها.  
وانى تنأ ودم نجم سرحان ينتفض بالتظلم والنواح?... وطفرت  
الى القبر على فيتاح الطرب، صارخة بملء فمها: ابي، ابي،

انتقمت لك من الجاني الاثيم . فاطرب . واخلع عنك القطوب .  
ابنتك نارت للدم الطليل !

فتماوجت في اذنيها اصداء بعيدة الرنين، الا انها عذبة الوقع .  
خيل اليها انها صيحات الرضى، تنطلق من حنجرة ابيها . نجم سرحان  
الناقم ، الغضوب ، دبت الى رفاقه نشوة الارتياح . فهو لا  
يتنكر لاحكام شريعة الغاب السمجة، السكوب، وقد نشأ في ظلها،  
ودان بدينها ، وانتشى بعصيرها . والمعادلة سنة الانصاف . فما  
كان « حمورابي »، وهو يقرها في شعبه، وتأخذها عنه الأجيال  
والأحقاب ، الا هادياً بصيراً . إن صفة سرحان لمن الشهود  
العدول !

عبد المبراد

احمد المسكوبي، يشتغل في بيروت ، معلم خضرة في سوق  
النورية ، القائمة بعفشها ، ونفشها ، على كتف سوق سرسق  
الطويلة، الضيقة . والسوقان تكتظان ابدأ بالخلق . والسعيد من  
استطاع اجتيازهما سليماً من الصدمات . فلا بد لمن يسير فيهما  
ان يلقي ضربة سلّ، أو لكمة كيس ، أو صدمة كتف . فيدفعه  
الزحام يمنة ويسرة . وتتقاذفه أمواج الناس ، في ذلك المدى  
المكدود ، الى حيث لا يريد الوصول . والا فعليه الاستظهار  
بقوة ساعده . فيجاهد في شق طريقه بمضاهة . قاذفاً بصدرة ، وكتفيه ،  
من حوله من الحشد المرصوص

وانه لبشقى في سعيه ، ويتأفف . ويزداد الشقاء عندما تمرّ في  
السوقين عجلة ذات دوالب . فتتطاير امامها الجماهير ، ليقع بعضها  
على بعض ، في صخب وتدمر . ومع كل ما في اجتياز السوقين  
من تلاطم ، ومشقة ، فالقوم هناك امواج تلو امواج ، كأنهم  
اكوام من حصى في جوف غدير

وماذا في السوقين ؟ ... سوق سرسق اشبه بجراب الكردي ،  
وقد حفلت بكل ما هبّ ودبّ من البضاعة الرخيصة ، او المعلنة



كونها رخيصة، وقد اضحيت في كاوي الغلاء. ولكنها السبعة، وهي  
تخدع . فكل ما تطلب المرأة من زينة ، ونسيج ، ولباس ،  
تقع عليه في تلك الحوانيت الصغيرة كالأعشاش ، المتلاصقة  
كالشعر في الرأس الأفرع، المبسوطة الابواب لعدة حوانيت، كأنها  
اسواق في سوق . وكل ما يبتغي الرجل من كسوة لا يضل  
عنه في الممر الضيق الرحيب، وقد تفرعت منه سرايب وأوجار.  
فالسوق عامرة. والرخص، بل الظن ان هناك رخصاً، جلاب.  
وتتفاهم الزحمة بالباعة الجوالين. فانهم ليسألون العطفات بصناديقهم  
المفتوحة، الحاوية من الاصناف ما يكاد يخلو منه مستودع. ففيها،  
على صغر حجمها، ما لا يهندي اليه المرء في سوق عريضة، حافلة  
بالجليل وبالضئيل. عدا الدالين، وكل ما تنفت الدور، والأكواح،  
من رث عتيق ، هناك مثواه

وسوق سرسق تجد في سوق النورية اختاً لها . فالزبن هم هم .  
طلاب الرخيص . وسوق النورية مهد الحضرة في بيروت . لها  
ساحة كعش العقرب، وأزقة كارجل الاخطبوط . والباعة منتشرون  
فيها على الجانبين ، وفي وسطها ، وزواياها ، حتى ليصعب فيها  
الخطو، كأنها الفجوات الوعرة . وصيحاتهم تصم الآذان . فكل يبغي  
على لبلاه . هنا يائع فجل ، وهناك يائع ملفوف ، والى جانبيها يائع  
بصل وباذنجان . والأقدام تضرب الأقدام . والنساء يختلطن بالرجال .

والننن يجلد بجدته الانوف. والويل لمن يرتدي الثوب الجديد، والوحد  
بجيرة في بجيرة، بل خضم لا يسلم فيه من الفرق اربع الغواصين  
واحمد المسكوبي يتولى المبيع بالجملة. فالقواكه والبقول  
ترد عليه من البساتين، وهو يقوم بتصريفها. فيشتريها منه باعة  
المفرق. واحمد شديد الرضى عن دهره. فيربح في نهاره ما  
يكفيه الانفاق براحة. وله خضرة بيته بلا بدل. وهي انفس ما في  
السوق. فيحمل الى امه وشقيقاته اندى الحيار، وافخر المشمش،  
واصفر الكوسى، واشهى البطيخ. فالناضر والبانع له قبل الجميع  
واستطاع ان يجمع من عمله بعض المال، وان يصلح شؤونه.  
كان يرتدي السراويل، فأضحى يرفل بالثوب الفرنجي. وكان يسير  
بظربوش، فبات حاسراً، مكشوف الرأس، كما يفرض عليه  
الزيت الأخير. وعمد الى رباش بيته فاصلحه، وما توانى في شراء  
الطريف. واغتنبت أمه فاطمة المسكوبي بنجاح وحيدها.  
وفكرت في ان تعقد له على ابنة حلال. أليس من حق هذا  
المكافح أن يئنا بشبابه، وبتعب يمينه؟

واحمد في الثامنة والعشرين. ورت عن أبيه أربع نساء.  
أم أحمد، أمه، وثلاث شقيقات دونه سنأ. غير انه توفر  
على إعالتهم بهمة وإخلاص. فما تهاون في أن يخلع عليهن عطف  
الأب، وولاء الشقيق. وجهلن، وهو سندهن، ان الزمن

جار عليهن بسلخ المعبل الأكبر منهن ، أبي أحمد المسكوبي .  
فكل ما كان يجود به الأب على امرأته ، وبناته ، قام الابن  
بادائه بولاء العادل الأمين

وبحثت الأم والشقيقات عن فتاة تليق بركن البيت . فمن  
هي هذه المشرقة الحظ ، الجديرة بأحمد ؟ ... وتعبت الأم في  
اختيار أجمل فتاة لوحيدها . وعرضت بنات الحي ، وبنات  
الأنساب . فلماذا لا ترف الى أحمد ابنة خاله نفيسة ؟ ... وحدثت  
بناتها عن ابنة أخيها . فلم تلمس فيهن ميلاً إليها . وفي جمالها ،  
في عرفهن ، عيوب . أليست كبيرة الأنف ، ضخمة الساقين ؟ ...  
ثم هي ابنة ست وعشرين ، تكاد تكون في سن أحمد . ولن  
يرضين لأخيهن ابنة ست وعشرين ، وقد تحرمه الأولاد . وأم  
أحمد تضطرب عندما يعرض لها في بال ان أحمد سيقم من  
الأولاد في حرمان . فما أنفقت على تربيته ثمانياً وعشرين حجة  
كي يرضن عليه الزمن بالأبناء ، بهجة الدنيا ، وزينة البيت

ولكن ، إذا شكت نفيسة العقم - ومن يدري انها تشكوه  
وما تزال بكرأ ؟ - فهل تعاني هذه العلة صبيحة ، ابنة اخت  
فاطمة ، الأم ؟ ... قالت أم أحمد تخاطب بناتها : وماذا تعين  
على صبيحة ، ابنة خالتكن ، أيبدو لكن منها انها دون أخيككن ؟ ...  
وضع لي منه أنه يميل إليها . فيصبو الى محادثتها ، ويشتاق مرآها ،

فما يمنع زواجه بها ؟

غير ان الشقيقات يتنكرون للنسيبات . ويطمعن لأخيهن في فتاة غريبة عنه . فالغريبة، في معتقدن، لا تسمخ عليهن، شأن ذوات القربى . وما ترددن في أن يرمين صبيحة بالمتالب : هذه متعجرفة . تحسب نفسها في مقام الأشراف . فلا نرضى عن زفافها الى أحمد . وأبوها تاجر في سوق الطويلة . فما خلقت لتكون امرأة معلم خضرة . نحن نسمعها ونعي ما تقول . فالأرض تضيق بالبطر والدعوى !

فصاحت الأم : ولكن صبيحة ابنة أخي . ولست أراها تنفر من ابن خالتها . أما رأيتن كيف تتلقاه بالبشر ، وتفصح له بجانبها ، ونحاده ضاحكة راضية ؟

فما ظهر منهن انهن يؤيدن هذا الزواج . صبيحة ترجحن علماء ، ووسامة ، وغنى . وهن ينفرن بمن تتفوق عليهن في الحسن والمقام . قالت الأم : ومن نختار لأحمد اذاً ؟... هذا فتى من حقه أن يهنا بنضرة أيامه . فليس له أن ينتظر كي يمسي في الأربعين . ساعدني على اصطفاء من هي جديرة به . فمن تصلح له من ذوات الملاحه ، والصيت الحميد ؟

فأخذن في تقليب الأسماء . جمعنها مئة مرة ، ونثرنها في مهب كل ربح . فما حاز اسم واحدة إعجابهن . وشعرن بصعوبة

الاختيار . هذه طويلة . وتلك قصيرة . هذه كبيرة . وتلك صغيرة . فما خلت فتاة من شين ، كأن الكمال وقف عليهن . بل كأنهن ينتخبن هذه الزوجة لأنفسهن ، ويأبين إلا أن تكون فريدة حسن وطبع . فما درجت في بيروت من تليق بان تكون لأحمد المسكوبي امرأة . هذا في زعم شقيقاته . فالعنت المسكوبين ، أقصاهن عن الاهتداء الى من تستحق ان تدخل بيت أخيهن ، زين الفتيان ، ووحيد العصور !

ولكن الصغيرة عائشة ، وهي على فطانة بالغة ، تلفظت باسم لم يجد ممانعة في ذلك الجو العنيد . وبذلت الأدمغة مجهودها في الفلّ من حده ، وتلطّيخه بالعيب ، فما وفقت للمشتهى . ومن هي هذه البريئة من المقابح ، الرفيعة عن المغامر ، الظافرة بها عائشة ؟ ... هي شادية المخزومي ، ابنة رشاد المخزومي ، تاجر الحديد في حي الصيفي . عادة في العشرين ، في عمر عائشة . تعارفنا في المدرسة ، وكاننا تجلسان جنباً الى جنب ، وتلعبان معاً ، وتضحكان من المعلمة ، ونخدعناها في تلاوة الأمثلة ، وكتابة الفرض . ولكن أترضى شادية بمعلم خضرة ؟

هذه هي العقبة . فالفتاة ابنة قوم كرام . نقيه الثوب ، وافية الرونق ، راقية التفكير . على انها قد تعرض عن فتى ليس من مستواها . قالت عائشة : وما يمنع أحمد أن يكون

من التجار ، فيصرف عن حرفته ، ويتولى التجارة ، فيسقط على  
أكرم غانية !

وقرّ الرأي على مخاطبة أحمد في الاشتغال بالتجارة ، المتعالية  
عن الحُضار . فيظهر في المجتمع بمظهر خطير . الا ان أحمد كان  
بمعزل عن هذه المباحث جمعاء . فما درى بما تتخاطب أمه وشقيقانه ،  
وأبي حديث يدور عليه . وذات ليلة ، وقد جلس الجميع للعشاء  
مبذاهم ، وتحلقوا على مائدة سخية باللحوم ، نثت الأم كلمة  
تفتحت لها الأسماع باهتمام ، ورقبت عنها جواباً . قالت أم أحمد  
تسوق الى ابنها الكلام : ألا تشعر ، يا ابني ، بانك أصبحت في  
مقام يفرض عليك التقدم في عملك ؟

فأدهشته المفاجأة واستقصى : وماذا تعنين بالتقدم ، يا امي ؟  
فأعلنت فاطمة المسكوبي تجلو الحقي : أنت مدعو الى غد  
نضير ، يا أحمد . وهذا الغد أرجو ألا يضيع في حرفة بيع  
الحُضرة ، يا ولدي . فإن قرارك في سوق النورية بات دون مقامك .  
ولقد رجحت منها ، والحمد لله ، الماء الجزيل . وبقي عليك ان  
تستغني عنها لتقوم بتجارة أرفع . فنحن نميل الى تزويجك  
احدى ذوات الرواء والمكانة ، يا روح امك . ولا يسهل الأمر  
علينا الا وأنت من عيون التجار . أفلا تجدني على ضواب في  
ما أبدي ؟

ولاح الجدّ في قولها . وسطعت في عينها الرغبة العزوم .  
فضحك أحمد بملء فيه ، وقال : وأي عمل ترين أن أتولى ، وأنا  
أميل عن الحضرة ، يا أمي ؟

– عندي أن تكون تاجر خشب على المرفأ ، أو تاجر بضاعة  
في سوق الطويلة ، أو ...

فصاحت شقيقاته بأجمعهن : ليكن تاجر بضاعة في سوق  
الطويلة !

فابتسم وهن يطلبن أن يبصرنه حيث يشفين نهمتهن . قالت  
الام : لا بأس أن تكون تاجر بضاعة في تلك السوق ، والغد  
يفتح لك ذراعيه !

فقال مازحاً : ولكن لماذا لا أكون تاجر خشب في المرفأ ؟  
ونظر الى شقيقاته في مداعبة خبيثة . فصحن نافرته : لا ، لا ،  
تاجر البضاعة أفضل . فتقبل اليك النساء بالعشرات والمئات !  
– وإذا كنت أجمل أذواقهن ؟

– هن يرشدنك اليها !

وعلت القهقهة من كل جانب . فأضحى المنزل نادي مسرة .  
واستلذ أحمد السكون الى هذه الحياة الفرحة ، الحالية من اللؤم  
والحسد والرثاء . وود ان يعلم ما يدعو أمه وشقيقاته الى اخراجه  
عن بيئته . أفلا ترضى به من يختونها له الا وهو في سوق الطويلة

يتاجر بالنسيج ، وبالعطر ، وبأحمر الشفاه ؟... واستوضح :  
ولكنني أربح وافر المكاسب في سوق النورية . ألا تجدني لي  
زوجة تميل إليّ وأنا في مكاني ؟

فأجابت الأم بغبطة : في بيتنا ، يا ابني ، ان نختار لك عروسة  
ترضيك . ولن نجد فتاة خليقة بك وأنت معلم خضرة . فرأينا ان  
نحكك على الانصراف عن حرفة لا تسو بك الى حيث نخالق  
أكابر القوم . ولسنا نبتغي سوى تعظيم شأنك ، ونحضب  
أيامك بالجاه اليافع ، الغرير !

فلمس في مقالها الهدى . عليه أن يبحث عن مستقبله في ناحية  
أسمى . طال ثواؤه بين صناديق الليسون ، وأكوام القناء ،  
وأقراط الموز . فالانسلاخ من هذه الدنيا المحدودة الافق  
أولى . ونظر في ما تملك يده . فاذا يمينه تقبض على مبلغ من  
المال يكفيه في تجارة مرموقة . قال مازحاً : وأية فتاة تختار  
لأحمد المسكوبي ، تاجر الحرير في سوق الطويلة ؟  
فصحن بنبرة طروب : شادية المخزومي !

فاتسعت عيناه اغتباطاً . أيرقى الى هذه القمة ؟... قالت عائشة  
أخته الصغرى : هذه صديقتي ، يا أحمد . وأنت تعرفها . فقد  
ترددت منذ زمن الينا . وانها لترفل بحسن عز فيه النظير ،  
وبأدب مستوفي الحد . وأبوها من تجار الحديد في حي الصيفي .



فهو ذو مال ومكانة . فاذا تم لك أن تتزوجها ، وثبت الى  
غد سعيد !

فاستولى عليه التفكير . ان ما تعرض عليه امه وشقيقاته ليشوقه .  
أجل ، ما عليه اذا هجر مبيع الحضرة ، وكان من تجار النسيج؟ ...  
فالمجال أرحب . والمكان أرفع . وهناك شادية المخزومي ترقبه .  
وانه ليذكر كيف رآها ، وبما خاطبها ، وأي أثر طبعت في  
نفسه . فلا يزال يتمثلها كأنها تقف الساعة تجاهه . وضحك من  
طماحه لما علل بها قلبه . فأين هو منها؟ . . . أما الآن ، فقد  
يتحقق الأمل ، على وعورته . فاذا أنشأ له محلاً في سوق الطويلة ،  
وراجت أعماله ، فلن يبخل عليه السيد رشاد المخزومي بابنته  
المحتشمة ، الروعاء

وبسنت الامنية لاحمد وفيها طماحه . ونام ليلته على هدهدة  
المعالي . سيكون ذا شأن في بني قومه . وما طلع عليه الصباح ،  
حتى تباطأ في الغدوة الى عمله . لن يكون معلم خضرة . فقد  
كره الميزان ومحادثة الفلاحين والحمالين . وبات يتوق الى الذراع ،  
ومخاطبة الأوانس . وبدا فيه الملل ، وقد ارتاد سوق النورية ،  
بوفق بين البائع والمشتري . وردد على مسمع اخوانه انه ضاق  
بجياة الحضرة ، وأخذ يحس بأنه فيها على ضجر ، ناهداً الى ما  
هو أسى . فضحكوا منه . أيرجو أن يكون من تجار الذهب؟ ...

فالمهم أن يكسب المرء قوته ، وقوت عياله . وأحمد يربح هذا  
القوت على طمانينة . بل أرباحه جاوزت نفقاته ، فأصبح من  
ذوي اليسر . أفلا تكفيه النعمة ؟ ... قالوا : لا تبطر . فالبطر  
وبال عليك !

ولكنهم لم يقووا على اقناعه بالبقاء في صفوفهم . فان طيف  
شادية المخزومي ليحول بينه وبين الرسوب في الأعماق . وقطع  
كل صلة بسوق الملفوف ، والعنب ، والتين ، والزيتون ، والفول  
الأخضر ، واللوبياء . فهو غريب عنها . وساقته همته الى سوق  
الطويلة يستاجر فيها محلاً لمبيع الحرير والطيبوب . ولمع في أعلى  
باب المحل اسم « أحمد المسكوبي » ، بحروف نوافر ، ضخام . وتأنق  
أحمد في ملبوسه . وأضحى فوراً ، لفرط اقدامه ، واشراق  
حظه ، من المرموقين في التجارة . وخاطب أمه وشقيقته بقوله :  
وماذا عليكم الآن وقد خطبتن لي شادية ؟

فهي مطلبه . وشعرن بأنه سما الى مقام وزين . وأسرعت اخته  
عائشة ، الى صديقتها شادية المخزومي ، تحدثها عما بلغ احمد من  
مكانة . أصبح من تجار سوق الطويلة المغبوطين . فاستفهمت  
شادية متعجبة : أصحيح ؟

فقال عائشة : هلمي اليه . أليس في نيتك شراء ثوب  
جديد ؟ ... تعالي وانظري أي بضاعة يزدان بها محله !

وسارت بها الى المحل الزاخر بالنفائس ، الحافل بشواهد السعد .  
فراق شادية الاتقان الموفور باستفاضة ، وحدثت عنه أباها . فأبدى  
السيد المخزومي الاعجاب بالهمة الموفقة . وأثنى على الشاب الواعد .  
بيد انه ، ما خوطب في عقد الخطبة ، حتى جرض بريقه . أيزف شادية  
الى معلم خضرة ؟ ... ولكن معلم الخضرة اضحى تاجراً في سوق  
الطويلة . والناس ينظرون اليه في مقامه الجديد ، وقد محا بيده  
المجدولة عنوان الأمس الهزيل . فما تمالك والد شادية ، ازاء  
الحقيقة الساطعة ، ان اعلن موافقته . قال : احمد بلغ باجتهاده  
الخطوة الرضية . وما ارتقى اليه من مكارم يحملني على تحقيق  
امنيته . فله ابنتي . ولست اخشى عليها في عصمة هذا العصامي !  
وعقدت الخطبة والجميع في بهت . أتصير شادية المخزومي  
الى معلم خضرة ؟ ... ولكن ما ادرك احمد المسكوبي من منزلة  
اخرس كل مهذار . فالمرء بما وصل اليه ، لا بما نشأ فيه . وبدا  
احمد على مساواة بخطيبته . فالجهد غالي الثمن ، مدرار المغنم ، وقد  
كتب للشاب التفوق على حاسديه ، وشانئيه . وكم تكاثروا بعد  
طفرته غير المنتظرة الى عالم الحيوان والعز !

تجارة احمد المسكوبي في سوق الطويلة على رواج وغناء . فلقد  
تحدثت عنها النساء . والنساء إذا رزين ملأن الآذان اطراءً وشكراناً  
واحمد جاءهن بالبضاعة الناطقة بالجودة ، وبسلامة الذوق .  
وقنع بالربح اليسير . وفي القناعة غنى . فباتت ذات الاناقة تفاخر  
بكون ثوبها من محل المسكوبي

والشباب بمن يؤمنون بالخطوظ ، وبالوجوه . فإني الا الاذاعة  
ان وجه خطيبته شادية حمل اليه اليمن والبركة . وتوالت عليها  
هداياها . بخرطمي فأفاض بالنفائس الدهاق . ونضا عن قلبه السر ،  
فتدفق في سرد لواعج حبه . فهو هائم منذ زمان . الا ان الجرأة  
فاته . فما اقدم على المصارحة بالهوى ، الا وقد اكنزت الضلع  
وامسك يد شادية معلناً : ما حسبتني ابلغ منك هذا  
المستوى ، فنتعادل ، وكنت في يأس منك . الا ان القدرة ابت  
ان تقيم قلبين ولوعين على انفصال !

واتقدت فيهما ميول واحدة . فهما على هناة . وكان الزواج .  
فساد الطرب منزل احمد المسكوبي . ورقصت امه وشقيقاته  
بهجة وأنساً . وبدت شادية في حلة العرس طيفاً من اطراف الجنة .  
وانتشى احمد بالنعمة الفضفاضة ، المجررة اليه الاذيال . وما كان  
يرقب لها بزوغاً

واشترى سيارة . وجاب بها وعروسه اعالي لبنان . فما  
عنت عليهما عاليه ، ولا بجمدون ، ولا صوفر ، ولا زحلة ،  
ولا بكفيا ، ولا ضهور الشوير . ووثبا الى بسكتنا ينعمان برأى  
صين الجبار . وعرفا السعادة الحميلة الملمس . وغابا في فتنة  
اللذائذ ينهلانها من كؤوس طفاح

غير ان الام ، والشقيقات الثلاث ، ابدن القلق . ليس في  
شادية ما يبشر بالحبل . منذ سنة وهي في منزل احمد المسكوبي ،  
دون ان تمخض احشاؤها بجنين . واحمد وحيد . فاذا لم يرزق  
ولداً ضاعت السلالة ، وانطفأ الاسم . ولمن هذا المال كله ؟ ...  
فهل جمعه احمد ليورثه اصهاره ، ازواج شقيقاته ؟ ... ما اكرم  
الاصهار ، وما يفرحون بسوى مصائب اهل الزوجة !

واستباحت الشقيقات نشر الظلامه ، بعدما ضجّت بها الام .  
ونقلنها الى الجيران باديات الكمده . والجيران لهجوا بها ، وهم  
يرصدون علة فتتاب الاسرة الهانئة كي يغمزوا بها ، وينغصوا عليها  
خفضها وطمانيتها

وفي إحدى الليالي ، وقد احتشد الأهل والأصدقاء ، في دار  
أحمد المسكوبي ، تحدث صديق ، خشن البيان ، عن انتعاش البيت  
بالأولاد . فهم فرحة القلب وزينة الدنيا . فدمعت عينا أم أحمد  
وقد هالها عقم شادية . وقالت على مسمع من الجميع : ليقبر

أمه أحمد . ليس في نفسي منه غير هذه الحسرة !  
وبكت كأنها في ماتم . فقال كل من ضمهم المنزل : ولماذا  
البكاء ، يا أم أحمد ؟ ... ما يزال الأمل يبشر بالعطاء !  
وقام إليها ابنها يلومها . وامتعضت شادية المخزومي ، وشعرت  
بالذلة . لا ، لم ترزق ولدآ . وهو ما خشيت سوء مغيبته ، وقد سقط  
إليها ان روعة الحياة المال والبنون . والمال جمعه زوجها .  
أما البنون فما اشرفت لهم طلعة . قال أحمد : لنقنع بما يهب  
الله . فلا يقتل الانسان غير الطمع !  
وأفاض بآيات الكتاب . ان الله لجواد كريم . ومنع  
أمه من العودة الى المظهر الكئيب . وردة على من نكأ الجرح  
بقوله : أنا وامراتي على رضى ووثام . وهو حسبنا !

وفرض على جلسائه الانقطاع عن الحديث ، وفيه ما يدمي .  
غير ان الجرح لم يكن ليندمل في نفس شادية ، فنزف على  
فوران . ولما خلا احمد المسكوبي بامراته ، قالت تجلو الموقف : أنا  
لا أحاول ادانة أمك ، وهي على حق في ما تتألم منه . فعلينا  
أن نسير الى الطيب لينظر في أمرنا . فمن الصعب أن نبقى كما  
نحن ، بلا أولاد يضيئون أيامنا !

ولجّت في المطلب . فهي كأمة على قلق وارتباك ، والأمومة  
شبهة الى كل أنثى . وما أشرق الصباح حتى كان أحمد وزوجته

في عيادة طبيب متخصص بالتوليد. وتعجب الطبيب منهما كيف  
لا يلدان وكل ما فيهما مستكمل الجهاز. قال أحمد المسكوبي :  
أما من دواء ؟

فأجاب النطاسي : لستما بحاجة اليه . أتوكا للقدر يده  
فيكما !

فعادا مستبشرين خيراً . وحباً أحمد الى أمه يقول : نفى  
الطبيب كل عقم عنا . أنا وشادية على خصب . ولكن علينا أن  
نتنظر سخاء الزمن !

فاطمانت أم أحمد بعض الاطمئنان. وهي مع حبها لشادية ،  
واعجابها بها ، لم تكن تغفر لها عقرها . فمن الظلم ان يبقى احمد  
بلا نسل . وانقضت الأيام والألسن محبوسة ، إلا ان عقالها غير  
بحكم العقدة. وتوالى شهران، وثلاثة، والحالة لم تتبدل . فتململت  
ام أحمد ، وخانها الصبر ، ففارت فيها شهوة الطعن ، والقرص ،  
ونفت السم . وإذا هي خافت من ايلام ابنها ، ولم تطلق في  
مسيبه فحيحها ، فما تورعت عن حشو آذان بناتها بالتفجع  
العضوض ، الصخّاب : أحمد سيبقى بلا وارث ، واويلاه !

وتفرك يديها وتحلج شعرها . وتتأوه . ابنها لن يبتهج  
بالأولاد . ولا تتمالك أن تعلن في ساعات نقيتها ، والدمع يغزو  
عينها : الحمد لله على كوننا ندين بالاسلام ، وهو يجيز الطلاق .

وإلا لكنا في داهية دهباء. أيعدو علينا الانقراض?... اذن لمن  
جميع هذا المال؟

وتحدثت عن الطلاق بلا ونية ولا احتواس . على أحمد أن  
يعيد شادية الى أهلها ما دامت غير ولود. وشاظرتها بناتها الرأي.  
الطلاق وحده ينقذ من البلوى. ولم يكن من أم أحمد ، في صباح  
ذات يوم ، الا ان وثبت الى ابنها تقول: أترضى بأن نمحي?...  
عقم امرأتك سيودي بنا ويطمسنا !

ولم تكن شادية في المنزل . فقد برحته الى بيت أبيها تشكو  
هناك مصيبتها. قال أحمد متأففاً : يدهشني من أمي سعيها للافساد  
بيني وبين امرأتي . ألا فلتعلم ان شادية مستقرة مني بمهجتي . فاذا  
نأت عني لفظت' روعي !

فصاحت الأم وهي ترعد: أتعيش بلا نسل?... انك لتحبها  
اليوم ، ودفء الحنين يتوهج فيك ، ولكن هذا الحب سيفتر  
غداً ، وتشعر بالبرودة ، ففكره شادية وتندم على استبقائها .  
فالأولاد وحدهم يشدون بعضكما الى بعض ، وأنتما منهم على  
نفاد . فابعدها عنك . طلقها. وإن تكن شغفت بها حتى الحرص  
عليها ، مع كل نقص يعرفها ، فلا تتردد عن ضرورة تخبئها بها .  
هذه للحب ، وتلك للأولاد !

فضرب الأرض برجله صارخاً : أنتِ تسعين لقتل روح .



للقضاء على حياة . فلا تكوني مجرمة . لا تكوني حماة تذبج  
بيدها امرأة بريئة لا تطبق ظلها . هذا الصراع بين الحماة والكنة  
أعرفه ، وأربأ بداري عن نكده . فما بكِ لا تصوني مسكني من  
البليلة ، وراحتي من القلق ؟

فهمت بامتعاض ، بمضض : وحققك ، ستندم . أراك منذ  
الساعة تعض أصابعك تحسراً . اعمل بما تريدك عليه أمك ،  
وأنت الرابع . فلا تعرض ذريتك للهلكة !

فسد أذنيه بيديه وهو لا يزال على صياحه الخانق : ابتعدني  
عني . لا أريد الاصغاء الى الحديث الدنيء . ليس من قوة  
تُحزحني عن شادية المحزومي . أما اخترتها لي بنفسك؟ ... قولي .  
ليس الذنب ذنبها ان تكن لا تحبل ولا تلد . عدا ان الطبيب  
لم يقطع منها الأمل . فلا يزال في الغد رجاء لم

قالت بشدة تنصل بها من التفريق بين قلبين : لست أزحزحك  
عنها . ولكنني أطلب منك أن تتزوج امرأة اخرى . فالدين  
يبيع لك الازدواج !

فما كان منه الا ان أمسك بذراعها ، وقادها الى خارج الحجرة ،  
وأقفل دونها الباب . حديثها لن يلقي عنده سمعاً . وارتدى  
ثيابه ووجهته محله . وما صفا خاطره . فهو مضطرب الروح .  
امه تنطق عن شهوة في نفع ، لا عن كره لشادية ، الا انها

تبالغ في اظهار الاخلاص . فالموقف لا يفرض هذا العداء .  
وكيف يبعد عنه شادية وقد علقها ، وما يحتمل ان تقع عليها عين  
شزراء...؟ لا ، لن يطلقها ، ولن يتزوج عليها ، وضميره يمسك به  
عن إيلا من وهبت له نفسها ، وحفظت عهده . وان تكن  
عاقراً فالتبعة ليست عليها ، بل على القدر

وصمم على البقاء لسيدة جنانه . ولا بأس أن يرحلا عن  
دنياهما بلا أولاد . ولماذا الأولاد...؟ أيلدانهم للشقاء ، وما  
من مخلوق الا ويشقى ، مهما بلغ من السؤدد والثراء ؟  
وضحك أحمد وأقصى عنه الكربة . لتطلق امه زعقاتها ،  
فلن يعيرها أذنيه . وفي المساء شخص الى امرأته ، في دار ابيها ،  
وطاف واياها حول بيروت . فانتكأت شادية على كتفه وما  
استطاعت الا أن تبكي فتذيع أساها . فانتفض أحمد كاللمسوع ،  
وهتف بألم : شادية ، ما يدعو الى صبّ الدموع ؟

فأعلنت بظلامه الجريح : ألا تدري ، يا أحمد...؟ أحس  
بأنني جانية عليك . أمك ليست على ضلال في مخاوفها . انقضت  
سنة أشهر على رؤية الطيب إيانا ، وما تزال من أمرنا حيث كنا .  
فالحبل يبعد عني ، مع سعبي اليه . ومن الجور أن أبقى في كنتفك  
وأنا المرأة العقيم . فطلقني . افسح لي في النأي عنك . اني لمجرمة  
إذا رسخت في عصمتك على ما بي من نقصان !

وأذفا دمعها . وتكلمت بجرقة وزفير . فقال أحمد يستهين  
بعبراتها: أهذا ما يحملك على البكاء?... ولكنك تذيبين نفسك بلا  
جدوى . ستبقيين في منزلي . ستظلين عقيلة أحمد المسكوبي .  
فلمست أرغب في أن أرى تحت سقف بيتي وجه سواك . سأقضي  
الجميع عني ، وأستبقيك ، وأنت عندي خير من يصفو به عيشي !  
فقالته وهي تغصّ بريقها : لن ابقى . سارحل عنك في ساعة  
من ساعات الغفلة ، اذا ابليت أن تفرج عني برضاك . فتبحث عني ،  
ولا تجدني . اصبحت في جانبك كأني في سجن ، وانا تلك العاقر .  
فاقضي عنك ، وكن لسواي . فانه ليروفي ان تنعم بالاولاد ،  
فيزدان بهم بيتك ، ويجلو زمنك . وستراني اقبل اليهم بنفسي  
للاعتناء بهم ، ورعايتهم . لا تحمل لاجلي الموض وقلق البال . شادية  
مسكة بهواك . ولكن المصلحة ترجح الهيام !  
فاصرّ على القول : أنت وحدك امرأتي . واني لمؤمن بانك  
وجه خير . فاذا صرفتك عني قتلت نفسي بيدي !  
فاكبرت فيه الاخلاص . على انها لن تكون دونه في شوط  
السماح . فما دام يضحى في سبيلها باعز ما عنده ، وهو النسل ،  
فلماذا لا تجود لأجله باكرم ما عندها ، وهو الاستقرار بعصمته ؟  
ستنأى عنه العقيم ، وليتزوج ولوداً . شادية المخزومي لن تسخو  
عليه بالذراري . قالت : فكر ملياً في غدك ، يا احمد . فأنا

اضن بهذا الغد ان يدوي . لأجل من تصارع الحياة ، وتحشد  
الذخر ؟ ... أليس لمن يحفظ اسمك ، ويترحم عليك ، ويبقي  
سلالتك الاندثار ؟ ... شادية المخزومي لن تحقق املك ، فدعها  
واطلب لنفسك من تنفحك بالشهوة الحيرة !

فما وني يستخف بلمسها . قال يميل بها عن البتغى الوعر :  
انسخي من ذهنك مخاوفك . احمد المسكوبي سيبقى لمن احب .  
ولماذا الاولاد ؟ ... هل لك ان تحدثني عن سعد ببنيه ؟ ...  
انهم ليرقبون موت من افنى العمر في خدمتهم ليرثوه ، بل هم  
يحاولون ان يرثوه قبل ان يفيض بأنفاسه . وماذا يلقي منهم وقد  
نفحهم بماله ؟ ... انهم ليرذلونه ، ويتناسونه ، فيقضي في مهانة .  
وربما في جوع . وكم يلقي من احوال كي يبصرهم كباراً . وكم  
يعاني من صدمات وقد كبروا . ألا انتزعي من صدرك الميل الى  
الاولاد ، وليعش بعضنا لبعض . فكما عرفنا الحياة شبيهة ،  
فلنمض في الاستمتاع بنواضرها حتى يديننا الفناء . لنكفر بالاولاد ،  
وليس منهم نفع . ولنعرف كيف نتلذذ بجننا ، وهو الابقى ،  
والأجدى !

فودت ان تعلم هل يخاطبها بعاطفة صادقة ؟ ... ألا يحاول  
اخفاء رغبته في الاولاد لارضائها ، هي اليائسة ، الملتاعة ؟ ...  
قالت : احمد ، الحب لا يدوم . سوف يقبل زمن يعترينا فيه

الجفاف ، فينطوي بعضنا عن بعض . فتزوج سواي ، واهناً  
بعمرك . فتبصر اولادك يدرجون بين يديك نجوماً نيرة ، فتغبط  
بهم نفسك ، وتوقن انك ما أضعت ايامك . ارجو لك زواجاً  
سعيداً !

فتذكر كلمات أمه وشادية تسخر بهذا المنطق الملق ، الخلوب .  
وما كان منه الا ان اطبق بيده فمها ، وقبلها في خدها قبلة  
اودعها لبة حينه . وقال : هذا حديث انتهينا منه . كلانا للآخر  
حتى الموت . انت عندي السعادة المثلى ، فلماذا الالتفات الى  
التوافه ، وكل ما عداك هزيلٌ نجس ؟

ومال بها الى حديث بريء من الكدر ، قائلاً : انظري  
الى البحر واستنشقي هواه . تأملي الامواج المتلاطمة فيه ، الا  
تروفك الامواج ، وهي ابدأ في جهاد ؟ ... لا أكاد ابصرها حتى  
أتهب عزيمة ، واقبل على عملي بصدق في الكفاح . فالامواج  
تنهزم على الشاطئ ، الا انها لا تياس . فيتبدد مجهودها هباء  
منثوراً ، ولا تكل ، بل تجمع شملها وتعود فتناطح اليابسة  
بعزيمة امضى . هي هي منذ الازل ، وستبقى كذلك حتى المنتهى .  
بل حتى تفوز بأمورها فتغمر اليابسة . فاطيلي النظر اليها . انها  
لعنوان الصلابة ، حتى في مقاومة المحال !

فارضاهما منه هذا الرفق بها . فهو لا يتظلم منها ، ولا ينحي

باللائمة عليها ، وفي صدره من الكلف بها ما يحمله على الرضى بكل  
ما يعرفها من خسف . وابتسمت له ابتسامة الشكر . فمضاع  
عندها الجميل . وما انفكت تلقي رأسها الى كتفه لتستريح من  
عناء الغواشي ، والسيارة تهددها كأنها على مهد وثير . أمنت الغائلة .  
بيد انها لن تعتم بالاطمئنان الا وقد سخت رحمتها بشمار أحشائها  
وعادت وزوجها الى مشواهما والفرحة في سويدائها . ودخلت  
حجرتها مستندة الى ذراعه . وابصرتها أم أحمد في موقفها  
الرخي ، فانتفضت فيها الدمدة : عافر ويستمت في هواها . ستهدم  
عده وما ينفك يهيم بها . انه لمجنون . يتداعى ، ويصبر على المحنة .  
سبحان من وزع العقول . لا إله إلا أنت ، يا الله !

وئارت أم أحمد . وبلغت دمدمتها آذان ابنها وكنتها . فقالت  
شادية وهي ترتجف هولاً : أسمع أمك ؟  
فصاح مغتاضاً : امي لا يعنيتها أمري . انا لك في قلبي  
وروحي ، ولا مي في مالي وعطفي . فاعيلها وأرد عنها الدواهي .  
وهو فرض عليّ ، لا ارتضي دفعه عني !

وخرج الى امه يقول بوجه اربد ، ونبرة قاطعة : كفى .  
انا تزوجت ، لا انت . فانقطعي عن الازباد والارعاد ، وليس  
لك ان تعبي حيث اهنا . اذا كنت ترأفين بابنك ، فلا تفسي  
عليه اطمئنان الضير !

فسكنت أم احمد ضناً بوحيدها ان يشقى . لم تكن تستجيز  
لنفسها ايلامه . الا انها بدت في سكوتها على فوهة بركان، ينذر  
بالانفجار الذريع

٣

اقامت شادية المخزومي على خوف من ام احمد المسكوبي .  
فالكنته تخشى الحماة . صراع الابد لن تنجو منه الاسرة الناعمة  
بالفلاح . فان لم تكن ثمة علة ، فالتنافس في السيطرة على شؤون  
المنزل يخلقها . وللقديم والجديد ان يتصادما حتى الاضمحلال .  
ذاك يضمن بخطرته ان يهون . وهذا يابى الا الظهور في معركة  
السؤدد والاستعلاء . وراة شادية ، للنجاة من نظرات أم احمد  
اللاذعة ، ان تعتم بحجرتها . فلا تبدو لعين حماتها ، ولا تكابد  
خشونتها الجارحة

ولكن الحماة ابت ان تخفي حرقتها ، مع احتجاب كنتها  
عنها . فيتوانب الكلام عفواً الى شفتيها جمرات متوهجات ، فتعيده  
على رغبتها الى ما بين اضلاعها ، صابرة على المضض . بيد ان الصبر  
وهي ، ولم يبق من سبيل الى الاحتمال . فشعرت بنفسها تدخل  
على كنتها بوجه عابس ، يقطر منه الكره ، ويتوهج بالرغبة في الحُصام .  
وارتجفت شادية وهي تبصرها . وودت لو يتم لها ان تغور في الارض .  
ولكن ابن تخفي ، وقد وقفت منها حماتها وجهاً لوجه ؟

وألقت أم أحمد يديها الى خصرها. وبدت كمن يروم القتال.  
فهدرت بصوت أبحّ، ينضح بالضغينة: أيروفك ما نحن فيه، يا ابنتي؟  
فقال شادية وهي تحاول اتقاء البلية: ماذا يا خالني، أم  
أحمد، أي أمر نحن فيه؟

فأجابت والقهر يخفضها، فتهتز كأنها في زلزال: ألا  
تدرين...؟ أتكونين بعيدة عما نقاسي؟  
- نقاسي ماذا؟

فضحكت ضحكة يرعد فيها الويل، وزعقت من كيل  
طافح: أتجاهلين، يا ابنتي، وانت مصدر المحنة؟... لم نكن  
نعرف الكدر في بيتنا قبل ان تدخله. عمك حطم فينا الصفاء!  
فتقل على شادية المخزومي ما تسمع، وكادت تشتبك وحماتها  
في شجار عنيف. الا انها تماسكت مع هول الصدمة. وقالت  
ببعض التؤدة: اراك تجاوزين الحد، يا أم أحمد. فاذا لم انعم  
بالبنين، فاين خطيبيتي؟... ثم ان الامر من شأن زوجي، لا  
من شأنك!

- ولكن زوجك ابني. وانا لا اريد ان يعيش محروم  
النسل!

فما سلمت شادية من الحدة نجاه الوخر غير الرفيق،  
ونبرت: ومن ابلك انه سيعيش محروم النسل، والطبيب نفى



عنا العقم ؟ ... ارغب الى السيدة أم احمد ان تتجنب التدخل  
في ما لا يعنينا !

ففارت ام احمد وكنتها تصرفها عنها بهذا الجفاء . واخذت  
في الصباح : ما هذه القحة الصارخة فيك ؟ ... هل لمن لا تحبل  
ولا تلد ان تنبه علينا ؟ ... نحن نأبى ان نرهن مصيرنا بعافر .  
فما يتعب ابني ليتبدد جهده كالدخان ، ويغير على ذخره كل ذي  
مخلب وناب !

وما كانت شادية ترقب هذا الغليان في أم احمد المتجمعة  
الاسارير ، المتساقطة الاضراس ، العاوية في صراخها كأنها ذئب  
عتيق . فدنت منها تسترحمها بقولها : لا ترفعي الصوت ، وحق  
احمد، ابنك . ان الجيران ليضحكون منا اذا سمعونا . خاطبيني  
بصوت وئيد . فان لي اذنين سامعتين . ماذا ترومين مني ؟  
واقنعتها بان تحمد من سورة نقيتها . فقالت ام احمد :  
اسمعي ، يا شادية . بقاؤك بجانب ابني بات محالاً . ابني وحيد .  
ولا بأس ان ينجب وحيداً مثله . على ان ينجب . وانت لم  
تلدي له البنين . فادعوك الى الشفقة علينا، وعليه ، ببراح هذه الدار!  
- ولكن الطيب ...

- دعيني من الطيب . فالشهر يُعرف من مستهله . لو كنت  
ذات خير لظهر الخير فيك . الا انك عافر . فارحمينا وانصرفي

عنا ، يا ابنتي !

فانتفضت شادية في نحيبها ، وقالت بصوت بائس ملتاع :  
أتظرديني ؟ ... اين جريمتي اذا بقيت بلا اولاد ؟ ... لا اعتقد  
ان ابنك يرضى عن هذه الاساءة الى امراته . سارحل عنكم .  
اجل . فالرحيل بات اشهى من الثواء بدار يكتنفني فيها الضيم .  
سامحيني في قبولي احمد زوجاً . لقد اخطأت . عفواً عن البلاء !  
وتساقط الدمع غزيراً على خديها ، وعنقها ، وصدرها ،  
ويديها . ونهضت الى ثيابها ترتديها وتنهد الى المهجران . لن تقيم  
في منزل تدهمها فيه البغضاء . غير ان أم احمد ، وقد رأتها في  
غلواء الهياج واللوعة ، ادركت مبلغ جورها عليها . وخشيت  
مضض التبعة . فمالت عليها تقول باستعطاف : ابنتي ، ابنتي  
شادية ، ضللت عن قصدي . لست اطاب منك براح المنزل ،  
بل اريد ان تبيحي لاحمد الزواج بضرة لك !

فكان العذر اقبیح من الذنب . قالت شادية وقد بانت كتلة  
من ألم تميم رهبة وحنقاً : ليتزوج من يشاء . انا دعوته الى  
طلاقي منه ، فأبى . سأبرح هذا المنزل ، واحملي الى ابنك من تملأ  
بينه اولاداً . لو كنت ادري اني سألقى فيكم الشدة ، لما ارتضيت  
هذه الدار مأوى !

فارتاعت أم احمد وهي ترى شادية ترتدي ثيابها ، ونهت

بالرحيل . فماذا يقول احمد اذا جاء يسأل عن امرأته ولم  
يجدها ؟... والام تعرف شحّ ابنتها بشادية ، فهاها سوء العقبي .  
وقبضت على ابنة رشاد المخزومي تسألها الحدب عليها وعلى ابنتها  
معاً ، صائحة بلهفة : اخطأت ، يا ابنتي ، اخطأت . فأغفري لي  
جرأتي عليك . احمد يحبك ، ولا يرضى ان تبرحي مقرك . انت  
ربة المكان . فأننا لننصرف عنه جميعاً وتبقين فيه . كلنا  
في طاعتك !

واخذت في الاسترحام بعد العرام . فقالت شادية متفجعة :  
بل هو لك . اني انفض منه يدي . وداعاً . اذا سأل عني ابنك ،  
فابلغيه ان ليس بوسعي الاختلاط بقوم يبينونني صباح مساء !  
فشدت بها ام احمد تمنعها من الرحيل ، وهي تقول بوهلة  
طروح : سيفضب احمد اذا انصرفت . فهل يروقك أن يفضب ؟  
قالت بمزيد الحنق : لا يفضب منكم احد . فما دمت العقبة  
الوحيدة دون هناتكم ، فاني اغادركم بسلام !

فصاحت الام تنادي اليها بناتها ليسانعدها على شادية . ولكن  
ابنة رشاد المخزومي وثبت الى الطريق ، ومشت بخطوات حازمة  
الى دار ابيها . وكادت تخنق في اسأها . فما هذه المشاكسة  
الناخعة في مشوى زوجها ؟ ... جميع الغيارى على احمد  
المسكوبي لا يتوجعون على حرمانه الاولاد ، كما تتوجع هي ،

امراته . فالاولاد لها قبل ان يكونوا له . غير ان القدر ابى  
عليها الا ان تشقى بالحرمان

وحثت المسير الى اهلها . وهناك ارتمت في الارض ثثن  
وتنتحب . وادركت امها سرها ، فانحنت عليها تضمها الى  
صدرها ، وتخطبها بحنان كبير : ابنتي ، لا تتوجعي . ان بيتاً  
ربيت فيه لن ينساك . سامح الله ام احمد في طبعها القاسي .  
كان عليها ان تبدي حبالك نزرأ من حنو ولين . فهي أم ،  
وعندها ثلاث بنات للزواج !

وبكت شادية وامها وغلب عليها الصمت الاسيان . فهما  
تتوجعان للمصير الفاحم . وبعد لأي عسير ، قالت شادية : لا  
اعتقد ان احمد يرضى من امه ان تشن عليّ هذه الحملات  
الناهكة . فكلما ابصرني رشقتني بالقوارص ، كأني هدمت  
بيت الله ، وهنكت مصون الستر . الحياة اضحت لا نطاق في  
المنزل الناعب . مع ان احمد يحبني ، وبدرك ان لا يد لي في  
ما انتابني من علة . ولكن من لنا يقنع ام احمد بانها في نقيمتها  
على ضلال ؟

وأحمد المسكوبي ما بدا في المنزل ، وسأل عن امراته ولم  
يجدها ، حتى أيقن ان كارثة تساوره . فهجم على أمه يصيح بها :  
ألا ماذا جرى في اثناء غيابي؟ ... اي اصطدام وقع بينك وبين

سادية?... أخبريني. أراك أبداً على خصام. بل أراك تتدخلين  
في ما لا شأن لك فيه. فما يجدوك على مدّ أصابعك الى ما  
لا يعنيك?... اني لأمنعك من الافتئات بسلطة ليست لك.  
أنا وحدي سيد المنزل. فالزمي حدك!

فبكت أم أحمد وجمجت بصوت حزين يتشفع فيها: ما  
خاطبتها بما يؤذيها. غضبت وسكنت الى الفرار. وبذلنا الجهد  
للووقوف بها عن الهرب، فأبت إلا الرحيل!

ففاظه ما تبدي. وجلجل: هذا البيت مقرها. فأني تجلو  
عنه?... ولكنك أخرجتها فلم تطق البقاء في منقع الضيم. أنا زوجها،  
لا أنت. واني لراضٍ عن عقمها، فلا تتذرعني بالاخلاص حيث  
لا حاجة بنا اليه. أيطيب لك تكدير عيشي، وقطع مسرتي?  
وهاجه الغضب. فهو في دمدمة وزفير. أي نكبة ترميه  
بها أمه، وقد باتت لا تجيد غير التنديد بكتنتها?... هلا التفتت  
الى وجه آخر تنفت فيه سمها?... ما يشوقه ان يمسي مييته  
ساحة لمعارك الحماة والكنة، المنقصة الرخاء. وهفا الى زوجته،  
في دار أبيها، يطوقها بساعديه، ويقول: لا كان من يحاول  
ايلامك. منذ الساعة سنعيش على انفراد. لا تغضبي. أمي في  
غلواء الشجن. حبها لي يدفعها الى الحسرة والنزق. فاغفري لها  
ما نالتك به من احراج!

ومسح بمنديله دمعها . ونألم للوعتها . فهي حمراء العينين ، كابية  
الهمة . قال رشاد المخزومي ، أبوها : لسنا نؤيدك في الانفصال  
عن أمك وشقيقاتك ، يا أحمد . فمن الحيبة الصافعة ان تعاني أمك  
في آخر أيامها مرارة القطيعة . ولكن لترفق بابنتنا . اننا لنسنع  
شادية من مخاشنتها ، فلتخفف من فورتها ، ولتخاطب زوجتك  
بلهجة الأم . أترضى بأن تكون دارك جحيماً ؟

فحرد أحمد على أمه . ولقي في تدخلها في شؤونه ما تدلهم  
بها روحه ، ويظلم شبابه . قال : سنقيم بمعزل عن الجميع ، ولن  
نختلط بأمي وشقيقاتي . هن المنزل برياشه ، ولنا مأوى آخر  
نستأثر به ، ونحشد فيه الأنيق الطريف !

وكل بمانعة من والد شادية وامها لم تثنه عن عزمه . بقاء  
امراته بجانب امه وشقيقاته مجلبة سوء للجميع . والشر يفرض  
الوقاية . واحمد المسكوبي سيقية . ورجع الى امه واخوانه  
الثلاث يفاجهن بقولته : هذا البيت لكن ، لا لي . فعشن فيه  
بسلام . وعلي نفقاتكن باجمعها . فاقضي حاجاتكن بلا تسويق .  
على ان تنقطعن عن إزعاجي . شادية امرأتي ، لا امراتكن .  
وسأعيش واياها بعيدين عنكن . ويعلم الله اني ما اشتبهت هذا  
البعاد ، الا انكن قضيتن به علي !

فولولن ناثحات : أنتصرف عنا ؟

— لا غنية عن الانصراف. والا دهمتنا كوارث لا قبل لنا بها!  
وصاحت الام : انهجر امك ، يا احمد ؟ ... أتنكر فضلها  
عليك انتصاراً لامرأة غريبة ؟ ... ألا ابن اكرام الوالدين ؟  
وجلجل فيها اليأس والحذلان . واحست بانها مطعونة في  
كرامتها ، وفي امومتها . فاضاعت ايامها في الباطل ، كأنها  
ذرارة في صحراء مبهولة . فلا وزن لها ، ولا شأن . قال احمد  
المسكوبي يدافع عن امرأته : كانت غريبة ، يا امي . اما الآن  
فقد بانت امرأتي . وهي اقرب الجميع اليّ . اما ان اقطعك ،  
وانكر فضلك ، فهو بما لا يخظر لي . فكل ما يفرض علي  
الاجلال للام تشملني احكامه . لك راحتك ، وصفو لياليك .  
ولكن دعيني اهناً بزواجي !

فلطمت وجهها بيديها . وشهقت شهقة أغمي عليها بها .  
فهوت في الارض ضائعة الحس . وحامت عليها بناتها يسعفنها  
بالانعاش ، وهن ينظرن الى اخيهن صارخات بحقد : إفرح ،  
يا قاتل امك !

فانهمنه بقتلها وهو البريء البدين . وصبر على التهمة . وانحنى  
على امه باكياً ، مروحاً ، يخاطبها بما يفور به صدره من شعور  
المودة والتعظيم ، قائلاً : رفقاً بابنك . فهو يميل الى ضمان  
راحتك وراحته . أفلا تريدن لهذا الابن الراحة ؟ ... أما دفعته

الى الحياة ليسعد ؟ ... كوفي اذاً له عوناً على التمتع بالرغد .  
حملت اليه الشهد ، ولكنك نثرت على هذا الشهد الحنظل ،  
فاني يذوق الحلاوة ؟ ... شادية لست بالمرأة العاقر . وانا  
احبها حتى مع كونها عاقراً . فدعيني انفق واياها شهية الليالي .  
لست اجهل ان عطفك عليّ يدفعك الى المنافعة عني في رفاة  
غدني ، ولكنه عطف بسية حيث يلوح لك انه ينفع . فخففي ،  
برحمك الله ، عني وعنك !

فاستطاعت ان تججم ، وقد استعادت صوابها واولادها  
يبدلون المجهود في درء الغشيان عنها : أتتركني ، وتريد ان  
اهنا ، وفي هنائك بددت عمري ؟

وغارت عليه من امراته ، وقد استأثرت به شادية كله .  
فاجاب بمديد اللين : أتركك ؟ ... محال . في كل صباح ومساء  
ستجديني بين يديك . احمد نعوذ تقبيل هاتين اليدين المباركتين ،  
ولن يستطيع الاشاحة عما يألف . الله لن يكتب لي التوفيق  
وانا اصدف عنك !

وقبل يديها الذابلتين ، وقد انتبرت عروقها تحت وقع  
الشيخوخة ، وقال : باركيني . عاليني برضاك عني . انا ابنك  
المطيع . وهذا الابن ، وقد احتاج الى معونتك منذ نشأته ، لا  
يبرح بحاجة الى المعونة ، وقد شبّ عن الطوق . مصلحتنا جميعاً



في ان اقيم في منزل آخر !

وتناول من جيبه حفنة من الذهب وألقاها بين يدي امه .  
فبكت أم احمد بكاء شاعث فيه المرارة والحُبية . الا ان المال ،  
جابر العظم الكسير ، ازال من حدثها ، وحفزها الى الرضى  
المبلل بالدمع الحسير . فعليها ، وهي الام ، ان تظاهر ابنها ،  
وتوفر له الدعة . وألوت عليه تشده اليها ، ولم تشبع من تقييله ،  
وهي تقول : لا كانت امك . اعمل بما تجد فيه راحتك ، واسفق  
علينا !

وبكوا جميعاً . فان دخول شادية ، الغريبة عنهم ، الى منزلهم ،  
قضى عليهم بالحرقه والشنات

## ٤

استأجر أحمد منزله في محلة الناصرة ، في الحي المختلط ، وقد  
امتزج فيه المسلمون بالنصارى . والمنزل على خط القطار الكهربائي ،  
في الطابق العالي من بناية ذات طبقتين ، توى بالمقر الاسفل  
منها جماعة من المسيحيين

وهنئت شادية في مسكنها الجديد . فهي فيه على طمانينة .  
فلا تفاجئها أم احمد بوجهها الدميم ، ولا تسمعها القول الواخز  
الدامي . وما انقطع احمد عن أمه ، وقد وفي . فهو في كل

يوم عندها ، يجيئها كما يجيئ شقيقاته بما يهب لمن الامن والرخاء  
وشادية آلمها عقمها . فتنقلت في مغالبتها من طيب الى طيب .  
ومن قابلة الى قابلة . والأطباء نفحوها بالأمل . ومثلهم القوابل .  
بيد ان المرئجي لم تظهر طلائعه ، وما يبرح حلماً في مطاوي  
الضمير . ووثب الدمع من ناظري ابنة رشاد المخزومي يتظلم .  
الا أنها ظلامه لم تجدها منصفاً . واغارت شادية على المراهم  
والعقاير تسألها فيها ، فما جادت عليها بالمني

واعتلت ذات الحرمان . فهي صفراء اللون ، ذليلة الروح .  
تقص مضجعا الشاتة . ويفت في عناءتها احساسها بالنقص .  
فكأنها وجه غريب عن دنياها . وشعرت بالحاجة الى الترفيه عن  
نفسها ، كي تنسى لبضع هنيهات اشجانها . ولم تجد سوى جيرانها النصارى  
تتردد اليهم ، وتخلع عنها في جوهم الصافي اوجاعها . والجيران  
من فئة تنهد الى الوجاعة . فما هم بالاغنياء ، ولا الفقراء .  
غير ان ماضيهم يشير الى النعمة ، وهي بادية الاثر في ملابسهم ،  
وحركاتهم ، واقوالهم . فالهدوء والنظام يسودان مأواهم . فلا  
صيحة ، ولا فبهقة فاضحة ، ولا فخفخة يقودها الطيش ، وكل ما  
ثمة معتدل ، موزون

واستطاعت شادية ان تلاحظ عليهم انهم يجتهدون في المساواة  
بين دخلهم وانفاقهم . وادركت ان ربحهم محدود ، وان الشابين

المتوفرين على اعالة الاسرة من ذوي المراتب الضئيلة ، وما هما  
من ارباب العمل المستقل . قد يكونان مستخدمين في تجارة ،  
او في مصرف ، او في ديوان

وما خفي عليها انهم اربعة . الام واولاد ثلاثة . شابان  
وشابة . ولا خادمة لديهم . فالام وابنتها تقومان بتدبير المنزل ، بلا  
مساعد . ولم تسمع منهم جميعاً كلمة يشوبها التذمر . ولم تلمح فيهم  
الجهامة . فهم راضون ، قانعون

والابنة جميلة المحيا . تكاد تكون صورة أمها . شقراء ،  
بيضاء . الا انها في قامة لا تشدُّ صُعداً . ولو ملكت القوام  
الطويل ، لاستوفت حد الجمال . ولمست شادية في أسارير الام  
والابنة البشاشة ، فليستا بعيدتين عن معاشرة الناس

وادركت من لهجتهما انهما ليستا من بيروت . فهما لبنانيتان .  
وربما كانتا من زحلة . ففي نبرة الصوت نفرة زحلية عذبة ، مع  
كل عنف فيها . وتآلفت الارواح . فالقوم من آل الزنانيري ،  
من زحلة . ولم تستر شادية وجهها من الشابين ، وزوجها اباح لها  
السفور ، لايمانه بأن المرأة يزينا خلقها ، لا حجابها

وتوثقت المودات . وترددت سعاد الزنانيري ، الابنة ، الى  
شادية تخفف عنها في غياب زوجها اثقال الوحدة . فتبينت فيها  
خفة الروح ، ولين الجانب . وتناسى الجميع ان ثمة ديناً فاصلاً .

بل هم لم يجدوا في الدين غير دعوة الى السماح والتصافي . وبحث  
شادية بسرها . فهي بشوق الى الاولاد ، والحرمات يكوها  
واسفقت عليها سعاد الزنايري وامها ، وهما تبصرانها تتحرق  
فيما تتحدث عن عقمها . ووقفنا منها آسفيتين ، ملتاعتين . فليس من  
العدل ان يصاب احمد المسكوبي بهذه الشدة ، فلا يرزق اولاداً .  
واكبرنا فيه صبره ، وحكمته . فما يتبرم ، ولا يلوم ، وما  
تتبدل كلمته : « لتكن مشيئة الله ! » . فالظلمة استأثرت بها  
شادية . فتعلمت ، وتصاعدت من شفيتها اللوعة تسيل دمعاً ،  
بل دمماً

قالت سعاد الزنايري تستفهم : أيجزم الاطباء انك سليمة  
من العلة ، ايتها السيدة شادية ؟

— ليس بينهم من يراني دون الشهوة !

— اذن ماذا ؟

فأفاضت بالناخع الدامغ : لا ادري . انا من امري في بجران!  
وجاشت فيها حسراتها . فنظرت اليها سعاد متألمة ، وودت  
ان تملك القوة على النجدة ، وهي مقدورة مبرورة . قالت :  
أتجيبيني الى مطلبي في سعي لانالك حاجتك ؟

فصاحت شادية بلهفة المستجير : خذي نصف مالي ، وانقذيني  
من محنتي !

فقلت سعاد بانفة تساورها الشفقة المخضبة بيانع الابتسام :  
ليس في الامر ما يدعو الى الانفاق ، إن هناك الا الايمان  
الصدوق !

فاستدارت في شادية عيناها ، واستوضحت بدهش :  
لست افهم !

فأي علاج هو هذا الفارض عليها الايمان ؟ ... هل من  
اعجوبة تختلج وراء ستار ؟ ... قالت سعاد الزنانييري : ما رأيك  
في النصرانية ، وانت تدينين بالاسلام ؟

فنطقت بالآية الرؤوم : « ولتجدن اقربهم الى الذين آمنوا  
الذين قالوا إنا نصارى ! » . واذاغت متحمسة : الله للجميع .  
والانبياء السنة الله . ينطقون بآياته ويهدون الناس سبل الرشاد !  
فاغتبطت سعاد بما تسمع ، واستجلت : وهل تليينني الى  
الكنائس اذا دعوتك الى المثل فيها ؟

- الكنائس ، كالمساجد ، بيوت الله . ونحن المسلمين  
نرتاد كل مكان يُعبد فيه الرحمن القهار ، رب الارض والسماء !  
فابدت سعاد بمستفيض البشاشة : اذن هان العسير . غداً عيد  
الميلاد عندنا ، نحن المسيحيين ، وفيه ينبثق يسوع ابن مريم .  
وهو في كتابكم عيسى ابن مريم بنت عمران . فهل لك ان  
نرتاد الكنائس معاً ، وان نجتو امام المذود ، وان ترتفع شفاهنا

بالصلاة للطفل يسوع ، كي يجود عليك بولد يجي فيك الطلاقة ،  
ويبعث في منزلك الغبطة ؟

فابتهجت شادية بما تعرض عليها صديقتها . وقالت باستبشار  
من يبسم له الامل ، ويضنّ به ان يتوارى فيسمى لادراكه اني  
بدا له : ولماذا لا ، يا سعاد ؟ ... انا على أهبة للطواف في  
الكنائس ، وهي معابد الخلاق . تبارك العليّ المتان !

وما تباطأت في الاجابة بعزم و يقين . فانطلقت الى الكنائس  
تجدو امام مذود البقر ، وقد غرق فيه الطفل يسوع يتوسد  
التبن والقش ، وتبثه العجماوات الدف . فتقيه الزميرير . وانحنت  
شادية امام ابن مريم تلتس منه الحذب عليها ، وانصافها من  
زمنها . وشاقها ان تجد حولها افواج المصلين يقرعون صدورهم ،  
طالبين الرحمة . فافتدت بهم في قرع الصدر ، وفي الترجي .  
حتى انها كانت تخلع حذاءها عند عتبة الكنيسة وتدخل حافية ،  
مستعطفة خيراً . وتجلى فيها الحشوع . والتبثت بجرارة الايمان ،  
كانتمة ما ينبثها بان دعوتها مستجابة . وعادت من جولتها  
فرحة القلب ، مطمئنة البال . ولمس فيها زوجها المسرة ، على  
غير ما كان يرى منها ، والكمدة لا تنفك تعرفوها . فقال مستطلعاً :  
ماذا ، يا شادية ؟

فارتت بين يديه بشغف وهي تقول : احمد ، لا شيء ،

لا شيء . انا في حبور !

فارتاح الى رضاها عن ايامها . فمئذ زمن بعيد لم يقف فيها  
على هذا الجذل الفضفاض . وراقه هناؤها فقال : هل لك بنزهة  
في السيارة ؟

فهمت : نعم ، نعم . على ان تكون سعاد الزنانييري رفيقتنا !  
ولم يكد الشهر يزوم ايامه حتى احست شادية بان فيها شيئاً  
تبدل . غير انها ما نجرات على اذاعة البشرى . فكتمتها حتى  
عن نفسها ، تضمن بها ان تضيع مخافة الاخفاق . وما انطوى  
الشهران حتى اصبح الامر يقيناً . فمالت ابنة رشاد المخزومي  
على اذن زوجها تودعها همسة تترنح غنجاً وطرباً : بشراك !  
فاستنبا بغبطة : ماذا ؟ ... هل من خبر ؟

واهتز قلبه برعشة الامل الندي . فكأنه ادرك ما تميل  
امراته الى معالنته به . قالت : لي شهران . وان صدري  
ليجيش . فلا اراني الا مكرهة على القيه !

فضمها الى قلبه وصاح في سورة الجذل : لنفرح .  
اشرفت الآمال !

واسرع الى امه وشقيقاته يبلغهن ما يبشر به الغد . فوثبت  
اليه امه تعانقه ، وتعلن بصوت جهير ، مريء ، جلا كربتها :  
ولدي ، ولدي ، لك الهناء !

وسكبت دموع الابتهاج . تحققت الامنية . وابت الا  
الانطلاق الى كبتها تطريها وتستغفرها . قالت بمستطيل المرح :  
هذا كل ما اشتهي . فغفوا عما فرط مني ، يا ابنتي !  
وأحمد طيبة القلب . ولقد ارتمت على شادية توسعها ضمناً  
وتقبيلاً ، وهي تقول والبشر يزدحم في كل عرق يختلج فيها ، وفي  
كل كلمة ترسلها : ما ابتغيت ما يرجع هذه الرغبة . فالاولاد زينة  
الحياة . الشكر لله وقد ذكرنا بنعمته . فالسماة راحمة ، رؤوف !  
واقامت في خدمة كبتها . وتوافدت بناتها الثلاث يكبون  
سين العطية . وما نسيت شادية صديقتها سعاد الزنايري .  
فباتت منها كأنها شقيقتها . وحان موعد الولادة ، فاذا الباكورة  
ابنة . غير ان الفرحة جاوزت كل امد . ومن تلد الاناث تلد  
الذكور . وسئلت سعاد عن اسم تطلقه على الطفلة ، فقالت :  
رجاء . انه لاسم واعد ، نغوم ، يمهد الى غد اشهى !  
فصاح الجميع : رجاء ، رجاء !

وانطبعت الصغيرة بالاسم العذب ، السبوح . واحتفظت شادية  
من عيد الميلاد باكرم ذكرى . وما اطلت وجهه حتى كانت توزع  
على اولاد الفقراء اكياس الملابس ، وثياب المخمل . وما توانت في  
ارتباد المعابد شاكرة ، جاثية ازاء مغارة الطفل الصبيح . ونعمت  
بضاعف السخاء ، فوضعت بعد سنة مولوداً ذكراً ، كان هتفة حنان ،



واهزوجة مثل . الا ان احمد المسكوبي لم ينس رجاء ، وهي  
ولده البكر . فخلع عليها خالص عطفه وحبه . فالدمى الجميلة  
ها . والافاويه لها . والثياب الانيقة لها . فيرفعها احمد الى كتفيه ،  
والى ظهره ، ويطوف بها البيت ضاحكا ، مداعباً ، مستطيباً كلماتها  
المبهمة ، الحلوة ، المثيرة القهقهة . وجعل من يوم عيد الميلاد  
عيداً لها . هذا عيد رجاء !

على ان ما أوجع احمد المسكوبي ، وأمرأته شادية ، اضطرار  
سعاد الى براح لبنان . فجاءها من بخطبها . وهو مهاجر زحلي  
ذو ثروة ، وجاه ، وشباب . فساء الامر شادية وزوجها ، غير  
ان طالب الزواج ممن لا يقبلون في كل يوم . انه لفلتة يضمن  
بمثلها الزمن . قالت شادية متلهفة : أترحلين عنا ، يا سعاد ؟

فابتسمت سعاد الزنانيري ، وقالت بارتجاف في صوتها : هذا  
بما لا غنية عنه ، يا شادية . فلن اقيم ابد الدهر في مسكن اهلي .  
فالانصراف مقدور !

— وهل تطيقين الابتعاد عن صديقتك شادية ؟

— ساكتب اليك حيث اكون . وكيف استطيع ان انسى ،

وقد قضيت بجانبك فسحة من غوالي العمر ؟

وحبت شادية الى زوجها نشر في مسعته : لا تنس ما علينا

حيال سعاد يوم عرسها . فاطهر ما أنت عليه من نبل وجود !

فقال أحمد : لا عليك . ستكونين على رضى !  
ويوم العرس غالى في الفخامة والمسرة . فارتدت سعاد الحلق  
البيض . وتأبط زوجها ذراعها يرفل بثوبه الأسود ، الأنيق .  
وضاق المنزل بمئات الزحليين . وسالت الحُمور كأن مياه البردوني  
تندفق في ذلك العش المنعم . وعلت الاناشيد الزحلية والبقاعبة  
من « أبي الذلف » ، و « الميجنة » ، و « المواليا » . ورقص  
الجميع « الدبكة » ، حتى العروسان . وشاطر آل المسكوبي القوم  
فرحهم . وكانت هدية أحمد وشادية لسعاد الزنانيري سواراً من  
الماس غالي البدل ، دقيق الصنعة . وقد نقش فيه : « من رجاء  
المسكوبي الى سعاد الزنانيري ، ذات المعروف والوداد » . فشاقت  
الهدية سعاد ، وضمت رجاء الى صدرها تقبلها بجنو شجتي  
وكانت الهجرة . فالزوج ذو تجارة واسعة في البرازيل .  
وسادت الوحشة منزل آل الزنانيري . فالعصفور طار من القفص .  
وتبعه الشمل . فماتت الام . وانتثر الشقيقان . وانقطعت كل  
صلة لهما بآل المسكوبي . والزمن يمحو بيد لا ترتعش ما كتب .  
كأنه يخطط آياته على الرمل . فلا إحكام ، ولا رسوخ ، ومواليده  
للزوال . فما من يوم يبدو الا وهو معول في ركن امه ،  
والبقاء محال

احمد المسكوبي ابو اربعة ، انسى وثلاثة ذكور . والانثى رجاء . بلغت العاشرة وما برح ابوها يؤثرها على اسقامها الثلاثة ، وهي الباكورة . وطاب لشادية ان يتلقى اولادها العلم في معهد الراهبات ، بجانب ساحة الشهداء . وكانت تجد فيه وفور تهذيب ، ونضج معرفة . وفي كل سنة تشاطر الاسرة بكاملها اخواتها النصرى عيد ميلاد يسوع . فتضيق سيارة احمد المسكوبي باكياس الملابس ، وبثياب المخمل . وتتولى رجاء وأما توزيعها على اولاد الفقراء .

وما تمالكت رجاء ، في سنتها الرابعة عشرة ، أن الحت على أمها في أن توزع ، بنفسها ، على عيلة فقيرة ، ثياب المخمل ، واكياس الملابس . قالت الام : ولماذا انت وحدك ، يا رجاء ، فلا أكون شريكك في المهمة ؟

فاعلنت الابنة باحتراس : هي عيلة مستورة ، يا أمي ، فلا يجوز ان يشيع امرها !  
- ومن هي ؟ ... أتري من الكياسة ان تخفي عن أمك اسرارك ؟

فامعنت ابنة احمد المسكوبي في ابداء الاحتراس والاستحياء ،

كانها تخجل من أولئك المستباحين للفاقة تهصرهم، فتوردت وجنتها  
وقالت : امي ، ألا تتسأحين حيال ابنتك في خنق هذا السر ؟  
- ولكنني اريد ان أعلم . فلا تكتسي عني وجهاً من  
وجوهك !

فاضطرت رجاء الى البيان بعدوبة الابوياء ، وارتابك الغياري .  
قالت : امي، لي رفيقة في المدرسة ترنجف من البرد . ولما سألتها  
عن معطفها بكت وأطرفت . وألحقت في السؤال ، فلم تجب .  
وعلمت من اترابها أنها فقيرة ، وان أمها مريضة ، فتبيع بما تملك  
لتلقت ابنتها العلم . وعرضت عليها ان تشاطرنى ما تزوديني من  
فاكهة ، فرفضت باباء . ونظرت اليها ونحن نبوح المعهد ، في  
فرصة عيد الميلاد، فاذا حذاؤها مثقوب، ورجلاها تعبّان الماء .  
وتعالى سعالها فادمت قلبي . فناديتها، فتوارت خجلاً مني . ولحقت  
بها فلم اقف لها على اثر . فبحثت عن منزلها وعرفت اين تقيم .  
وعزمت، يوم نوزع هدايا عيد الميلاد، على ان احمل اليها بنفسى  
أكياس الملابس ، والثياب . وحرصاً منى على انقتها لا اريد ان  
يطلع احد على محاولتي . فمن الراهن انها سترفض العطية اذا  
درت ان هناك من وقف على امرها !

فأعجبت الام بهذه الحصافة في ابنتها . فهي دليل ذكاء  
ورفق . قالت : وما اسم تلك الصغيرة المسكينة ، يا ابنتي ؟

— اسمها ندى، يا امي. وهي جميلة كالدمية، الا انها صفراء،  
هزيلة ، كأنها تطوي ايامها على جوع !

— ندى ماذا ؟ ... ما اسم عيلتها ، يا رجاء ؟

— يعرفها المعهد باسم ندى الحوراني . وتدل ثيابها، وملاحها،  
على انها ابنة اسرة ادركها الفقر ، بعد غنى ويسر !  
— ندى الحوراني ؟

وارتعشت الام وهي تستوضح ، دون ان تدري ما يثير فيها  
الارتعاش . فاجابت ابنتها : نعم ، يا امي !

فقلت جازمة بطاغي الميل الى المعرفة : اذن سيري بي اليها!  
واحست رجاء بكونها مجبرة على الوئبة . بيد انها تربت تحاذر  
الايلام . فاعلنت : أخاف أن اروّعها بكشف سترها . فقد ترفض  
الهدية اذا رأته وحدي . فكيف اذا رأتنا معاً ؟

فشددت الام في القول : ارى ان اسير اليها ويدي بيدك ،  
يا رجاء . فان عيلة هذه حالها تحتاج الى رفق وسبع . ولست  
تقوين وحدك على جبر عظمها الكبير !

فترددت الابنة في اجابة مطلب الام . قالت شادية :  
لنذهب معاً . هذه هي السيارة . فتحملنا الى رفيقتك الراححة  
بالعسر !

فاضطرت رجاء الى الامتثال حيال حاجة امها . وقادتهما

السيارة الى مأوى حقير في الخندق العميق ، بجانب معهد  
الراهبات العازاريات ، اشارت اليه رجاء قائلة : هنا تقيم ندى ،  
يا امي !

وامام المبيت الزري طريقاً مملوء بالاقذار والاوحوال .  
ودل مظهر المساكن القائمة عن جانبيه على البؤس والرثالة .  
فدنت رجاء من الباب تفرعه . فارتفع من المئوى المظلم صوت  
نخيل يقول : من ؟

وفتح الباب وبدت منه ندى . وما ابصرت رجاء حتى  
اعترتها الرعدة . وانكفأت الى الظلمة تحتجب بها . فارتبكت  
رجاء . ولكن امها شددت من عزيمتها قائلة لها : ادخلي !

ودخلتا معاً . وابصرتهما ندى فسطا عليها الاضطراب الذليل .  
شاهدتها احدى رفيقاتها في مسكنتها وغمرت من كرامتها .  
وتكلمت شادية فقالت تخاطب ابنة الكوخ بلطف ، وانس :  
لا تخافي ، يا ابنتي . رجاء حدثتني عنك . فاقبلنا معاً لنشاطرك  
بهجة العيد . اليك بما حباك الطفل يسوع !

ونادت السائق فجاءها باكياس من الملابس ، وبرزمة من  
التياب . فصاحت ندى ، والسعال يقطع عليها مجال الكلام :  
لا ، لا ، شكراً . نحن بغنى ، والحمد لله ، عن هذه الهدية .  
فلنكن من نصيب من يحتاج اليها من المعوزين !

فتعجبت شادية من الحمية البادية في ابنة لا تبلغ العاشرة ،  
واستوضحت : أتكونين وحدك في هذا المكان ، يا ابنتي ؟  
فقصت بريقها وهي نجيب : لا ، فاني اقيم فيه بجانب امي !  
واومات الى فراش مهلهل ، مبسوط في الزاوية ، وقد ارتمت  
فيه امرأة اشبه بالاموات ، لا تكاد تبدو لاشتداد الظلمة في  
المقر الكئيب . فدنت منها شادية تتبين ملامحها . فاخفت المرأة  
وجها كالمرعوب . غير ان شادية صاحت بهول : عرفتك .  
عرفتك . انت سعاد الزنانيري ، صديقتي المخلصة . يا للبلية !...  
ولكن تزوجك نديم الحوراني الوافر الثروة ، ونأيتنا عنا الى  
اميركا بامان ورغد ، فأني غاشية أملت بك ؟  
فتصاعد من تحت الغطاء احوال رهيف ، هالع : لا ، لا ،  
لست سعاد الزنانيري . انت على ضلال !

فرفعت شادية بعنف اللحاف عن الجسد الهزيل ، وأكبّت على  
هذه المطروحة في الفراش الرث تطوّقها بملء يديها ، وهي تصبح :  
لا تتكري . انت سعاد الزنانيري . عرفتك من اسم ابنتك  
ندى الحوراني . فهي تحمل اسم عيلة اييها . عدا ان صوتك ينمّ  
عليك . ألسنت صديقتي سعاد ؟ ... ألسنت صديقتي ؟

وانهالت الدموع . بلى ، هي صديقتها . صحبت زوجها نديماً  
الحوراني الى البرازيل . وقام نديم برحلة الى الغابات فقتله

للصوص ، وسلبوه امواله . وراعت الوحدة سعاد في بلد  
ليس لها فيه من تعرفه ، فجمعت ما بقي من ثروة، وعادت الى  
لبنان . واذا بها تعلم ان امها ماتت ، وان شقيقها هاجرا الى  
الولايات المتحدة الاميركية ولم يتركها عنواناً ، ومصيبتها الكبرى ،  
لدى بلوغها بيروت ، ان دهمها المحتالون ونشلوا حقيبتها ، وقد اودعتها  
اموالها وحلاها . فتولاها وابنتها البؤس والشقاء لا يهاودان ،  
وما يزالان ينعنان فيهما رضاً وتهشياً

وسالت مدام سعاد حتى كادت تذوب فيها انفاس تلك  
المسكينة . فقالت شادية ببليغ الالم ، ونبييل المكرمة : انهضي ،  
انهضي . السيارة بالباب . احمد المسكوبي لا يعجز عن اعانتك  
واعالة ابنتك . انتما منا . افقلي باب هذا المأوى ، وانطلق الى  
المنزل الرجيب ، المفتوح الذراعين للترجيب بكما !

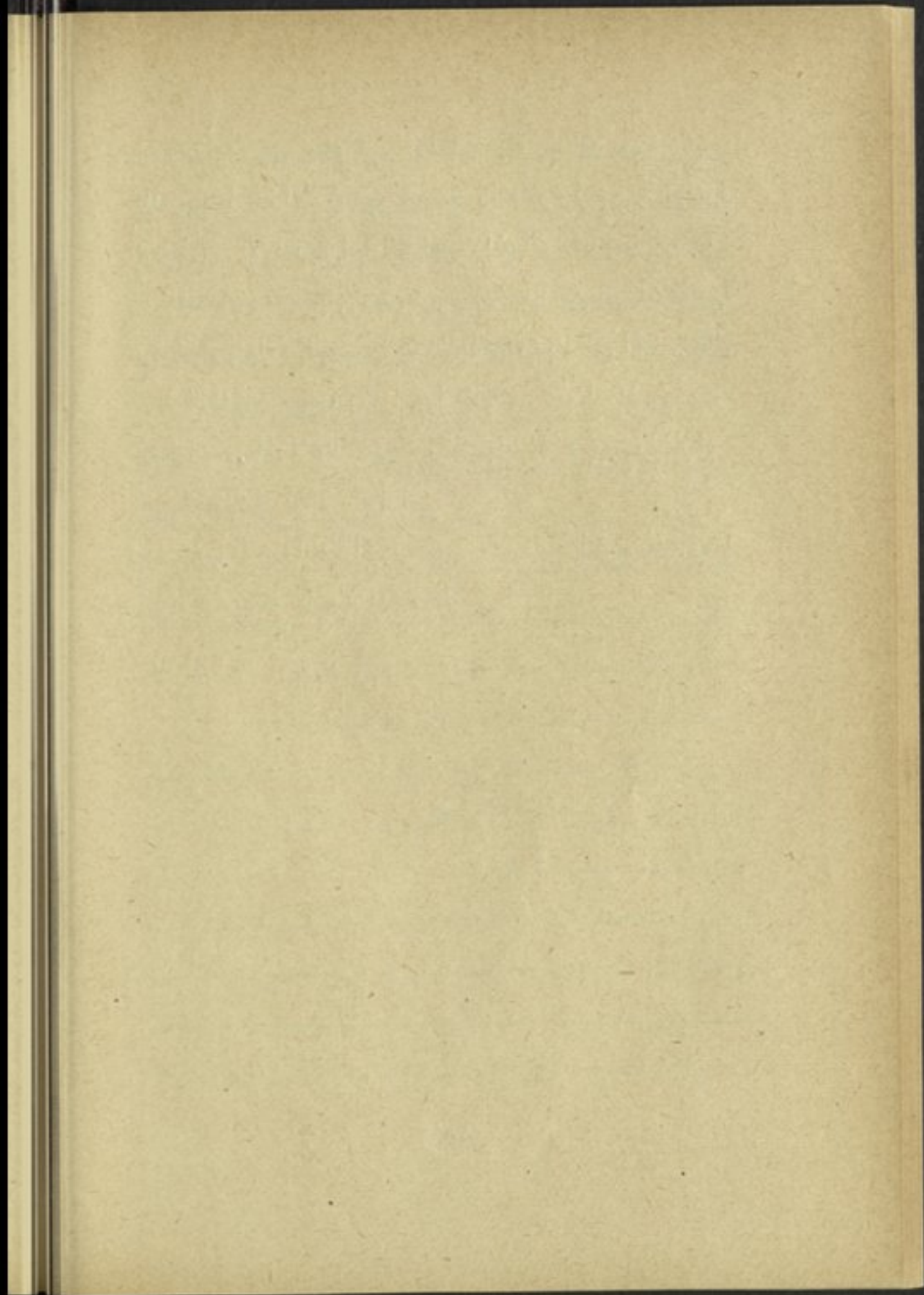
ولكن لا ثياب لسعاد كي ترتديها . فخلعت شادية عنها بعض  
لبوسها وهي تقول : خذها والتقي بها . انزل بك الكواوث  
دون ان تستنجدني بنا منها ؟

وكادت تحملها الى المركبة . وطارت ذات الدواليب بالمرأتين ،  
والابنتين ، الى دار احمد المسكوبي في محلة الناصرة . وصاحت  
شادية وهي بالباب : احمد ، احمد ، جئتك بهدية عيد الميلاد !  
وكانت الهدية سعاد الزنانيري . فانتاب الذعر احمد ، وقد



عرفها . أهذه هي سعاد ؟ ... ولكنها جثة منطلقة من ضريح .  
فقال جازعاً : واي خطب ضعضع روحك ، ايتها الطاهرة  
الروح ؟ ... ألا تدرين اننا لك اهل واخوان ، فما قعد بك عنا ؟  
فقصت عليه حكايتها وهي تنوح . خجلها من نفسها وقف بها  
عن العياذ بنداه . فليست تريد ان تكون عبثاً على احد . فقال  
بعطفه الشافي : مرحباً بك . هذا مقامك . السماء تضرب بيد  
وتجبر بيد . اني لاحلك مني ، واحلّ ابنتك ، صدر منزلي .  
نحن باجمعنا في خدمة سعاد !

وضمّ الام وابنتها الى اسرته . فان داره لتسع لهذه الهدية  
الماتعة ، ينفحه بها عيد الميلاد الرفيق



عرس في قرية

تشاءب جميل الباغي وفرك عينيه ، والنعاس لا يبرح بهم به .  
وتلفت الى ما حوله واذا الفجر بوشك ان يزحزح لثامه . فنهض  
الى مداسه الثاوي بجانبه ، فانتعله . وتأبط عصاه الغليظة ، كأنها  
جدع سنديانة هرمة . وشك في وسطه خنجره المسنون ، ومزماره  
الرقيق النغم . واندفع الى الحظيرة الساهدة ، على خطوات منه ،  
يلكز برأس عصاه ظهور خرفانه الجائقة في مباركها ، تجتاز رجة  
الليل على هدهدة النهار

ووثبت الخرفان كجيش روع في هدنته . واطلق جميل  
قطيعه في معابر الكروم والليل يللم اذياله . ومعابر الكروم  
وعرة المسلك بصخورها ، واخاديدها ، نهاشة باشواكها . تعلقو  
كالسالم من السفح حتى القمة . ولكنها سلالم معوجة ، خانها  
الانسجام ، دون ان يذهب بروعة الفطرة المتألقة في اضطرابها ،  
و كأنه دبيب طفل في باكورة الزحوف

وفيا يتوقل الراعي ، في المشارف ، حامت عيناه على بيت  
اقتعد صدرتلة نهداء . بيت متواضع أغبر ، طوقت هالة من الكلس  
الابيض هامته ، فبدا كشيخ معمم ، زاهد في دنياه . وكما  
رقي جميل مصاعد الجبل ، صرفه عن غنمه الخومان بمقلتيه على  
ذلك البيت الاعزل ، كالناسك في صومعة جرداء . وما اوضحت

الحرفان بجانب المثوى الهادي، الهاني، بوحدته، حتى انتهرها جميل .  
ولم تكن بحاجة الى النهرة، وهي المتزنة الصعدة، غير ان الراعي شاء  
ان تعلق صيخته انذاراً لمن يستقرون بالمأوى الساجي، الغفلان  
وتنفس المبيت بالجواب . ففتحت منه نافذة شقت عن رأس  
اشقر الشعر، كعناقيد الحريف، ابيض الجبين، كبلجة الصباح .  
فارتعش جميل الباغي، ووقف كالمفتون حيال رؤيا تموج بالاغراء .  
ونعشت الابتسامة الوهى في شفتيه، فتم بليان الحُجول، المتقي  
العتار، تحية البكور النبيل الفوح . فرد له التحية صوت ندي،  
كالطلّ : اسعد الله صباح جميل !

تحية بنحية . وابتسامة بابتسامة . واجتهد الراعي في ان  
يطيل الوقوف امسكاً على النشوة الطارئة . وغالب ذهنه في  
كلمات تنسي له مرجاه ، فقال : ابيكون ابريقكم بارد الماء ؟  
فاجاب الصوت الندي : الابريق مكانه على المصطبة، ينضح  
بذوب الثلج !

ومشى الى المصطبة قد اهيف ، يمشق ساقين بضتين، نناهي  
فيهما جمال الصباغة . ففارت نزوة الاكبار في راعي القطيع ،  
ودفعته الى المصطبة يسبق الى الابريق القدّ الاهيف ، المشوق  
الساقين . قال : خلي عنك . انا اعرف طريقني الى ابريق الماء !  
على ان اليدين قبضتا معاً على عنق الابريق . يد جميل ويدها .

وحاولت ذات القسامة ان تتراجع ، فلم تسعفها قواها ويد  
جميل تضغط يدها ، كالكلابة العصبية . قالت وهي تجاهد في  
الافلات : أوجعتني . أتظل مازحاً ؟ ... متى تعرف الجد ؟  
فاتسعت عيناه ينكر ما ترميه به . وقال بإيمان العابد ذي  
التقى : ناهدة ، موافقي منك لا تستروح غير الجدّ الناصح .  
واني لاربأ بنفسى ان أكون في مودتك على بليسد مزاح ، وفي  
سناك وقدة المنى !

فشدت في الخلاص من مناعة راحته الفتية الاعصاب ،  
الحشنة ، وهي تقول : دعني ، والحقّ بقطيعك . قطيعك أولى  
بك منى !

ففاض صدره بالقول الصفيّ: القطيع، وصاحب القطيع، فذاك!  
ورشح بالصدق قلبه ، ومقوله ، وناظره . وادركت انه  
جادّ لا هازل ، فعضت شفتيها ان اسكت لثلا يسمعوك . ابوها  
وامها وعمتها في المنزل . فقال بجفوة : لست أبالي احداً . انا  
اشتبهى في حبك الفضيحة !

فاعلنت بصيحة تترجح بين الغضب والرضى ، ويفلب عليها  
الحفوت : اسكت ، اسكت !

— لن اسكت الا وقد سمعت منك المعاهدة على الولاة .  
أبستطيع جميل ان يعقد عليك غده ؟

وغرر عينيه في عينها ، مستطعاً ملحماً . عرضت له النهزة  
ولن يشيح عنها . هذا اوان الجلاء . فاعلنت ناهدة بقوة تروم  
الانفجار ونخشاه : اسكت ، اسكت . اخاف ان يسمعوك  
وان يبصروك . دعني . افلت يدي !

فجبتها بالم وحدة : سارفع صوتي حتى لا يبقى في القرية من  
لا يسمع . وسأظل قابضاً على يدك حتى تراني كل عين . أتكونين  
جميل ؟ ... أجبي . أتريدينني زوجاً لك ؟

وعلا في المنزل وقع اقدام . فاستعطفت ناهدة جميلاً ان  
افلت يدي . فتلظت شفتاه بفحيح كاور : أجبي !

فهاها ان يفتضح أمرها . ورفقت عينها بالميثاق الغليظ .  
فاطمأن جميل وافرج عن راحتها . وأطل ابوها من الباب ،  
فأمال الراعي بالابريق على فمه ، يتصنع الظماً . فضحك الاب  
وقال مازحاً : أمصاب انت منذ الغدوة بهذا العطش كله ، يا جميل ؟ ...  
هل تعشيت خروفاً ؟

فكف الراعي الفتى عن الشرب ، وقال باسماً : ما حيلتي في  
ابريقكم ، وهو يغريني ابدأ بمائكم العذب ؟  
والتفت الى خرفانه ، فاذا هي تتابع المرتقى . فقال وقد  
مثل بفرحة بكر ومضت بها عيناه ، وترنح عطفاه : علي ان الحق  
بخرفاني ، فعفواً عني !

ووثب الى خرفانه السوارح في طريق القمة ، وقد ودع  
ناهدة بنظرة ، وأباها بومضة من نظرة . وما لبث ان تعالى نغم  
مزماره ، يلقي في اذن الصباح الوليد الشجو الناعي . وانساب  
القطيع في القمة يقرض الكلا الطري ، ويميل حيناً بعد حين على  
دوالي الكرمة فيستبيحها ، وراعيه لاه عنه بهواه المجتئح ، ومزماره  
الغريد

ونظر اليه فارس مقصود ، والداهدة ، في وثبته الى القطيع ،  
فقال : جميل الباغي فتى عامر القلب . فالدنيا لديه ضحكة ،  
وأغرودة ، وكأس . حفظه الله ، ومتعه بايامه !

وفارس ، في عهد شبابه ، انتفض فيه هذا المرح الحبيب . على  
ان السنين فلتت من غلبانه ، وان تكن ابقى على عزيمته .  
فلا يبرح ذلك اللبنا في القح ، العابد ربه وجبله وحرينه ، الحريص  
على السمт المطروق ، والعنوان المكتوب . عاش اجداده وأبوه  
في هذا البيت الاعزل ، المعسوب الجبين بالعمامة البيضاء ، ويأبى  
الا ان يعيش فيه مثلهم ، دون ان يفكر في بناء جدار . فما  
ورث عن أبيه ، سيورته لمن يليه . والوزنات الخمس ، تظل  
لديه خمس وزنات ، لا تنقص ولا تزيد

والعيش لم يكن يضيق بفارس مقصود . حقوله تجود عليه  
بالمؤونة . والمال ، وان لم ترخر به يداه ، لم ينضب لديه معينه .



حبوبه من ارضه . وزيته من دوائر الزيتون في المرج  
الاخضر . والحلوى من كروم العنب والتين . وفي كل عام  
يشترى خروفاً ، ويعلفه ليدبجه في مطلع الحريف ذخيرة للشتاء  
الجهم . فالقربة ، حين يدهمها الثلج ، تنكر للذباح ، وتنعم  
بالدهن المصفى في القوارير . ومع يقين فارس مقصود ان  
القناة كنز لا يفنى ، تشهى امتلاك الثروة الدفاق ، ليسلو لبعض  
الزمن حياته الواحدة الوزن والقافية . وعرف الغيرة ، وهو  
يبصر بفتة من ابناء قريته تعود من المهجر ، وفي راحتها حففات  
النضار . وفكر في الاقتداء بها ، ولكن بعد الاوان . فلم يبق  
في الاجل ما يرجع ما نفذ منه

غير ان ما أصيب به فارس مقصود ، سيمنع عن ابنته اذاه .  
ناهدة خميرة البيت ، ومعقد الرجاء . فهي وحيدة ، وقد مجل  
على والديها الزمن بسواها من الجنى . الا انها في القربة وجه الكومة .  
زهرة لم تحفل بمثلها الضمة

وفي سبيل ناهدة ، لم تنقطع الحرفان عن الالتفاف ، صباح  
مساء ، حول البيت الاعزل ، الجاثم بمفرق الربوة . ولم يبرح  
جميل يسأل عن الابريق الغافي على المصطبة ، ويسكر بشدو  
مزماره ، المخمور النغم ، الاشجار ، والتلال ، والادوية ،  
والقطيع

وكلما عرّج في المساء ، على ناهدة ، حباها بما قطفت ، في جولة  
نهاره ، يده . فيحمل اليها اقراط الحصرم ، ولها يسيل اللعاب  
تشهياً . فعناقيد العنب ، المنظومة كالقصائد الغيد . فالتين الملوّن ،  
وفيه ينزو بحبة قلبه . فالزعرور الاحمر ، كالاظفار المخضوبة .  
فكروز الصنوبر الحضر ، العجر ، اللدان

وبحث الراعي الفتى عن المال ، بعد ذهوله عنه . فتمثل يومه  
الانور ، وقد عقده له على ناهدة مقصود ، وأعد له العدة .  
سبيح خرفانه بشن ربيع ، وبشتري سواها بمبلغ سمح ، ويجزّ  
صوفها ، ويعرضه على الغزالين ، وربات المنازل ، لحشو الوسائد  
والفرش . ويتقاضى البدل ويحشده في جرة تنبطن الارض . فالجرة ، في  
القرية ، ملجأ القرش والسحتوت

وحدث الفتاة عن مناه . سبشتري منزلاً في الضيعة ، وينقطع  
عن رعي الغنم . حسب الانجار بالحرفان واللحوم ، حتى اذا ما  
تزوج ، فلا تحجل به ناهدة في معرض الفخار  
وشعر بأن الحب على هناهته قيد صليب . ولكنه رضي به  
على قسوته . الا ان ثمة من لم يرض ، وفي القرية من طاب له  
تعكير الصفاء . والناس كتلة من حسد ، وغيرة . فكانت  
وشوشات على خلوة . تلتها بجاهرات ملء الاسماع . اين جميل  
من ناهدة ، وهو راعي غنم حقير ، وهي ثروة من حسن ومحمدة ؟

وانسابت القواصم الى اذن فارس مقصود. وفارس متشامخ،  
غضوب . فرقص شارباه . وبرقت عيناه . وصاح بنفرة : لا،  
وابيكم ، ليس لجميل عندنا لقمة !

وتسلق الصومعة والحقد في صدره ، والجهامة في وجهه .  
وتناول الابريق، الحالم على المصطبة، وحطمه في عريضة منكرة .  
فاسرعت ناهدة تتبين اثر الصرخة والقضضة . وما بصرت بابيها، حتى  
تولاها جمود راعب . هل جنّ ؟

وشاءت الكلام استيضاحاً . فخنق ابوها في صدرها كل نامة،  
وقد علا صوته ناخعاً ، دفاق الزبد : فضجتي، يا ملعونة الطلعة،  
بمسيرتك جميلاً الباغى الوضع النشأة . ولكن اباك ليس بمن ينامون  
على الهضبة . والله، لاقطعن رقبتك اذا عدت الى مخاطبة جميل  
بكلمة ، بايماة !

وكشراً عن نواجذه الكوالح . وهدد بقبضة يده . فوقف  
الدم في عروق ناهدة . اي انقلاب طراً على ابيها ، فأمال، من  
جانب الى جانب، الكفة الراجحة ؟... قال الاب ، وهو لا  
يبرح في فورة الغضب : جميل لا يليق بك . ان هو الا راعي  
غنم زري . والقربة كلها تلومني في رضاي عن مساقطكما  
الاحاديث . فامنعي عني الانياب العضاضة ، وقاطعيه . انت  
خلقت لمن هو اعلى شأناً !

فعرّ عليها ان يموت حبها الطير، دون ان يقوم من ينعاه.  
واحست من نفسها بكونها في معرض الدفاع عنه ، فقالت  
متجاوزة تهديد ابياها : ما بك تبدلت ؟ ... أعرفك محباً لجميل ،  
راغباً في مكالمته !

فانفجر كالاطلاقة : انا ؟... لا قصفنّ عمرك . ادخلي المنزل .  
لقيت الحبيبة . لا تقفي ثانية واحدة امامي . فليس يخفى عليك  
ما يكون مني في نزوة الغضب !

وغضبه تخيف . وعند ناهدة منها جليّ الخبر . فما تزال  
تذكر كيف قبض ذات يوم على غدائر امها ، ورمى بالمسكينة  
من السطح الى حقل التوت . ولو لم تقع على اكداس الشبح ،  
لتحطمت اذالها . ولكن حظها شفع فيها ، فهوت على موطن رفيق  
ولن تنسى كيف حطم هذا الاب مرآتها ، وقد اطالت اليها  
الوقوف . فغاظه ان تهيم ابنته بالجديد ، وان تخرج عن زهد  
السلف ، فاهوى بمدقة الجرن على المرأة ، ونثرها سظايا برّاقة ،  
شائكة وناهدة لا تملك الجرأة حتى على البكاء

والآن ، وقد فار فائره ، فانها لتخشى مصادمته ، لئلا ينالها  
منه ما يؤذيها . فدخلت المنزل وهي ترتجف ، كورقة الخريف  
الساقطة الهمة ، حيال الريح الرعناء . وشكت امرها الى امها .  
فاكتفت الام بان تنوح . ووسعها لا يعدو هذا الأمد !

قضت ناهدة ليلة موصولة الاطراف بالنشيج . فأرمد عينها  
 حكم ابيها عليها . ودبت الى النافذة ترقب جميلاً يزقها اياه مبسم  
 الصباح . وظهر الفتى ، في المنحدر ، يسوق قطيعه الى القمة ،  
 وعيناه على كوة عودته ابنة فارس مقصود ان تطلّ منها .  
 وانبسط في معارفه البشر . سيرى من يجد في هواها نعمة ، وفي  
 رضاها رحمة . فتألمت ناهدة للنكبة المنقضة ، وساءلت نفسها :  
 أتبدو لعينيه ؟

وارجعها ان تقلقه ، وما درج الى مأثم . ولكن ألا يرصدها  
 ابوها ؟ ... وتنهدت جزعاً ، وهي تفكر في هذا الاب الغشوم ،  
 محطم المنى الابكار . وكان جميل قد اندفع الى المصطبة ، ينادي  
 ناهدة . فكادت تجيب . غير ان اياها طفر الى الباب يشقه ،  
 وجرجر بصوت نفور ، خادش كصير المنشار : ماذا تريد ؟  
 فجرحت النبوة الحشنة اذن جميل . ووثب فوراً الى ذهن  
 الفتى ان الاب حائق ، وهو البرطام . وألمت به الظنة ، فنفضها  
 منه وقال ، ولكن برعشة من ارتباك : اريد شربة ماء !  
 فجبهه فارس مقصود بسخرية ذات انياب : الايريق المعهود  
 اعطاك عمره . حيائك الباقية !

فحزّت في قلبه اللهجة الممضة. وتعجب من هذا اللقاء البغيض.  
فأي انقلاب طراً؟ ... وناءت كتفاه بالحبيبة، فكاد ينصرف  
وليس في اعصابه قوة تسعفه في السؤال عن ذات السني. ولوى  
وجهه على استخذاء، وتولته هنيهة من وجوم. الا ان حبه القلق  
اكرهه على الاستيضاح: واين ناهدة؟

وافلنت سؤاله شفتان يحشرج فيهما الاداء الحشيان. فاجاب  
فارس مقصود بحدة النقمة: ناهدة تنعم بغفونها. فما شأنك  
فيها؟ ... حذار ان ترعجها بعد اليوم بنظرة!

ونضت لهجة فارس مقصود عنها كل رفيق واحتراس. فارقاع  
جميل. واحسن بالدوار يرين عليه. وتراجع على اكفهرار. ولكن  
ابن ناهدة؟ ... فما يزال يرجو رؤيتها لاستطلاعها امر النازلة

وناهدة امسكت على احتجابها الصفيق، وليست تجرؤ على  
الظهور. فحقق لبّ جميل الباغي بارتماض، كأن به نهشاً من  
حمى. وحباً الراعي المكلم المبهجة الى الحرفان حزيناً، ساهماً،  
لا يكاد يبصرها. فالوساوس اختببت في ذهنه الامل البشوش.  
بيد ان جميلاً لا يبرح على رجاء، ولكنه رجاء غشته رفاقة من  
فاحم الرماد

وانقضى عليه نهاره وهو يسائل نفسه عما طراً من رزيئة بددت  
معالم الانس. ورقب المساء، بحرقه الظمان، ليدفع قطيعه في

اطريق الصومعة . بل هو استعجل الموعد . فما لاحت ناهدة  
ناظرية . هناك فارس مقصود وحده يتحفز للعض ، كالمصيبة  
المهددة . فارتعد جميل ، وشعر بقلبه ينعصر . وخشي ان تزل  
به قدمه لقرط الارتباك . وأبى ان يلتفت الى فارس يحببه .  
ولكنها عادات القرية . فغمغم وصوته يحرق شفتيه المنتفختين  
حرداً : مساء الخير !

وهوى في المنحدر لا يرقب جواباً . فردّ فارس مقصود  
التحية بزجاجة تنضح بالوعيد . وسمعها الراعي فانتفض غاضباً  
للكرامة . فالصدمة سلخت من اساريره كل زهو ومرح . فقام  
على جبينه العبوس ، واستيقظت فيه القسوة . واخذ ينقضّ عفواً  
على خرفانه بالعصا يهبجها بها من يد لا تلين . وساوره خجل من  
اخوانه . أينبذه فارس مقصود ، وتعفّ عنه ناهدة ؟ ...  
يا للفضاضة الصافعة في القرية الفضوح !

ومالت الخرفان عن طريق الصومعة في نهديتها الى مفرق  
القمة . فشقّ لها راعبها الانوف ضعيداً لا يطلّ على بيت فارس  
مقصود ، وقد كره الفتى مرأى وجار الثعالب المقيث . بيد انه ،  
لا يكاد يبلغ الروانس ، حتى يجتال على نفسه ، ويجلس القرفصى  
وراء صخرة تشرف على مئوى ناهدة . وما ان تبدو ابنة فارس  
مقصود ، على المصطبة ، او في حُكرة التوت ، او على السطح ،

حتى يتأوه جميل وتندلع أشجاناه . فالحب في صدره لا يبرح على سعيه  
وماجت القرية بالنبا . فارس مقصود أزاح جميلاً ، واضحت  
ناهدة طليقة اليدين . من حق كل طالب ان يلتفت ملياً الى جلوة  
الطلالة فيها ، وان يتشهى ، ويتمنى . فقد لان باب المحراب العصي .  
وفي ساحة القرية ، اذاع فارس مقصود ، بنفسه ، النبا الصارخ .  
منزله اضحى على جميل الباغي الحرم المنيع . فليس للراعي أن  
يدوس منه بعد اليوم العتبة . فانتعشت ، والكلام يُلقى ، آمال  
مكبوتة . وحامت على فارس مقصود ابتسامات لم يكن له بها  
سالف عهد . بيد ان فارساً ، يريد لابنته سعادة وارقة ، في عش  
خميل ، ولا يضمن الطلبة سوى ذي مال ثري

وفي القرية ابن خمس وخمسين ، ما يبرح اخضر الصبابة على  
جفاف عود . هذا سعيد غانم ، الملقب بالاميركاني ، مضرب المثل  
في الوفر . أشاح عن خيرات المكسيك بعد ما ملأ منها وطابه .  
ورجع يتفياً ، في اعالي لبنان ، ظل السنديانة الشموخ . على أن  
حفنات النضار ، الثاوية بجرايه السمين ، لم تنزع من جسده طابع  
مشقات الهجرة ، الكاوية يديه ، وكتفيه ، وظهره ، والبارية قدميه ،  
دون ان تهدب فيه خشونة الفطرة ، وجفاء السجية . فاقبل في  
نزقه وسمله كما ادبر . وهذا هو بمنطقه ، وشحه ، وجهله ، كأنه  
لم يبرح القرية الى بلد جلته الحضارة ، وصقله العلم



كان يرتدي الثوب الغليظ ، رقعة على رقعة ، وما يزال يرتديه  
على رقاع في رقاع ، كالمملق الزري . رحل وكوخه متصدع  
الجدران ، رث الاخشاب ، وعاد الى الكوخ نفسه ، يرفد تحت  
السقف الاسود الاديم ، النفثات التراب ، وينزوي في شبه حفرة ،  
أضحت اعشاشاً للعناكب والفئران

واكتفى من الرياش بطنفسة حمراء نصل لونها ، وتطير  
زغبها ، وبصندوق ضخم حمله من اميركا ، وشحن فيه ثيابه  
وثروته . وما ثيابه ؟ ... رداء اسود اللون ، عرف الكمي  
يوم خياطته ، مرة واحدة في العمر . وقبعة دكتاء ، مترامية  
الاطراف ، جرباء ، انتشرت فيها بقع الزيت ، كأنها من بقايا  
السلع الكاسدة . وحذاء يحتاج الى نظر حاد ليبدو منه انه كان  
لمتاعاً ، وما عرف ، منذ شرائه ، ماسح احذية

وشاق سعيد غامم الزواج بناهدة ، وقد رسخ في ضميره ان  
هذه اللؤلؤة لهذا الحاتم . ومن يصدّه عنها وهو يزن ثقلها ذهباً  
باهر اللمع ، عذب الطنين ؟ ... كفة بكفة . وقد تكون  
قبضات الذهب أرجح مثقالاً . وربما كان فارس مقصود يفكر  
في ذلك الرث البردة ، الوارم الكيس ، وهو يعدّ ابنته لغدها .  
فما جاءه سعيد ، يحدّثه عنها ، حتى وهبها له طفاح البيدين  
ودعبت ناهدة الى ابداء الخضوع والانحناء . أمة في حضرة

المولى . فارورة بيعت لعطار . وابنسم سعيد غانم ابتسامة  
التيه . « السنيوريتا » ناهدة بانت ملك يمينه . وكان يستطيب  
ان يخلع على ناهدة لقب « سنيوريتا » . فأين اضاع ايامه ؟ ...  
ألم يكن في بلاد المكسيك ؟

وجنح الى العجلة في عقد القران . ولماذا التأني والامر قد  
أبرم ؟ ... ثم هو خاف ، بعد طول فعود عن الهوى ، ان تفوته  
النهزة ، فجدت في التشمير لها . ليسرع في نهش قرص الحلوى  
بملء طواحنه ، وليتمتع بالذادة على مدة ذراعه . بعد اسبوع  
سيترزوج . وهذه امواله . فلينحدر فارس مقصود الى بيروت ،  
وليأت منها بكل ما تطيب نفسه من مأكل ، ومشرب ، واثاث .  
فالصندوق المقلل بألف مفتاح ، المسدود الثقوب بالف خرقة ،  
وقدحات عليه الحشاشة ، تحجبه حتى عن اهداب النور ، ستفتح  
ابوابه لفارس مقصود رحبة طليقة ، فليكشط عنها العفن ،  
وليفرف ما يشاء .

وانحدرا معاً الى بيروت ، وقد ضربا موعداً للزواج . فلا  
يعود « الاميركافي » ، من جولة الاستبضاع ، حتى تنزف اليه  
ناهدة . وليتحطم قلبها . وليمت املها . صندوق سعيد غانم خير  
ضمان لهناؤها ودفئها . فلتترقد بجانبه وهو المشتعل بالنضار  
الوهاج . غير ان ناهدة كانت ترى ، في هذا الوهج ، برودة

دونها الزمهرير . وودت الفرار من بليتها . والى ابن الفرار ،  
وفأس فارس مقصود ، ونقمة ، بالمرصاد ؟  
ووقع النبا في مسع جميل الباغي ، فكاد يجن . وثار فيه  
حبه الموتور ، فاستجار بجنجره . لن يتزوج « الاميركاني » ناهدة ،  
ولن تشهد القرية عرساً ، بل مائماً ، تتساقط فيه جثث اربع .  
فيقتل جميل ناهدة ، واباها ، وسعيداً ، ثم يقتل نفسه . وحقده  
على فارس مقصود أشد منه على الجميع . فاعتزم ان يخنق بيديه  
فارساً ، ويستل لسانه الحِيث ، ويفقأ عينيه اللاذعتين  
الا ان الثورة الجارحة ، عقبها فتور رشيد . لماذا الجنون؟ ...  
أينحضب القرية بالدم لاجل فتاة لا ترتضيه؟ ... وجمع بعضه على  
بعض ، وارتأى براح منبته بكبده النخرة ، وامنيته المفلولة .  
بلاد الله واسعة ، ولا بد ان يجد فيها حفرة يودعها هواه الطليل .  
وتحامي ان يودع اخوانه . فالحجل يكسفه . والشماتة تروعه .  
وليس يقوى ان يجبه سخريه العيون  
اجل ، سيرحل الى حيث ينسى . وداعاً ايها القرية المملأى  
بالذكريات النواضر . ناهدة ليست عقدة الامل ، ومبعث الحياة !

الحُبز في التثور تلة على تلة . ودق الكبة كالأهازيج ،  
 كلاهما يتوالى . ورقص « الدبكة » حلقات تلو حلقات .  
 ومزامير القصب تطلع بشجي انغامها ، فيثور لحنانها القلب الحلي .  
 والعرق يملأ الكؤوس . وشرب الانخاب ، كسبيل جحاف : حباً !  
 - صحتين !

وناهدة على دكة عرسها مثلها على مرتبة نعشها . ورقة خريف  
 صفراء في متناوح الريح . تفكر في ساعة زفافها برعب يطغى  
 على وجهها ، فيخزيه

وشكت جوارحها الظلم . انها لضحية مقهورة . وانتفض في  
 ضميرها سعي جميل لانقاذها . تراءى لها انه سيشتق اليها الجموع ،  
 وينتشلها من انياب الذئب . ولكن جميلاً ناقم حاقد . أيديري  
 انها مغلوبة على أمرها ، وأنها ليست ذات رأي في الانفصال  
 عنه ؟ ... الانفصال عنه ؟ ... الموت اسبق منه الى خاطرها !

ودار بها غشيان البأس . فهي في ذهول عن نفسها . وقد  
 تكون تملك فضلة من معاندة ، نفاضة من ثورة ، الا أن فأس  
 ابيها ترهبها . وهي ، مع خشيتها الفأس ، تحاذر ان تستفز اباها  
 الى ما يفضحه في قومها

والعرس ، في القرية ، هو العرس . ففي الفرح نشوة للجميع .  
وعلى مقعد ، تجلله الطنافس ، حُملت ناهدة الى بيت سعيد  
غانم ، البعيد عن القرية بعد الصومعة عنها . فالصومعة في التلة ،  
وبيت « الاميركافي » في السفح . كأن العرس الجامع عقد بين  
القصبتين

وصبّت قماقم ماء الزهر ، وماء الورد ، كرائمها على العروس  
الغارقة في رزيئتها . وادهش ناهدة أن تصاب بقلبها ، وتظل من  
الحياة على رمق . فاشتت الموت وأقامت منه على أهبة . فلن  
تعيش في كنف من اصطفاه لها ابوها ، وما خلقت لتعيش فيه .  
وأطاعت في كل ما دعيت اليه . ودخلت بيت سعيد غانم وهي  
في سهو حجب عنها كل ما يمثل حولها

ووقف سعيد بباب المربع يرحب بالامنية الطالعة . والمربع ،  
لديه ، اشبه بقاعة العمود في قصر الامير بشير . وله بجانب المربع  
مسكن آخر ، هو القبو . ولكنه على مسافة محتشة . وفي القبو  
الطبخ والنفخ والخدمة . وان يكن المربع الاسود الاديم ،  
الرث الاخشاب ، لا يليق بعرس مشرق الصفحة ، فالقبو يكاد  
يكون في حقارة زريبة للخنازير

وانصرفت القرية عن العرس في مغرورق العتمة . وخلا المربع  
لسعيد وناهدة . دبّ حبال مهاة . واقامت حفنة من النساء في

القبو ، حول والدة ناهدة ، عاكفات على طعام البكارة يعددنه  
 بغبطة وعناية . ودنا سعيد من عروسه اشبه به من متعة اكترها .  
 هذا اوان اللدوى . وامتدت يد « الاميركاني » الى معصم ابنة  
 فارس مقصود . فاستيقظت ناهدة من نيتها ، كأن حشرة لسبتها .  
 ونفضت منها اللسمة وهي تقول برهبة : دعني ، لا تمدّ اليّ يداً !  
 فابتسم ابتسامة تمّ على ازدراء ، وقال : خففي عنك . لماذا  
 الممانعة ؟ ... أصبحت لي . والعناد بات لا يجدي !  
 وشاء ان يضمها اليه . فافلنت منه وهي تصيح به : مكانك .  
 أسأت الاختيار في زواجك بي . شقيت وأسقيت !  
 فتعجب من منطقتها الجافي . ووثب عليها يمسك بغدائر شعرها ،  
 ويجذبها الى صدره بعنف ، وهو يقول بغيظ : أما حكين ؟ ... ولكني  
 اشتريتك بما لي . اذا أبيت الطاعة على رضى ، امتثلت على كره .  
 لا يغرّتك مني المشيب ، فلا ابرح بقوة الشباب . تعالي !  
 وجرّها الى السرير ، وقد اندلع من عينيه أشرّ السلطان .  
 فهاها موقفه . وتولاها ذعر جائح . واجتهدت في الافلات منه  
 واقصائه عنها . فرفعها بين يديه بقسوة . وضرب بها السرير قائلاً  
 بحنق : عنادك يكلفك حياتك . أطيعي والا جعلت من عرسك  
 مأتمك . أول الطريق ولا كله . هل سمعت ؟  
 فهفت يدها الى صدرها . وتناولت منه منديلها وقد عقدت

طرفه على مسحوق أغبر . وحلت العقدة في ما دون اللحظة .  
ونفضت في فمها المسحوق بخفة . وابتلعت في غصة نائمة ، «الاميركاني»  
واقف حياها غابساً ، حائراً في ما تصنع . فصاحت به وقد ومض  
الظفر في عينيها : لن تنال مني منالاً . لست اريدك . هذا منقذي  
منك اعدده ليوم خلاصي !

وتعالت نبرتها . فادرك انها تناولت سمّاً . وانقض عليها يمك  
بخناقها ويكرها على القيء . فليس يريد لها للموت بعد طول  
علالة . واذا الشباك السقيم ، النابي به وصاده ، المطلق على دوارة  
التوت ، يتطاير كأن عاصفة تقتلعه . فالتفت سعيد غائم وناهدة  
باعين جاحظة . وملكهما الرعب ، وقد ابصرا جميلاً يثب عليهما  
شاهراً خنجره . غير ان ناهدة لم تلبث ان استطابت المفاجأة ،  
وبها يلتصق خلاصها . فلم يرمقها جميل الباغي بنظرة . كأن سعيداً  
هدفه الاوحد . فظفر اليه يصيح به بمقعد ذميم ، ناتيء العين : يدك  
عنها ، ايها الجلف !

ففتح سعيد فمه رعباً ، وتراخت يده عن عنق ناهدة . ووقف  
مشدوهاً كالمصاب بالشلل ، وقد عدم النطق والحركة . وعبث  
به خنجر جميل الباغي . فشك في قلبه لا يفسح له في شهقة .  
فهوى في الارض ، وفمه على فتحة الذعر ، ووجهه على كمدة  
الحية

ولم يحفل جميل بالجنة الهامدة ، ولا كلف نفسه انتزاع الخنجر  
من مثواه ، بل مال على ناهدة يقول بحماسة المنتصر ، وعجلة  
المتقي: انهضي . انقذتك منه وانقذت نفسي . جئت لاقتلكما معاً  
قبل هجرتي ، الا اني ايقنت ، وقد سمعت من وراء النافذة بعض  
حديثكما ، ولاح لي موقفه منك ، انك مقهورة فيه . انهضي ،  
ولنرحل معاً . غداً نركب البحر الى العالم الجديد !

والى ابن ترحل ، وقد تناولت طعام الفأر ، سماً تخلع به  
عنها عبء الحياة ؟ ... فالموت على امد انملة منها . وبانت لا  
ترجو ، وهي على يقين من منيتها ، الا ان تنقذ من تهوى من  
شر العقاب . وشاقها الفداء ، فانغمست فيه . وتكلفت النعمة  
تجبه بها جميلاً ، وتكرهه على الفرار . فصاحت به ، وكل ما  
فيها على رجفان : أنقتل زوجي ، وتريدني على اللحاق بك ؟ ...  
ارحل . لا تقف لحظة واحدة على مرأى مني ، والا ملأت القرية  
صراخاً للقبض عليك !

ومشت الى الباب تتظاهر برغبتها في فتحه ، وطرح الصوت .  
فارتاع جميل ازاء ما يلوح له منها ، واعول : ماذا تفعلين ؟  
— ماذا افعل ؟ ... أتلطخ يديك بدم زوجي ، وتفرض عليّ  
السكوت عنك ؟

فباله تناقضها . كانت تكره سعيداً كئلة من حياة ، فاذا



بها تغار عليه جثة بلا روح . وارتعش جميل الباغي ، تجاه عزمها  
على الاثثار لبعلمها المضرج بدمه . وتراجع خائفاً ، مضطرباً ،  
والجثة المبسوطة حباله ، على مداها ، تزيد في رعبه . فاشارت  
ناهدة الى النافذة المحطمة ، وهي لا تبرح في صياح ناغم : ارحم  
نفسك واركن الى الفرار . الى الفرار . والا دعوت القرية  
الى ذبحك !

فامتثل كالعبد المهين . وتوارى ذليلاً كالجبان ، لا يجرؤ حتى  
على الالتفات الى الورا ، وقد انتزعت منه ناهدة ، بانقلابها عليه ،  
صلابته ، وهدمت بأسه . وتبطن الليل ، واشباح ابناء القرية  
ترف في عينيه ، وتهديد ناهدة ينتفض في عروقه . وكلما تقدم ،  
خيل اليه ان وقع الاقدام يقترب منه ، وان الجميع جادون في  
اثره . وتمثل نفسه بعض ساعديه الحديد ، والسجن يغلق عليه ابوابه ،  
والشماتة والسخط يهويان عليه دراكاً . فدهمه الروع . وحث  
على النجاة خطاه المرنجفة . وتولت كسفة الندم . فهو قاتل مجرم .  
ولكنه ، وقد سفك الدم ، فلماذا قتل سعيداً ولم يقتل فارساً؟ ...  
فارس هو الاثيم . لبته اودى به !

ووقفت ناهدة الى النافذة تنظر اليه في فراره . وابهجها  
انقاذها اياه من هول ما يرقبه . فالجرمة ليست في دمه ، وقد  
حمل عليها . هواه المفلول اهاب به الى الانتقام ممن سحقوا لبه

وآثرت ابنة فارس مقصود وقوع خنجره في صدرها ، على  
اجتياحه قلب سعيد غانم . فما ذنب سعيد ؟ ... وغماسكت على  
فتكة السم ، تتجلد على الألم الناهش ، ولا تبيح لفمها أنة .  
فتلوى والسم يمزق احشاءها ، كأنه باجمعه انياب قاضمة . وما  
اذنت في صيحاتها البواكي ، الا وقد تلاشى ، هناك ، في غابة  
البلوط ، وقع خطوات جميل في مسمعها . فايقنت انه بات  
بأمن من عبث النائبات . وأعادت ، بجهد يتفقت منها ، خشب  
النافذة الى وصاده ، اخفاء لاثر الملمة . وهزت الليل ، في رفته  
الهائنة ، يلطمه بليغ شجاها

واعولت في الصراخ المصيبة . وركضت النساء ، المعتكفات  
في القبو على الطعام ، هالعات ، وقد تعالى فيهن الصباح  
والاستيضاح . فدبت ناهدة الى الباب تفتحه ، وليست تملك القوة  
على البيان . فاكتفت بأن تشير الى الجثة . وانطرحت في الارض  
تخنلج ، وتنقصف كالحية على النار

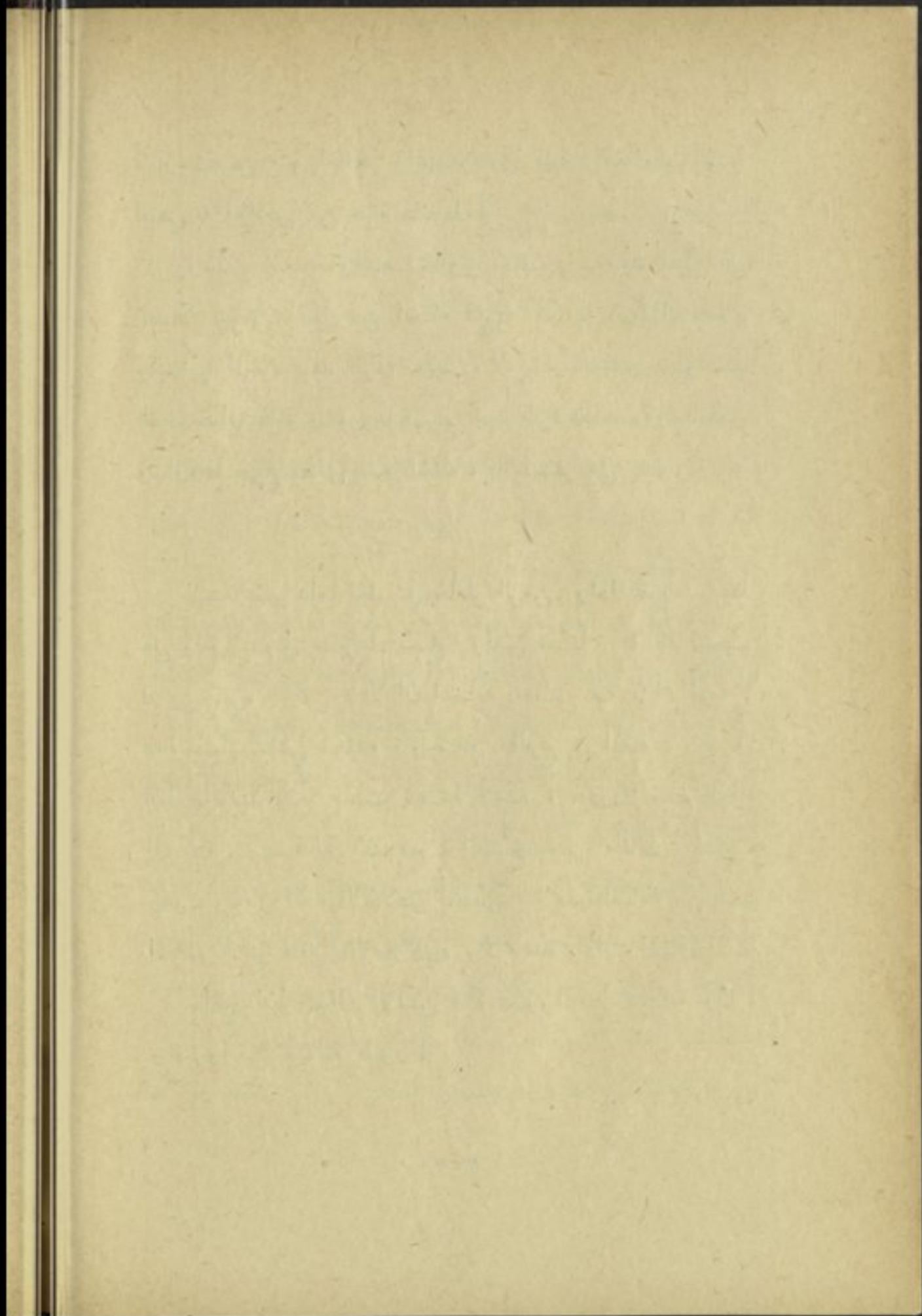
ولاحت جثة « الاميركاني » للنسوة ، وقد غارت في كبدها  
نصلة الخنجر . فماد بهن الذعر . ولظمن بولولتهن وجه القرية  
الهاجدة . وبين مزدحم المناكب ، ورعب العيون الجاحظة ،  
استطاعت ناهدة ان تغالب لسانها على القول : سعيد غانم اكرهني  
على ما لا تشتهي نفسي . هددني بخنجره يروم القضاء عليّ ،

فانتزعت من يده الحنجر واغمدته في قلبه . وتناولت السم  
ابتغى به الخلاص من حياة قنوط !

ورشقت عينها والدها فارس مقصود ، وقد اقبل على  
الصائحة في من اقبل من ابناء القرية ، ترميه بتبعة الفاجعة .  
واستلها الموت ، بعد طول تعذيب ، لا يبالي العقاقير . فوجمت  
القرية حبال ما ترى ، وما تسمع ، متنكرة للفاجعة الناخعة .  
وساورها جزع يطغى عليه الشك ، فلا يستقر على يقين

\*

خمس عشر عاماً تغفو في خاطر الزمن . واذا القرية تستيقظ  
على نواح شيخ في مقابرها . شيخ ، وليس مستناً . فالايام نسجت  
له من شعره الكفن ، الا ان اعصابه دحضت فيه مزاعم ايامه .  
هذا جميل الباغي ، بقده ، وجدده . تماوج في اذنيه ، وهو في  
العالم الجديد ، ما بذلت ناهدة لاجله ، فادرك مبلغ الوفاء  
الركين . وهفا الى الضريح ، المضمخ بعطر الحفاظ ، يبكي ،  
وهو ينوء بارزائه ، الاخلاص المصقى ، ويجلو الغمامة عن السر  
المكنون . هو قاتل «الاميركافي» ، لا ناهدة ، ذات الميثاق المنيع  
سامح الله طوال اللسن ، كم هصرؤا من صبابة ريتا ،  
وعصروا من حشاشة طهور !



ذلفاء، افت الصقور !

مزرعة الشوف ، الغارقة في البداوة حتى ناصبتها ، الصلبة في  
صخرها وهوائها ومائها ، الواقفة في الشوفين وقفة التحدي إزاء  
قرى المختارة ، وعين فني ، وعين ماطور ، المنجبة الغيارى المندفعين  
في الشدة كالسيل الجراف ، صورة ناطقة للقربة اللبنانية الصرف ،  
ومثال حيّ لهذه الاوكار المشيدة في الصرود ، وكأنها احراز  
حراز ، صوادق المنعة ، لم تنحرف بها الحضارة عن الطابع الاثيل ،  
وما تفتأ تعيش بعفاساتها واوبارها

وما مزرعة الشوف ؟ ... بلدة لا نظام فيها ، وقد نبت عن  
كل نظام . فكان منازلها تدحرجت من القمة الصلعاء ، الى  
روائس الوادي . صخور هوت عن مرابضها ، فتبعثرت في كل  
صوب . فلا روعة في البناء ، ولا قاعدة في الرصف . بل فوضى  
تتنكر للرونق والديباجة . على ان الاقدام يطل منها عارماً ،  
فيأحاً ، وللمزرعة من ساحتها ميدان لقوة الأعصاب . فمن أجران  
يرفعها ذوو القدرة الى ما فوق رؤوسهم ، إلى مقابضات تلتوي  
بها السواعد الحسيرة ، الى أهداف يثقها الرصاص السديد

وفي ذلك النهار ، من سنة ١٨٤٢ ، وقد تحطم مقعد الامارة  
الشهابية في لبنان ، وهوى الأمير بشير الثالث في أثر الأمير  
بشير الثاني الكبير ، تصاول شبان المزرعة المغاوير في رفع جرن

ضخم ، مطروح في ساحة القرية باعتزاز . والمزرعة على شطرين .  
في قمتها الدروز ، وفي صدرها النصارى . غير أنها لم تكن ذات  
لونين في الدين . فالنصارى والدروز على مودة . ولم تشعر  
بأنها على انفصال في سوى طابعها السياسي . فهي في السياسة  
قبيلان ، يزبكي وجنبلاطي

واحتشد على الجرن ، الراسخ في كبد الساحة ، ذوو السواعد  
المفتولة . ينظرون اليه بخشية ، وپرورونه بعيونهم المحترسة ،  
اليقظى . وتنحى من أحس في نفسه بالضعف . فلن يقدم على ما  
يخجله . واستقر بالمضمار ثلاثة . جرجس خالد ، وقد صاحت فيه  
القوة الهازئة بالويل . وحسين نجم ، وقاسم أبو عين ، وهما بمن  
صلبت عضلاتهم ، واستطالت على الحديد تغمزه وتلويه

وقبض جرجس خالد على الجرن ، ورفع بهزيمة قاهرة إلى  
ما فوق رأسه ، ثم أهوى به ، ليعود فيشيله ، ويمسك به دقيقتين  
مرفوعاً على مدة ذراعه ، وعروقه تكاد تنفزر في جبينه ، ولونه  
يميل الى الزرقة ، وقد احتبس فيه الدم المكثور

وجمدت الأنفاس في الصدور إعجاباً ، فكأن الجميع  
يشاطرون الظافر العناء . وطرح جرجس ، عند قدميه ، الجرن  
بين هتاف الاكبار والتصفيق : عشت ، عشت . أنت لها في  
المواقف البيض !

وحسين نجم لم يعجز عن رفع الجرن ، وهو من الصلابة على  
مكنة ، إلا أنه قعد عن التثنية . فما ضارع جرجس خالد في  
الشوط . وأقبل قاسم أبو عين ينتخي . فشدّ بالجرن . وارتفعت  
به يمينه الى رأسه . وإذا به يرتجف ويسيل عرقاً . فسقط الجرن  
من يده وهو يلهث . على انه اعلن بثقة بالنفس : لقد رفعته !  
فاعترض حسين نجم بقسوة : بل أنت قصرت فيه !  
— رفعته الى رأسي ، مثلك !

فسخر به حسين قائلاً : بلغ جبينك ، وقد كدما تتدحرجان  
معاً . الحمد لله على بقائك على قدميك !

فاستشاط قاسم أبو عين غضباً . ورشق حسيناً بالمقال الدامي .  
فارتدّ اليه حسين والخنجر بيمينه . واحمرّت العيون . وكادت  
تقع الواقعة . فالخزبان اليزبكي والجنبلاطي يكادان يشتبكان .  
ووقفت النساء في العين على أهبة ، كالرجال . وإذا بفتى وافر  
الجلال ، بادي الهمة ، ينسلّ من الحشد ، ويقف بين المتخاصمين  
قائلاً بلهجة آمرة : على رسلكما !

وأمسك باليد الشاهرة الخنجر ينتزعه منها ويقول : حسين ،  
لن نس قاسماً بأذى !

فلم ترتفع نامة بمعاندة . فالتكلم شاهين أبو كرم ، عميد  
القرية ، الباذل درهمه لكل مسترفد ، وصاحب الكلمة الفاصلة



في إخوانه . وجمع بين حسين وقاسم وانحدر بهما الى منزله ،  
يحيي لهما أسخى وليمة . والمنحى الفريقان ازاء الحكمة البليغة  
التدبير . ولهجت القرية بالاطراء والمحمدة . فليس كشاهين أبي كرم  
يفضّ المشاكل على جسامتها ، والتوفيق بين مضطرب الميول  
وذلفاء شاهدت وسمعت . ذلفاء امرأة قاسم أبي عين ، اجمل  
فتاة في القرية ، ذات المقلتين الدعجاوين ، والقسامة النسبقة .  
فكانت بين حاملات الجرار ، حول عين الماء الشحيحة المورد ،  
المتهادية الى الحوض بإمساك . ولقد راعتها من شاهين ابي كرم  
همته ، وصولته . هذا فتى الفتبان ، وصديق البيت . لا ينقضي  
عليه يوم إلا وقد جالس زوجها مراراً ، وآكله . فالألفة تربط  
بعضهما ببعض بمكين الوثاق . وذلفاء على اعجاب بهذا الصديق  
النصراني ، العالي المكانة ، المبسوط اليد . وتعاضم به اعجابها  
وقد انقذ زوجها من ورطة خطيرة . فأسرعت في فم الصباح ،  
من اليوم التالي ، تموج فيها روائعها ، وفي عينيها بريق من الشكر  
وعرفان الجميل . قالت وفي لهجتها رعشة من حنين : أبا ملحم ،  
أجزلت لنا المعروف ، ولسنا ندري كيف نقرّ بالفضل . قاسم  
مدن لك بالحياة !

وشاهين أبو كرم من المكبرين في ذلفاء روائعها ، وسناها .  
فرماها بنظرة ما خلت مما توهجت به باصرتها الناطقتان بالحوور ،

المعقودتان بالكحل على سماح ، وقد ازدادتا به فتوناً . وتجلي له  
مخاها فلكاً من أهلة ، اضاءت في الحاجبين ، والاجفان ،  
والشفتين ، كأنه خدين السماء .

وشاهين ابو كرم ، مع رؤيته اباها في كل يوم ، يشتهي ان  
يتملاها ، وفي وسامتها ما بأسره . إلا أنها امرأة صديقه . وصديقه  
أثير عنده . فأطرق بنبل مطبوع فيه وهي تخاطبه ، وما يجوز  
لمثله ان يثير الشك في قلب امرأة ذات تقى

ونادى اليه امرأته لتجالس ذلفاء . ولم يكن العهد يجيز أن  
ينادي الرجل امرأته باسمها ، بل باسم ابنها البكر . فصاح :  
يا ملحم !

فأطلت زوجته ترحب بالزائرة . ولم ترقب ذلفاء هذه  
المفاجأة ، وقد جاءت تعلن ما في ضميرها من لواعج الولوع .  
فقطع عليها شاهين أبو كرم المجال ، وانطلق الى ساحة القرية  
يلتمس فيها التمويه . غير ان التمويه نبا عنه ، وهو يحترق بما  
تحترق فيه ذلفاء من صبوة وجوى . فمنذ عهد بعيد وهما على  
ضرم ، والأنفة والامانة تمسكان بهما عن الجهر بمكنون الحشا .  
أما الآن ، وقد أنقذ شاهين صديقه قاسماً من الغائلة ، فضاقت  
خاطر ذلفاء عن العاطفة المستعرة ، وشعر بما يكرهه على الاعلان .  
وجاءت الوهى تفضي بما يجيش في باها من وجد ، فتتكب شاهين

أبو كرم عن الاصغاء الى نجوى يشواق سماعها ، ويخشى أن  
يعيرها اذنيه

وبما راع ذلفاء ، في من يحفزها اليه الشوق ، إقدامه . فهو  
في الملمات فارس همام . وجوده ، فإن منزله لمفتوح الباب  
أبدأ للضيف ، يستدين المال لاطعام الناس . ووسامته ، ففي  
قسامته جلاله وأبهة . فما ان يقبل الى القرية ، على متن فرسه ،  
حتى تتسابق ذوات الجهارة الى رؤيته في حسن هندامه ،  
ونضارة طلعه . ثم هو وجيه يخالق الوجهاء . فليس بين كرام  
اللبنانيين من يجبهه . وله في النضال جولات . فلا يججم عن  
مجاهدة العظماء لأجل مبدئ يراه صواباً ، ويجدم في مناواته  
على ضلال

وذلفاء امرأة متحمسة للذكاء ، والمروءة . ولم تكن تخفي  
إكبارها لشاهين أبي كرم . فتحدثت ، عن سجاياه الغر ، في  
أذن القرية وعينها . فهو مثال يجتذى . وخاطبها ناظره بجه  
الصادق . ولكن بجانب هذا الحب صداقة زوج لا يزدري .  
فما إن تقع باصرتا شاهين ، على ذات الطلالة ، حتى يضطرب الهائم  
الانوف ، ويشتر في الفرار . ليس يسعى ، مع هيامه بذلفاء ،  
لحرق حرمة الاخاء الوثيق بينه وبين قاسم ، المقيم وإياه على  
هوى سياسي أيّد ، وعلى أنبل الولاء

ولدى جلوسه في ساحة القرية - وكان يجلس فيها لماماً -  
لا تحين منه التفاتة إلا لتقع على ذلفاء ترد العين بجلتها الزاهية ،  
وحلاها البيض ، وهي من فضة . كأنها ابدأ على خطوة منه .  
فيغضي على استحياء . وتخونه عينه ، في لفنة مرتجلة ، فتلوح له  
ذلفاء بعينها ، قابضة على عصام جرتها ، وناظرة اليه بومضة  
الميام . وتمتلىء الجرّة ، فتنبه عنها ذلفاء ولا تحس بها ، وقد  
شخصت بكل ما فيها إلى سيد القرية المهيب ، الرزين

وتطول وقفة ذلفاء . ويطول إطراق شاهين وقلقه . فينصرف  
الى منزله حزيناً . وتتوقل ذلفاء إلى دارها على مسرة ووجوم .  
فهي واجمة لكونها أحبت من لا يجوز أن تحب . وناعمة  
بالمسرة ، لكون من أحبت مفخرة من مفاخر قومه . فالقدرة  
والمناعة تنتهيان اليه

والزيارات بين الاسرتين لا تنقطع ، وهي بما ليس منه بد .  
شاهين لا يقوى على النكوص عن دار قاسم . وقاسم لا ينقطع  
عن شاهين . وكالما اندفع شاهين ، إلى منزل صديقه ، دق  
الباب وصفق . ويتفق احياناً أن قاسماً ينأى عن مبيته ، فتبدو  
ذلفاء ، ومنديلها لا يستبقي من وجهها سوى إحدى عينها ،  
وتقول بغبطة : تفضل ، يا أبا ملحم . قاسم في غيبة !  
فيرتجف قلبه ، وقد لاحت له في صباحتها . وينكفيء وفي

صدره حشرات . حبه يشدّ به الى الدخول . وحفاظه يأبى عليه  
الاثم ، حتى في نظرة . فيتوارى وهو بعض شفته تألماً . إنه  
لصريع حبه المنوع !

وتوالت الأيام على اضطراب وغلbian . يسعى الحبيبان للقاء ،  
ويبتعدان عنه . يحاولان الافضاء بما يتأجج فيهما من لهيب ،  
وتخونهما الجراءة في البيان ، مع كونهما في ميولهما على نار .  
وانه لمجتاح هذا الهوى الصامت ، وكلما صادمه حاملاه ازداد  
اشتعالاً . ولو لقي منفذاً ، حتى الى المصارحة ، لعرف بعض  
الهدوء والاطمئنان

ولم يكن من سبيل الى الابتعاد ، والصدقة تفرض التداخي .  
وإذا هجر شاهين أبو كرم القرية ، لرحلة من الرحلات ، غادر  
المزرعة وفي احناؤه تتوالب سورة الهوى ، طاغية ، جامحة

ومرض قاسم أبو عين فادر كته الحاجة . موسم الحرير مضى ،  
وموسم الزيت لم يطل . ومن للمصديق غير الصديق بخفف من  
اعبائه ؟ ... وما أصاب قاسماً أقعبده عن الكلام . فهو في شلل  
عصي . والأولاد صغار لا يدرون ما هم فيه . ولا يدركون ما  
يتعرض له أبوم من غلة . فالانتكال على الأم دون سواها .  
على ذلقاء ، ساحرة القرية . ومن لذلقاء في الضيق غير شاهين  
الحدين الصفي ؟

وشاهين يعود ، صباح مساء ، صديقه العاني . فيؤانسه ،  
ويؤاسيه . وعرضت له ذلفاء ، في احدى العشايا ، وقد استحکم  
منها الضيق ، تقول بلهجتها الحلوة ، المرنان : لم يبق لنا غنى عن  
استدرار الفضل ، يا أبا ملحم ، وقد عودتتنا النجدة !

فالتفت اليها مدهوشاً . ماذا تريد ؟ ... ولم يلبث أن فطن  
الى مرماها . قال يستوضح بلهفة : أتكونون بحاجة الى المال ؟  
وكم كان يزدرى المال ، والدينار عنده أحقر ما في دنياه .  
ولم يفسح للمستغيثة به إلى الجلاء . فقفز الى منزله وعاد منه بصرة  
طفعى . وألقى الصرة بين يدي ذلفاء وهو يقول : لا تعفيني  
من مطلب . سهوت عما عليّ ، فعفواً . إذا مرض قاسم فكلنا  
في خدمته . لن يعدو علينا الاملاق !

وغلت في مقاله الحمية . ففار الدمع في عيني ذلفاء . هذا  
دمع الشكر النديان ، والحب الريان . أريحية شاهين أبي كرم  
نطقت بابلغ آية . وانصرف شاهين وقد أدى ما عليه . فلم تكن  
أنفته تجيز له البقاء ، مع شدة حنينه اليه . ولكن ذلفاء أضحت  
أشبه باناء طفح ، وقد ناء الوسع بالاحتمال . فإنها لمدفوعة ، على  
كره منها ، إلى بسط خلجات نفسها . وارتفع صوتها بنبرة آمرة ،  
مستجيبة : أبا ملحم ، ارجع . لك عندي مقال !

فتكشّف لذكائه الوارف ما تسعى للادلاء به ، وأحجم

عن العودة . لن يرجع لسماع المشتبه الحرام . فليتعذب  
وليحترق في هبامه . الشقاء في هواه ، ولا الغدر بنجيته .  
ذلفاء ، الناصعة الجبين والرواء ، ستظل على نصاعة جبين ورواء .  
فلن يחדش شاهين أبو كرم نقاوتها . وسبقته رجلاه في قهر  
فؤاده . الا انه قد يكون في ظنه على وهم . ما يدريه أن ذلفاء  
لا تحتاج اليه في مبتغى آخر ؟ ... وارتدت على مضض . قال  
وعيناه في الارض : ماذا ، يا حرمة ؟

وما ناداها باسمها ، بل بما يعلنها أنها عليه حرام . وكانت  
تمسح دمعها . قالت : اجلس . ماذا عليك إذا جلست قبالي ؟ ...  
أنت صديق هذا البيت وسنده . ولا اراك إلا بمعناً في التناهي .  
بم أسأنا اليك ، يا شاهين ؟

فلمس القصد من دعوتها إياه ومثل . ما يججلج في نداءها  
غير الشوق . وبات الفرار منها محالاً . فتناول غليونه ، وهو  
من خشب الورد ، وحشاه تبغاً وأخذ في التدخين . إن الموقف  
ليفرض عليه الاصغاء والايضاح . قال : لست أناى تأففاً .  
كوني بما أجاهرك به على يقين . ولكني أناى إجلالاً . فأحارب  
نزوعي اليك ، لتظلي تلك المرأة الطاهرة العرض ، البعيدة عن الظنة .  
ان ما في صدرينا ليتعادل في صراخه ، وفي وثوبه ، إلا ان  
الفضيحة لا أرتضيها لي ولك . كل منا يجب الآخر ، فلا مكابرة .

ولكن علينا ان نقف بهذا الحب حيث لا نخجل منه . أنا  
أضطرم في جحيمه . بيد اني أذكر أنك امرأة صديق حبيب ،  
وأن على مثلي أن يدخل منزلكم كشقيق . أدركت لماذا تذر فين  
الدمع . إن هو انا لمحرق . كلانا منه في سعي . ولكن على  
كلينا أن يتمثل ، بجانبه ، قاسماً زوجك وهو بهم بأن يفاجئ  
الآخر ببادرة يقلق بها وضاء الصيت !

ونطق فيه الابهاء بضاعة وشموخ . هذا أمير بيان وحفاظ .  
ولقيت فيه ذلفاء نجداً أروع . من هذا المستوى تريد الرجال .  
بجبا ولا يستجيز أن يشوه فيها عهد الامانة . ولم تكن دونة  
سواء في الجوى . فهتفت متحمسة : أبا ملحم ، ما أرفعك  
وأكملك . الصداقة عندك تنسخ الهوى الحرام . وهو ما تصبو  
اليه روي . فالعار في التبذل . وحبنا أرفع من الاسفاف .  
إنه ليدندن فينا . وسبطل على ذندنة لا يبلغ بها الافصاح . فتكلم  
الأعين ونكتفي منها بما تنص من تباشير ناطقة خرساء . ما  
كنت أرغب في أن أفضي اليك بما ألقى من هذا الحب المشتعل  
في جناني ، إلا أني ما استطعت خنق صوته ، وقد غلبني . إنها  
لفضيحة . بيد أنها تنقى . ففي إماطة اللثام عن سرنا بعض العزاء !  
وحرصاً ، مع حبهما ، على الرسوخ في عفافهما . ولم يطلق  
شاهين أبو كرم الى ذلفاء عيناً يجلو بها محاسنها . ولا هي أزاحت



مندبلاً تتلألاً نحت مطاويه قسامتها على تمام . فالعين الواحدة ،  
السافرة ، ظلت عيناً واحدة . قال شاهين : إننا لنعاني المرهقات  
في حبنا . والفضل في ان نعانيها . فما أجمل الحياة وكل منا  
ينطوي للآخر على وجد صباح ، ويميل بهذا الوجد عن تدنيس  
الصدقة . لنبق كما نحن . يكفيننا أن يرى بعضنا بعضاً ، وأن  
يخاطب أحدهما الآخر . فاللذة القصوى في الحب النقي من الارجاس !  
ونفض يبتغي الرحيل ، وفي نفسه من ذلفاء وفور هيام .  
وفي نفس ذلفاء منه غليان وآله ، وفورة إجلال . فالحبيب  
الصدوق من اتقى المخازي ، وصان الأعراض . وسرها أن  
تكون باحت له بجوابها ، ووعت حديثه عن هواه . إنه  
ليبادها العاطفة على مداها ، عاطفة لا تذلل فيها جبهة ، ولا  
يحمّر خدان

وانقضت عليهما سنوات رحاب قنعا فيها بحب مقصوص  
الجناح . يغرّد ، ولكن لا يطير . فيرشفان عصيره من بريق  
الاعين ، وغيمه الشفاء . ويكتفيان بنشوة اللحظ واللفظ ،  
وفيها للمتحرّج من الاثم الجمم غنية عن الارتواء

وإذا لبنان يعتكر جوه . فتبددت فيه الأيام السمان .  
وأطلت الربد العجاف . هذه هي السنة الألف والثمانئة والستون .  
فما تذوق اللبنانيون من رغد ، وألفة ، أذابوه في هذه السنة

الحمراء . فالشقاق ثار فيهم . وعرفوا أنهم دروز ونصارى ،  
وكانوا يجهلون انطباعهم على فواصل الدين . ولم يكن من  
مصلحة الدول ان يسعد لبنان بوحدة بنيه ، فامتدت الايدي الى  
الصدور تهزتها . وغاصت الحناجر في الحناجر . فالشمس اعتلت  
يوم ذلك ، وقد أنخن لبنان جراحاً . ولطمت عذارى الجبل  
وجوههن خيبة والتباعاً . وتجهم الأفق الموشى بالورود . فتنكر  
الأخ لأخيه ، وقد فتنها الواشي بالمقال الكذوب . وخضبها الدم  
البري ، فصارت الاخوة الى الواد ، والمودة طواها الديجور  
وفي المزرعة ، لجأ المسيحيون الى موثلين ، الى الكنيسة ،  
والى دار عميدهم شاهين ابي كرم . فازدحموا في عليّة داره ،  
يناوثون المهاجمين . والمهاجمون أرادوا العميد . فاذا التوى  
الرأس ، تضعع الجسم . وانقضوا على العليّة يدمونها حجراً  
حجراً . ويصطادون فيها كل قصير العمر . وتلفت شاهين ابو  
كرم الى ما حوله ، فاذا به يقاتل وحده ، وقد ذهبت المنايا بالرفاق  
الشّوس

واظلم الليل والرجل وراء متراسه ، يمضي بنفسه في الذود  
عن حوضه . على ان الليل ابو السكون . فما لفّ هاتيك الأنحاء  
بدثاره الاسحم ، حتى هدأت الفورة بعض الهدوء . وماجت عينا  
شاهين ابي كرم في الجثث ، تبيّتناها على وهج اطلاقات تروّع

آناً ، بعد آن ، الصفاء المدعور . فباله ان يقيم في مقبرة بلا  
غطاء . وصبر على المحنة . سيموت بهمة المستبسل الأنوف ، كما  
ماتوا . وانى يجين ، وهو المقدام ؟ ... وعمد الى البندقيات  
والغدارات ، المتراكمة امامه ، يحشوها ليطلقها على دفعات .  
فلا يدري الحُصوم انه فرد . واذا همسّ حادّ يرتفع وراءه : ابا  
ملحم ، ابا ملحم !

من يناديه ؟ ... وعلا الهمس فأضحى جمجمة : ابا ملحم ، أنا  
ذلفاء . إلحق بي . جماعتنا يبغونك ، وانت هدفهم الأوحد .  
إخوانك غلبوا على امرهم ، فجئت لانقاذك من الويل  
الدام . تعال !

فارتعش ، وقد عرف ذلفاء . ارتعش وأكبر المسعى . هذا  
هو الاخلاص الزكيّ العرف ، المأمون الفوح . ذلفاء تغامر في  
سبيله . واذا شعر بها بنو قومها سفكوا الا بحالة دمها . فما هذه الحمية  
السماء ، النافخة فيها ؟ ... وجمدت بينه وهو يحشو إحدى  
الغدارات . قالت ذلفاء : أسرع ، أسرع . لا تعرضني للغائلة !  
فاجاب بعنجهية مطبوعة فيه : لن ابرح الساحة . سأموت كما  
ماتوا . هذه الضحايا النقية الجباه بحاجة اليّ ، وعليّ أن أثار لها .  
انصرفي . صنيعك يزيد في مضاء عزيمتي . شكراً لك وقد فكرت ،  
في مثل هذه الساعة ، في صديق يعصف به الخطر !

فأبت الانصراف . ما جاءت لتعود خالية اليدين . انحدرت  
من القمة الى السفح لتسبته من الجائحة ، ولن ترجع على اخفاق .  
قالت بالحاح : لا تطل الجدل . تعال . اذا شعروا بي قتلوني .  
تظاهرت باني أحمل اليهم الطعام ، وانت مطبى . لا تنس أنك  
أنقذتنا مرتين . ونحن قوم نحفظ اليد البيضاء !

وأشارت الى يوم المصاولة على الجرن ، وقد اوشكت الواقعة  
أن تقع بين حسين نجم وزوجها قاسم . فاصلح شاهين ابو كرم  
بين المتخاصمين . ولمحت الى انجاده إياهم في الضيق . فبز برأسه  
يمانع في الاجابة ، وهو يقول : محال . هنا مشواي . لن تبعديني  
عن معقل الشرف . فمت اجمل قيام بما عليك حبالي . فالوفاء  
أدرك في مغامرتك النبيلة اسمى الذرى . وهذا يومه الأغر .  
فدعيني اضارعك في الوفاء لاخواني ، واذهي على بركة الله .  
اذهي . أخاف ان ينالوا منك . ولست ارضى ان يصيبك لأجلي  
مكروه !

فلم تشأ أن تسمع . لن تنصرف الا ويده بيدها . قالت بقوة  
لا تلين : سأبقى هنا ما دمت تأبى أن تكون رفيقي . ليقتلوني .  
لا بأس أن ألقى مصيرك ، وانت تريد لنفسك الموت !  
فأخرجته . ولم يكن منه الا ان غمغم بشدة : انصرفي ،  
انصرفي !

وخشي ان يسمعه ، فجاهد في دفعها عنه . ولكنها عاندت  
في الرحيل . لن تتحرك الا وهو بجانبها . وكما دفعها عنه  
ارتدت اليه . قالت بصادق البذل : طاب لي الموت على مقربة  
منك ، فلا حرج عليّ اذا شأهتك في المصير ما دمت تشيح عن  
سعي لانقاذك . ها هم أولاء . ليقتلوني قبل ان يقتلوك !  
وسمع وقع اقدام . وخشي على ذلفاء من حزة المدينة الرهيفة .  
بل خشي كل منهما على الآخر . ولم يجد شاهين ابو كرم بدأ من  
صدّ الهبيكة عن جاءت تصدّ عنه الموت . فانه ليكابر في المقدور  
وهو يتنكب عن نداء الولوع الفادي . فيطرح ، في اشداق  
الهلكة ، امرأة ذات معروف ائبل . قال على مضض واكرهه :  
انا منطلق في أثرك . فسيري امامي !

فشدّت عليه في أن يسير وإياها جنباً الى جنب ، مخافة  
أن يميل عنها ويعود إلى معتصمه . والتحفا بالليل إلى منزل قاسم  
أبي عين . وإذا اعترضها معترض ، في الطريق ، رفعت ذلفاء  
صوتها ، تعلن نفسها بجرأة لا تبيع . فكأنها الصقر في مسبح  
الغيوم ، يردّ عن بحرسه العوادي . وفي منزلها فسحت لشاهين  
أبي كرم أرحب مكان . قالت : انت هنا في منجى مصون !  
ولكن الصباح انجلي ، ولم يقصف البارود في عليّة شاهين  
أبي كرم . فأين المحاصرون فيها ؟ ... ودنا منها الدروز ، فإذا

بهم تجاه أكوام من القتلى ، وليس في العليّة ذو نفس يتردّد .  
وبحثوا بين القتلى عن شاهين أبي كرم ، عميد القوم ، فلم يجدوه .  
هل انسلّ الى الضواحي يطلب النجدة ؟

وذكروا أن ذلفاء شقت اليهم الليل ، فهل عرّجت على  
شاهين وأنقذته ؟ ... كلهم مطلع على الصداقة المعقودة بين  
شاهين أبي كرم ، وقاسم أبي عين ، فما يمنع أن تكون ذلفاء  
انحدرت الى العليّة المحصورة ، لإنقاذ الصديق الوفي ؟  
وظفروا الى منزل قاسم . فابتسمت لهم ذلفاء . وقالت  
بمنطقها المرن : عافاكم الله ، ما تريدون ؟ ... أنكونون بحاجة  
الى الزاد ؟

فصاحوا معربدين : نريد شاهين أبا كرم . هو هنا . فأين  
يختبئ ؟ ... أبصرناك تجوبين اليه الليل . فأين أخفيته عنا ؟ ...  
هاتيه . جئنا لامتصاص دمه !

فلم تجمد فيها ابتسامتها ، بل انطلقت في فقهة ساخرة ،  
وقالت : أيكون شاهين أبو كرم هنا ؟ ... إنكم لمجانين .  
فكيف يعرض لكم أني أجيء بعدوي الي ؟ ... هذا هو المنزل  
على سعته ، فابحثوا فيه عن تبتغون !

فبحثوا وما اهدوا . وانصرفوا على ارتباك . خلاص شاهين  
ابي كرم منهم شر مستطير ، والرجل لا يعدم الأنصار الأقوياء .

إلا أن شاهين أبا كرم لم يبرح المنزل . ذلفاء ، أخت الصقور ،  
ذات الدماغ الحُصْب ، والسلطان الطاغي ، أكرهته على الاختباء  
تحت أوراق التوت ، في رحبة القز ، والفصل فصل الربيع ،  
والقوم يتولون فيه تربية دود الحرير . قالت وهي تراهم مقبلين  
اليها : شاهين ، عليك بهذا المخيا ، ففيه طمأنينتك !

فمانع : أنا أختبي عنهم؟... ولكنني سأقاتلهم وجهاً لوجه !  
فهاج فيها الذعر ، وصاحت باضطراب : وأين تقاتلهم ؟ ...  
عندي ؟ ... أراك تريد لي في القرية الافتضاح . أي السنة  
نهاشة تثير عليّ ؟

وفزعت الى سمعتها تشهرها ، عليه . هذا هو السلاح  
القاطع . وضمن بها أن نصاب بالشين ، فأطاع وفزع إلى المخيا  
الآمن . إن ذلفاء لناهية آمرة . وفي المساء ، وقد تلاشت المقاومة ،  
وسكت البارود ، وماج النعاس في العيون الثقيلة الاهداب ،  
دلفت ذلفاء إلى شاهين أبي كرم تقول : بقيت أماننا مرحلة  
اخيرة ليلبلغ الوفاء حده ، يا أبا ملحم . عليّ أن اخرج بك من القرية  
دون أن يشعروا بك . بل سنظل مقصرين ونحن ننقذ مرة من  
انقذنا مرتين !

واجتازت به مكامن الخطر ، وهي تقول : اذهب بسلام !  
وأقامت تصغي إلى وقع قدميه ، فيما يلطم ، بخطوه الخثيث ،

وجنات المضاب إلى أرض الامان . حتى اذا ما انقطع الصدى ،  
التفتت الى السماء تغمغم باسترحام : رب ، أنقذه من المكره .  
هذا عفيف عيوف . ان انداده لقليل !  
وذرفت دمة هتانة . وعادت إلى منزلها بخطوات ثقال ،  
وهي تردد قولها : لعن الله من أثارها بيننا . كنا على شمل نظيم ،  
فإذا بنا على ذريع شتات !  
وسمع الليل نجيبها وفاسمها اللوعة . فهي تتفجع على نكد  
الالفة ، وقد أزرى ببهجتها شحوب الصفاء الحميل !



جهاز العروس

تفتق الليل عن ولولة رياح ، ودمدمة رعود . فهو صاحب ،  
حائق ، كأن به جثة . وتكائف الظلام ، كحواشي المكروه ،  
لا تبين به فرجة . فالكون في عتمة سادرة ، كأنه يلتحف  
بالحداد الغموس . ليلة " تاكل ، مات وجيدها ، فاصطبغت بالفحمة ،  
ولطمت خديها ، وقعدت على القبر تعول وتنوح  
وامترج صخب السيول بهدير السواقي . وانزوى الناس في  
بيوتهم ، يخالون بدفء النار ، على قرس الزمهرير ، ويصفون  
الى الانواء المتلاطمة ، يصرع بعضها بعضاً ، في غضبتها العمياء  
الجموح . على انهم بآمن من ثورتها ، وقد اتقوا كيدها بما بنوا  
من منازل ، وادّرعوا من لبوس  
واندلع ، في بلدة دير القمر ، من ثقب بعض النوافذ ،  
بصيص نور . بصيص " كنفشة المصدر ، في البلدة المنكئة على  
الصفح ، والمعتصمة بالقمة ، كأنها توشك ان تغور في بطن الوادي ،  
ويمسك بها الزمن الرفيق عن الانحدار  
ولم ينقطع السيل . فهو جادّ كابس ، وما شفى كل ما في  
نفسه من حزازة . فما يبرح يطمع في التشفي ، واوتاره تمور في  
صدره الناقم ، الجيآش بالبعضاء . فيلسع وجه الارض باسواط  
حائقة ، مزبدة ، كأنه في معرض زجر واقتصاص

وفي ناحية البيادر ، من اطراف البلدة ، نافذةٌ يُفتح احد  
سقيها دفعة على دفعة . ويطلّ منه وجهٌ يستوضح الليل ،  
والسبل ، على كمدة ، ثم يغيب . هو محيا اشقر ، كما دلّ عليه  
المصباح المستقر بين كحبّ الآس ، بضّة ، غضة . ومحيا  
جميل ، مع كل ما عراه من جهامة . فما به على ارتباك وعلع ؟...  
من يرقب في بهرة هذا الليل الكافر الحقود ؟

وتوالى الاستيضاح . وعلا في صدر المنزل أنينٌ جريح .  
غلام في العاشرة ، يريد أباه . ما باله قد أبطأ ؟... قال بنأمة  
بكيتة : اين يكون في هذه الليلة الرهيبه ؟... لنذهب للبحث  
عنه ، يا سلوى !

وشدّد في براح المنزل الى الاب الغافل عنه في الحانة ،  
المتشاغل بالكأس عن ولديه المصابين بامهما الطريثة الكفن .  
سلخها بلا حنان ولا رحمة ، بمن بسطت عليهما جناحيها ، داءٌ  
سليط اذاها في مرشفيه الغليظين ، كحبة ملح في غمر

وعانت ذات الشعر الاشقر المجهود البئيس في دعوة اخيها  
الصغير الى الرقاد ، فما كان ليرضى . قالت : سيأتي ابوك . لا  
خوف عليه من الزوبعة . فم آمنأ . السهر يضنيك ، وانت  
بجاجة الى الراحة !

فلم ينقطع عن بكائه . هو ينشد أباه ويلجّ في الطلبة . فبكت

سلوى ، سلوى الراتعة في الثامنة عشرة ، النديّة كجبين  
الصباح ، الحيتية كصادق المبرة . ولقد ملكت من الفهم والرزانة ،  
على لدونها ، ما يغيب عن الشبعاة من الحكمة . وماتت امها  
على طمانينة ، وقد ابرت في البيت سلوى ترفق بابيها ، وبأخيها  
حليم الصغير ، وتعهدهما بوفائها ودرائتها  
والاب والابن لقايا في الفتاة الناشئة أمأ ، وابنة ، واختاً .  
على ان الاب لم يكن يستطيع البقاء في منزله المغوس في اللوعة .  
كان له اربعة اولاد ، فانطقاً منهم اثنان ، كالفقايع . ماتا  
ينهشهما داء السل المكين في الاسرة . أملودان ، كالتسايح ،  
قصفتها ريح عاتية . فما تكاد الحفرة تلتهم جثاناً ، حتى يسدّ جوعها  
جثان . والبلية الحاطمة ذهبت بالام المرضوضة الحشاشة . فانتثرت  
كما انثر ولداها . ازاهر حصدها ، في غضارتها ، منجلّ غشوم .  
وابصرت الشكول فناءها ، بعينها ، وقد لفظت رثيها ، كما  
تلفظ الشجرة اوراقها الصفر ، في مهب نسيمات الحريف

\*

ولم يتماك سعيد جبور على النازلة . فهوى تحت عبثها ضائع  
النهية . كان يتجه في طريق قويم ، فزاع . هذا ليس سعيداً ،  
وقد تنكر حتى لنفسه . فاليأس ، من دنياه ، مال به الى الحقد  
على عالم يتنفس في الالم ، ويعيش في العدوان . ووثب على المسكر

يخدر به حفائظه . فهو يبغى الضياع عن حياة راحتها شقاء ،  
ونعيمها هوان . جرّ ثلاثة الى القبر ، في رفقة عين ولفقة ،  
فاجفل . ولا يبرح من جفوله على رعدة . فتهدل خداه ، وعبس .  
واحمرت عيناه ، وغارتا ، كأن أرمدهما دنيا من غبار ودخان .  
وكثف شعر لحيته ، وارنخت شفثاه . ورث في هندامه ، وقد  
غفل عن شأنه . فهو مبعثر ، محطم ، كأنه يخرج ابدأ من جولة  
صراع ، ناء فيها بالحسران

وتثقل الحانة ابوابها ، ويأبى سعيد براحها . هو فيها ، وسيبقى .  
وانه ليؤدي بدل الحمرة عن يد سخية ، لا تبالي الانفاق . ففي  
جيبه حفنات من نضار ، ما ان تجف حتى تفور ، كأنها ينبوع  
الروي . وسعيد جبور ليس بالرجل الفقير ، وله في حي البيادر  
منزل نسيق ، ازرى بما حوله من دور ومساكن . فتعمم  
بالقرميد الاحمر . واشرفت فيه روعة الالوان ، على رباش حالي  
العود ، كمصاطب الجنة . طنائف ، تلو طنائف ، يشيع فيها  
البذل ، وتسطع الانافة . ومقاعد رجراجة سريعة النبضة ، كأنها  
اعصاب حساسة . ومرابا تخلع على الجدران حقائق كالوهم ، فتندفق  
بالخيال فيما تعرض الراهن الملموس

ولسعيد جبور كروم في دير القمر ، ينبت فيها الزيتون ،  
بجانب الدالية والتينة . فله منها بسطة في القمة ، على تخوم

فسحة الصنوبر، ، العاقدة على البلدة لواءها الاخضر . وله في  
مشارف الوادي ، وقد تدحرجت في مسيله دفقات الماء ، كأنها  
تنقل الدواليب، جنائن فساح، كخماثل الرحمة، تزينها النضرة،  
ويجلوها الحُصْب . وتضخمت ثروة سعيد بديون ناطقة الارقام  
والحروف. والادانة صنعة الاغنياء في لبنان، المقدود من الصخر  
الصلود . فتجود بالعطاء بلا مشقة . ويقبل على الارتواء من  
رفدها العطاش الى الدرهم. مَنْ نضبت ايديهم من المال واقاموا  
بانتظار الموسم، بل المواسم. موسم الحرير، وموسم الزيت، وموسم  
الزراع، وموسم الكرمة. وهذه الديون استوفاهها سعيد جبور كيفما  
استطاع . وانفقها بلا حساب في تخدير نفسه ، لسلو اشجانه .  
وطارت الديون ففزح الى الكروم يبيعها . ولماذا الابقاء عليها،  
وغداً ، أو بعد غد ، يزجي عوداً جافاً الى الرمس البارد ،  
الموحش ، النهيم؟... وسعيد يروم الانطلاق وشيكاً الى رسمه،  
ليتوسد التراب ، ويمزج رفاته برفات امراته ، وولديه ، وما  
يزال منهم على لاعج الحنين

واقبل اصدقاؤه لائمين، رادعين، بشفقة واكتئاب، فصدمتهم  
عمابة عسرة . فما كان سعيد ليصغي، او يطيق ان يصغي . زمنه  
جار عليه ، فلن يصافي زمنه ، وليبلغ الكيل الطفاح !  
وفي كل ليلة ، بل في كل صباح ، او حفزة من غبشة ، لا

بد ان يعود سعيد جبور محمولا الى منزله، لا يشعر، ولا يفيق.  
وتقيم ابنته سلوى ساهرة ترقبه، لتنهض اليه وهو الفاقد الحس،  
وتسجيه في فراشه، وتعالج فيه سكره المزمن، دامعة العين،  
مكمودة اللب. وطالت استغاثتها بهذا الاب كي يرفق بها وبانحياها،  
اذا ابى ان يرفق بحياته. فوقعت ضراعتها على خيبة. وادمى  
قلبا العناد المستفحل، فاعولت وفي عينها جمر، وفي حنجرتها  
شوك: ابي، ابي، الى ابن تجرثنا، الى اي مهواة؟

وسعيد يحب هذه الابنة، الناشئة على طهر ووسامة. الا  
انه لا يكاد يراها حتى يذكر امها، وولديه، المنحلتين في التراب  
ضحيا بخرقة، فتثور فيه الحرقه، ويفمض عينيه المعتكرتين،  
وعلى شفثيه كاوي الزفير. ويهجر البيت الى الحانة، تأكل  
ناظره دمعة محرقة، طاغية، ليس يقوى على ذرفها، وهي بمسكة  
على رسوخ بالاهداب. فلا تسيل على الحد، كأنها بقية من نصلة،  
استأسدت في اعماق جرح نغمار. ولا ترقأ، كأنها عنوان  
حسرة آبدة

\*

ويستقر سعيد جبور بالحانة جالسا الى كأسه، كالناسك في  
صومعة. فلا يخاطب أحداً، ولا يفتح أذنيه لحطاب. فحار فيه  
بنو قومه، ووقفوا منه جزعين. هذا انتحار صياع. ولكن

أين من يرعوي ، وسعيد يريد الاختناق بيأسه ، والذوبان  
في أساه ؟

ودير القمر متعبدة لربها ، تطير من الضلة ، وتخشى يوم الحساب .  
فشيدت بين حوانيتها المعابد ، أكثر مما حشدت من رجال الدين .  
فالكنائس فيها على وفرة . وبجانب الكنائس جامع ، وكنيس ،  
وخلوة . فالأديان تنبسط في ذلك المنحنى على قرة عين

وأمام دار سعيد جبور ، في البيادر ، يمر يوماً بعد يوم ،  
كاهن يتوشح بياض الرأس ، ونقاوة الضمير . كاهن شيخ ، في  
الستين ، وربما جاوز الستين . على انه في صفاء جبينه ، وعذوبة  
مشيبه ، قطرة ندى في مبسم الفجر اليقظان . يمشي والصلاة تهمهم  
في شفتيه ، وعيناه على اطراق . فلا تكاد الأرض تحسّ بوطئه ،  
وهو فيها أشبه بفراشة على زهرة ، ترينها ولا تؤذيها . ويتخطى  
دار سعيد جبور لينحدر الى الوادي ، وادي دير القمر ، طيفاً  
من أطياف الرحمة . فيجتذب القلوب الى الله ، وقد خلا السفح  
من المرشدين الهداة

ودير القمر بشيبتها ، وشبانها ، وأطفالها ، تعرف الكاهن ،  
وتجلّ فيه وضاعة المشورة . فما من نفس معذبة لجأت اليه ،  
إلا لقيت في كنفه البلسم . فهو الأب بشاره ، أو « بونا » بشاره ،  
كما ذاع في الأفواه . ينسلّ الى اداء فروض الدين كرجال الحفية ،



بعيداً عن العيون ، كارهاً للضجة . لا يمد يده لاستجداء ، ولا  
يشاغب في فتنة ، ولا يغمز من فتاة . ان هو الا المثل الأعلى  
للكاهن المختار . وإعجاباً بشممه ، وبزهده في الدنيا، أهدي إليه  
المؤمنون بالمروءة والنخوة ، صليماً ، وسلسلة ، وخاتماً من  
الذهب اللباب

وسلوى ، كلما بدا الكاهن لناظريها ، حيثه بابتسامه وانحناءة .  
ودلفت إليه تقبل يده وقد رست فيها ندوب السنين . وأنس بها ،  
فكان يسألها عن حالها ، ويجيئها حيناً بعد حين برسم لقديس ، أو  
بسبحة برآفة الحبات . ولما فجع سليم جبور بولديه ، وبامراته ،  
كان «أبونا» بشارة في طبيعة المعزّين ، الملتاعين . فسكب الصلاة  
على الأرواح الراقدة في العالم الآخر . وأسبغ الصبر على القلوب  
المنتفضة بالكرب والأنين

والى هذا الكاهن ، النقيّ القميص والجيب ، درجت سلوى ،  
وقد أصيبت بشرود أبيها . فوقفت حiale ، وفي عينها خيوط  
من دمع ، وفي صدرها مستوقد من لوعة . قالت ، وهي تكاد  
تغيب في نشيجها : أبتِ ، أبتِ الجليل ، أنقذنا بما بنا . انتشلنا  
من أشداق الخطر اللهوم !

فكاد يشاطرها دمعا . على ان الموقف لم يبح له الوهن .  
قال يخاطبها ببيان المتقين : اعتصمي برحمة الله ، يا ابنتي !

قالت تنظلم وتستجير: أبي يتطير من المنزل، فلا يقيم بيننا .  
لقد اختار الحانة مقاماً يجرع فيه الحمرة ، حتى يضيع وتنوء به  
قدماه . فيعود البنا جثة على نعش ، كأنه يستطيب الانسلاخ  
منا . فما عرفناه في هذا الكلوح الدميم ، وليس يفبق من سهو ،  
ولا يخرج عن غمة !

فوجهم . انه لمصير أسفع الوجه ، رث الدخلة . وقال بصوت  
كرفة جناح الرفق ، في جاش الظلم : هل لي أن أرى أباك ،  
يا ابنتي ؟ ... أنا أعرف سعيداً رجل تقى وفضل ، فما مال به  
عن مهيع الهدى ؟

فأبانت بماع اللففة : المصائب هدت حيله ، يا سيدي ، ولم  
تبق فيه انتفاضة من صواب !

وتناثرت أنيدناً . ونظر اليها الكاهن وهي تتلاشى في عبراتها ،  
فأمضته أن يخنق العليق الزهرة العطرة . قال : ومتى يكون  
أبوك في المنزل ، يا ابنتي ؟ ... سأجيء اليه ، وأنهاه عن الاستسلام  
للقنوط !

فأعلنت متفجعة : تلفظه الحانة ، والفجر يكسف سراجها ،  
ليرجع اليها ، وهي تتشاءب في جلوة الصباح ، كأن لا فرار له فينا !  
فثقلت هامة « ابونا » بشارة ، واطرق مغتماً . انها لكارثة  
مقوضة نجتاح البيت الوديع . قال يجاهد نفسه في النطق ، والالم

يكاد يفحمه : ابنتي ، ساكون غداً عندكم لمحادثة أبيك في نفسه .

صلي لله كي يرحم الضالين المساكين !

وتواري كالحبال . هناك أرواح متعددة تحتاج منه الى العطف  
والمؤاساة . وأقامت سلوى طول نهارها تصلي ، وتنذر النذور .  
إذا هدا من أبيها جماعه ، فللقراء منها كيس طحين ، وللسيدة  
التلة تاج من الفضة ، وللسيدة الدلعانة رطل من الزيت ، وللنبي  
الياس أفة من الشمع ، وللسيدة الفقيرة حبال من القطن . فأبت  
أن يعتب عليها عاتب من هؤلاء الابرار . ونذرت نذراً شاقاً ،  
عاهدت به نفسها على المسير حافية الى هذه المعابد ، في وفاء ما  
انتوت انجازه

ولم يتخلف « أبونا » بشارة عن الموعد . فأقبل في غدوة  
باكرة ، يدق باب المنزل . وأطلت سلوى تفتح له ، وقد اعتلجت  
في حياها البسمة والجمامة . ونهست في اذن الكاهن بالتباع :  
جبي به منذ ساعة . غير أنه لن يلبث أن يفيق ، كأن النوم  
يعانده . ادخل ، يا « بونا » !

فدخل الكاهن ببياض شعره ولونه ، وبسواد جبهته ، كقبس  
من النور في الظلمة . وترصد ، وهو يقرأ في كتاب صلواته ،  
يقظة سعيد جبور . ولم تطل رقدة سعيد . ففتح والد سلوى  
عينيه الثقلتين بعبء النشوة ، وصاح بابنته بصوت أجش :

سلوى ، فنجان قهوة !

فقد اعتاد ان يحسو ، لدى افاقته ، القهوة المرة لينضو عنه  
كابوس السكره . ودنا منه الكاهن ، وفي وجهه فيض من بشر .  
وحياه بصوت تترجح فيه العذوبة : صباح الخير ، يا سعيد !  
فالتفت سعيد الى مخاطبه ، بنقمة يود بها ان يعرف هذا المبكر  
اليه في غرة النهار . وعلى الصلف في عينيه . بيد انه ما ابصر  
« بونا » بشاره ، حتى همدت فيه شراسته ، وابنسم على كره  
منه . فلم يكن يجهل حامل ضمادات الجراح . ونهض ، وقد  
نأت عنه ضعفته الدائمة ، ومشى الى يد الرحمة باسطاً لها يمينه .  
فقال الكاهن : شئت ان امرّ بك في انحداري الى الوادي .  
لم ابصرك منذ زمن . فكيف انت في حظك من دنياك ؟  
فاعتوت الضحكة الجافة سعيداً . وقال بمقد المغبون في  
الصفقة : أيجتاج الامر الى سؤال ، يا « بونا » ؟

فقال الكاهن مؤيداً وهادياً : من ححك ان تعتب على دهرك .  
فمن تدهمه المصائب النازلة بك فلن يقيم على طمانينة . ولكن  
الاحزان رفيقة الابد ، ورحمة الله تفيض بالعزاء ، يا ابني . فلا  
تجهد مراحم الديان !

فانتابت هزة الشك سعيداً . وهتف بمرارة : « بونا » بشاره ،  
لست اعاند ربي في حكمه . ولكنني اهدم عمري بيدي ، وقد

طالت علي الحياة !

فمضت الرحمة في السخاء بعوارفها . قال الكاهن الرشيد :  
إذا جزعت علي من ولتي ، أفلا تذكر من بقي ؟ ... فمت بما  
عليك حبال من نأى ، فقم بما عليك حبال من لا يبرح بحاجة  
إلى حنانك . لا تقتل بريئين يرقبان معونتك ، ونصرتك . لا  
تكن مجرمًا ، يا ولدي !

فزقر سعيد وجلجل : لا بأس عليهما ، إذا تساويا بمن تهدم .  
مشوانا ليس في هذه الدنيا ، يا سيدي الوقور . واني لآخشي ،  
إذا أبقيت علي نفسي ، ان تتعظم علي . فيضنّ عليّ غدي حتى  
بثالة كاسي !

وجاشت الذكريات الممضة في صدر سعيد جبور ، فانهلت  
لوعته شآبيب . بكى كالاطفال . وغلبت علي الكاهن عاطفته ،  
فابتلّ بماء محجريه خداه ، ولحيته الناصعة كطلعة الغمامة  
الظهور . جاء ليشفي ، فبات صريع الداء . قال سعيد جبور :  
نحن ضحايا علة لا ترحم ، يا « بونا » . نحن نعاج نخصة لانياب  
السل الغدار . بذلت جهدي في وقف البلية ، فوثب علينا  
الموت يسوقنا واحداً واحداً كالانعام . واني لآخاف علي من  
ابقي . اخاف علي الصغير حلیم ، وكأما رنوت اليه قرأت في  
عينيه الموت ، وراعني منه الاصفرار والنحول . ايها الكاهن

الجليل ، دعني افرّ من جحيمي . لست اقوى على رؤية ضحية  
رابعة يخطفها الموت مني . هم ثلاثة هناك ، تحت الحجر البارد ،  
بانتظاري . وانا بشوق الى ضمهم اليّ ، باعشاً فيهم الدفء .  
وللباقين رحمة الله ، وعطفك . اريد ان اؤمن برحمة الله !  
فالتوى بيان الكاهن حيال بلاغة سعيد اليّوس . قال  
« ابونا » بشارة يحاول ان يعود بالنعجة الشاردة الى القطيع :  
ولكنك تكفر بالله في اعتصامك بقنوطك ، يا ابني . فاخلع  
عذك الاسترسال في الكربة ، واذكر ما عليك حيال من صانت  
لك القدرة . هذا نصيبك من عطايا السماء ، فلا تطمع في المزيد .  
والحكيم من سكن الى القناعة !

فاجاب بالآيات : ليكن اسم الرب مباركاً ، يا « بونا » . هو  
اعطى ، وهو اخذ ، وشق امامي الطريق !

فارتت ابنته باكية عند قدميه ، تشفع اليه فيها وفي اخيها .  
فابعدها عنه ، وهي تزد في حرقته . ولم تنجع فيه موعظة .  
وطار الى الخانة يداوي يأسه بالغيوبة . ولحق به حلیم يبكي ،  
ويهب به الى العودة . فحمله بين يديه يشمّ فيه رائحة امه  
واخويه . بيد ان منظر الغلام سلخ نزرة الامل من صدر الاب ،  
إن تكن هناك للامل بقية . فألقى سعيد ابنه جانباً ، وانطلق  
الى إحكام اخشاب تابوته . ومالت سلوى على اخيها المتطاير

نجيباً ، ترجع به الى المنزل ، وتلقي رأسها الى رأسه . وضاعاً معاً  
في نواح كسير . على ان الخوف من ان يلتمّ الداء الهادم بالصغير  
حلیم ، دعا الفتاة الى الامساك عن التماذي في اللفظة . قالت :  
حلیم ، قم بنا نلعب ، يا روح اختك . « بونا » بشاره وعدني بان  
يعيد اباك الى الطريق القويم !

\*

في تلك الليلة الهائجة الكبد ، الفائرة سخطاً ، لم يبرح سعيد  
جبور مقره في الحانة . وانطقاً الشطر الاول من الليل وسعيد  
معتكف على الحجرة يطفئ بها نفسه . وقلقت سلوى على ابيها ،  
فوقفت الى النافذة تسأل عنه الليل ، وببينها المصباح الكئيب  
يشق قلب الحلوة . ابن ابوها ؟

واستيقظ حلیم على ضوء المصباح ، فسأل عن ابيه . وهاله  
الليل الصاخب ، فارتعش فيه الضير كمن يوجس شراً . ابوه في  
الحانة ، فمن يرجع به ، في الليلة المتوعدة ، الى المنزل ؟  
وبكى الصغير . فتشاءمت اخته من نجيبه ، وسالت مقلتهاها .  
غفر الله لابيها . انه ليموت ويميت . واعتزمت ان تبير اليه في  
الرياح الهوج ، والسيول الطوامي . ولكن ما تفعل باخيها ، وهو  
يروم اللحاق بها ، وما يثبت على الصدمة ؟ ... إنه لمن زجاج

رفيق السبك ، سريع التحطيم . أما هي ، فان لها ، من عافيتها  
السمحة ، بعض النصير

ودعت حليماً الى الرقاد وبالحا عند ابيها . بل رفدت بجانب  
حليم تتظاهر بانها تنام واياه . فلا خشية على الاب الضلول .  
واذا النوم يعقد اهداب الصغير لفرط النجيب . فانسلت اخته  
من الفراش ، وجاءت بمظلة ، وبمعطف ترتديه . وانتضت المصباح  
دليلها في الليلة السحماء . واغلقت الباب على مهل . فما علا له  
صريف . وانبتت في احشاء الظلمة تصارع الليل ، والسيل ،  
والعاصفة ، والزهرير

وللريح فحيحٌ وصفير ، كأنها تنفخ في حنجرة افعى . وهبت  
على سلوى فكادت تحببها الارض ، وقد اطارت ثوبها ،  
فسترتها الفحمة عن وقاح العيون . غير ان الفتاة ابت ان تنثني .  
فهي منطلقة الى الحانة ، على كل رضة ورطمة . وغرقت في  
السيل والوحل . وعبثت العاصفة بالمظلة ، فاوشكت ان تنتزعها ،  
لولا ان تمسك بها سلوى على عناق لصيق . ولسعت خيوط المطر  
وجنسي ابنة سعيد جبور ، والفتاة ساثرة في طريقها ، بعزم  
لا تكوص فيه

وخلت الطرق من المارة . فليس من شبح في الليل الكفور .  
والحانة في سوق الشالوط ، الشاطرة البلدة الى فلقتين . فلقه تنسلق



القمة ، وفلقة تتدحرج الى الوادي . واعتري الخوف سلوى ،  
الا ان عزمها على انقاذ ابيها اعاب بها الى متابعة الطريق

ومشت حتى بلغت عطفة السيدة الفقيرة . فلم يبقَ عليها غير  
خطوات الى السوق . ولكن على مَ تقع اشعة مصباحها ؟ ...  
من هذا الراقد ، في الليلة الرعناء ، في الساقية المهذار رقدة  
الهائى ، كأنه على فراش وثير ؟ ... وارتاعت . وخافت الدنو  
من الكتلة السوداء ، وقد ران عليها ذعر يشدّها الى الرجوع .  
الا ان فكرة نضت في خاطرها اكرهتها على البقاء . بل جرّتها  
مكرهة الى الكتلة المضطجعة في الساقية المتفجرة بالهذيان . ربما  
كان ضجيع السيل ابها . وذنّت منه تتبينه ، على ضوء مصباحها  
المغلف بالزجاج ، المرتجف في يمينها ، وكل ما فيها على ارتعاش  
وهلع . نامة تذهب بلبها . وصاحت صيحة كالعواء . هذا ابوها .  
ابوها سعيد جبور الباحث عن حتفه ، وقد بات منه حب الموت  
هوى ملحاً . ونادت باعلى صوتها ، بصوت يستطيل فيه الرعب :  
ابي ، ابي !

فاستفاق وهو يسمع الصيحة . وفتح عينيه ببطء ، كأن  
الاهداب تعاند في الانسلاخ . وانطلقت من شذقيه رطانة لم  
يفصح عنها لسانه المعقود . فامسكت سلوى بيمينه ، وهي  
تصرخ مولولة : من رماك في هذه المهلكة ؟ ... هل تخلى عنك

ذوو النجدة ، فما حملوك الى ماواك ؟

واشدت عزيمة وقد عرفت اباه . فانتشلته من الغمرة  
خرقة مبتلة . لم يحفل به احد في تلك الليلة المجنونة ، والحانة  
خلت من الناس . فدعاه الساقى ، قبل الموعد ، الى الانصراف  
لبلوغ منزله بامان . فاطاع مكرهاً . وكان الليل قد جاوز  
الانتصاف . فمشى سعيد جبور الى ماواه يجرّ رجله على عباة  
والتواء . وزلت به القدم ، وهو ينحدر في طريق متعدد  
الدرجات كالسلام ، كثير المزالق ، وقد صقل حجارته وطء  
النعال . فهوى في الارض . وعجز عن النهوض ، فغفا . ومرّت  
به الساقية ، ودغدغته سباط المطر ، فما افاق . وانقطعت الرجل  
في الصخب الهادر ، فظل سعيد جبور في غفوة المطمئن . ونجبل  
من نفسه وقد عرف ابنته . قال : ما حملك على براح المنزل ،  
في هذه الليلة الناقمة ، أمجنونة انت ؟

فاجابت بنزوة من غضب : ما انا بالمجنونة ، بل من يعرفك

وسقاك . ألا يرحم فيك هؤلاء الائمة ربههم ؟

وتأبطت ذراعه تسنده في مشيته . وتدعمهما الريح معاً  
فيتأيل بعضهما على بعض ، كغصنين تجاورا في شجرة تموج . وتمسك  
سلوى بالجدار لئلا تهوي بعيشها . وفي تلك الساعة ، في تلك الساعة  
ليس غير ، ادرك سعيد جبور ظلمه لولديه المسكين على رمق .

وطفت على مسعاه موعظة « ابونا » بشارة ، ففكر في العدول  
عن شذوذه . ولكن ، ليرحم الله سعيداً ، ما انتوى الرفق بنفسه ،  
لاجل ولديه الباقيين على البلية ، حتى مات . فاصيب بعد سقطته  
في العمر بنزلة اطبقت صدره ، واودت به . ونظر الى من حوله ،  
وهو يجود بانفاسه ، لبوصي بولديه خيراً ، فلم يجد حوله احداً .  
بلى ، كان هناك ، في الزاوية ، « ابونا » بشارة يصلي ، ويطلب الى  
خالقه الرأفة بمن ناء بالكوارث الملمة به ، فضاق وسعه عن  
الحلم النديان .

\*

تطير ابناء دير القمر من المنزل الشام ، الاسود العتبه ،  
الجائم بالبيادر على فخامة ورواء . هذه دار مسكونة يعيث فيها  
الشيطان . فكانوا اذا مروا بها ازوروا عنها ، كأنهم من الخطر  
على دني رمية . والطيرة في الجبال كالنقد الوازن ، بضاعة رائجة  
مستفيضة . فهي عادات موروثه ، ولا سيما في انحاء يسكنها  
قوم على ضوولة ، كبقايا الشعر في الجلحة الاكول  
وليس على المتطيرين لومة ، والعتبة اظلت في بضعة اعوام  
اربعة توأبيت ، وخبتمت على داء عقام . وإنما لتوشك ان تقذف  
بالصغير حلیم الى حضن امه وابيه ، والسعال يشتد عليه ، ويلحف

في ايلامه . والذبول يمشي فيه كأنه السقط، لم يبلغ التام . ففي  
وجهه صفرة ، وفي عينيه غؤور ، وتحت المحجرين هلال ازرق .  
اما الشفتان ففي بياض قاتم ، يشيع فيه الفناء  
وبذلت سلوى ، في انقاذ اخيها ، ما أبقى أبوها . وحفزتها الشدة  
الى مبيع المنزل . ولكن من يشتري المأوى الوبيء ؟... فالجميع  
نفضوا ايديهم من الصفقة ، حتى من انطوا على الاحسان والرافة ،  
كأن المنزل باب الجحيم

واستنجدت الفتاة بالصديق الواقي ، بحامل البلم والطيب .  
فحبا « بونا » بشاره ، الى من يعرفهم من المحسنين ، يلج في  
ابتغاء الرفق . ولقي نداؤه مكمناً من مرؤة ، فاقبل من يدفع  
بالمزلة الفخم ثمناً ، ولكنه سُقاطة من بدرة . واضطرت سلوى  
الى المبيع ، لمغالبة الصدمات المتهاكمة على التبيد . فمن لها  
ولاخيها اذا امسكا على الدار ، وليس في اليد بلغة ؟

وابى القدر ان يلقي سلاحه . فانشق الليل عن صيحة مثقلة  
بالولولة والاستغاثة . واسرع الجيران الى مأوى سلوى جبور  
واخيها حلیم ، وركابهم تصطك . فقد دروا منذ سمعوا . مات  
حلیم . وهوت عليه سلوى تحلج شعرها ، وتقبل اخاها الانكد ،  
وتخاطبه بما يذيب الحجر : ولكنك منذ ساعة كنت تضحك ،  
وتعللني بشفائك . فما بك تحن الى امك وايبك واخويك ،

وتختصر اليهم الطريق؟ ... أيقونون ارحم لك مني؟ ... ولمن  
ابقى بعدك؟ ... هلا انتظرت ريثا نذهب اليهم معاً ، يداً  
بيد؟ ... ولكنني بشوق اليهم يضارع شوقك الى مكنز الخنان!  
وتقلبت على جحوظ عينين ، وهذيان . واذا بها تضحك .  
تضحك وترقص في مآتم اخيها . وهوت في الارض زنبقة قصفها  
النوء . فهالت الفاجعتان الناس ، وعراهم منها جمدة . وتضمخت  
سلوى بماء الزهر وقد نثرته القماقم ، تحاول ان تعيد به اليها  
رشدتها . وجاء الطبيب فسلخها من الصراخ والشجو . فهي  
بمحااجة الى السكوت الخاشع . ونهادى الصغير حلیم الى القبر ،  
تضبه صدور فرشت له اضالعها مثوى ومرقداً . قالتراب اوفى  
مودة ، واحنى حشاشة ، من بنيه !

\*

« ابونا » بشارة في غدو ورواح الى حي البيادر، وفي شفتيه  
كلمات كالرواسم ، واحدة اللون والطبيعة : كيف سلوى؟ ...  
هل استفاقت؟ ... ماذا قالت فيما تفتح عينها لليقظة ؟  
ويتكلم همساً . ويطأ الارض برفق ، مخافة ازعاج الفتاة ،  
حتى في غيبوبتها . ويجيبه صوت امرأة بدينة ، شمطاء ، داعسة  
في الحمسين ، يقول : كلما استيقظت تنظر الى ما حولها بيله ،

ثم تنام . فهي لا تشعر بما اصابها ، ولا تدري اين هي !

- والطبيب ؟... ماذا قال الطبيب ؟

- نصح بالرفق ، وبكتمان المصاب عنها اذا تناست ما حلّ بها !

- وهل من خطر عليها ؟

- لم بوضع النطاسي !

ويستقر الكاهن بالزاوية ويصلي . واتفق ، ذات مرة ، لسوى

ان فتحت عينها وهو في صلاته ، يدعو لابنة سعيد جبور بالشفاء .

فجلست في فراشها تضحك كالمعتوهين ، وتقول : ما بكم انقطعتم

عن الرقص والغناء ؟ ... كنت اسمع نغمات المزمار والعود ،

فلماذا الوجوم ؟

ونفضت تريد الرقص في صدر الحجر . فاندفعت اليها حارسة

المنزل تقول : لا تتعبى نفسك . سيقبل المغنون والراقصون .

يكفيك ان تقيمي في فراشك وتنتظري . سادعوكم اليك . فالتعب

لملك لا يجوز !

واكرهتها ، بعباء ، على العود الى فراشها . ولاح للفتاة الكاهن

فانتهرته بغيظ ، صارخة : ولماذا لا يعني لصيق الزاوية ؟... أيشهد

العرس وفي سحنه شؤم الام الشكول ؟

فدمعت عينا « ابونا » بشارة . خشي على الفتاة من مطبق الجنون .

قال : اني اغني ، يا ابنتي . اغني لله كي يشفي المقرحين القلوب !

وهذا الى الطبيب في زيف الجازع ، يستبجث عن النكبة .  
واذا الطبيب على ارتباك . قال بمضض وجهامة : صلّ لاجلها ،  
يا سيدي !

فاهتز الكاهن ، وقد احس بهول الكارثة . واستعطف بلوعة  
المكروب : انقذها ، يا ابني . ابذل في شفائها كل ما حباك  
العلم من معرفة . اهلها ملأوا القبور ، فضنّ بها على الفناء النهم !  
والطبيب من العمر في الرّيق الغضّ ، لين الجانب ، غفيف  
الضير . فاقبل على مداواة سلوى بمجهود المكافح الحصيف .  
سيضمن الخلاص هذه النضاضة المتفرقة من آثار سعيد جبور .  
وقضى الساعات الطويلة ، بجانب الفتاة ، يسخو باو في ما يزخر  
به العلم من وسع . ويحمل إليها طاقات البنفسج واضاميم  
الورد . ويمازحها ويخاطبها بأرقّ كلام . وشاء الحظ ان يفوز  
الاستهواء بالعلة . فأخذت سلوى تستيقظ من خبلها ، وتجدو الى  
الرشد . والتفت الطبيب الى الكاهن يزف اليه البشرى . فاذا  
« بونا » بشارة قد غاب في شكر ربه ، كشرارة انطلقت صعداً  
للاتصال بواهب الرميح ، ومحيي الرميم

\*

لم ينقطع الطبيب سُهيلاً نعمة عن عبادة سلوى جبور بعد  
امتلاكها الصواب . فلا تبرح بجاجة الى علاجه ورفقه . وشجته

فيها فطانتها . وراعه جمالها . فبات يحسّ بدافع إليها .  
وتكلمت النظرات ، فاذا القلبان على وهج من شغف وولوع  
وضجت دير القمر بالحُبر . ودير القمر تقرأ الغيب ، فكيف  
يفوتها حب أضاء ؟... ولكن هل يتزوج سهيل بسلوى ، ولا  
غنى يشفع فيها ، ولا عافية تسعفها في البقاء ، ولا نهيّة سليمة  
تضمن لها الرشد ؟

وجال الحسد جولة طاغية شرهاً الى التبيد . فمانع سهيل  
وعاند . قلبه لا تسطو عليه الترهات . فالفتاة منيعة في عافيتها  
وحجاها . وهو اعلم الناس . أما غناها ، فلن يضير الحب الصادق  
ان يعيش بلا مال . وامام سهيل غده . فما عليه ، وهو الشاب ،  
إذا اختار رفيقة عمره على ثروة في الحسن والأدب ، واملاق  
في النضار ؟

بيد ان الالسن الواشية ، النمامة ، لا تقوى على الامساک  
عن نفث الضغينة . فصاحت به : ولكن اين جهازها ؟...  
أعروس بلا جهاز ؟

فشغله هذا الجهاز ، وما فطن له . وردّد عفواً بينه وبين  
نفسه : « أعروس ولا جهاز ؟ » . ولو كان يملك ما يعينه على  
اداء بدل الجهاز ، لعاهد على بذل ماله . ولكنه حديث العهد  
في الطبابة . فما امتلأت يده ، وهو لا يبرح في السعة رخر



الجناح . وسار الى الفتاة على قلق . ألا تملك ما يساعدها على  
اعداد جهاز العرس ؟

ولطمته الخيبة ، وهو يعلم من سلوى أنها على قلة . وانقطع  
عنها اباماً . لا لجفوة ، بل لامتعاض من نفسه ، وقد خلت يمينه ،  
وهو الشاب المرموق المكنانة ، من قبضة من ذخر ، ينقذ بها قلبه  
من البحران

وهالت القطيعة سلوى ، فحسبتها عدولاً عن الهوى المسموح .  
وتولاها اكتباب قعد بها عن نفسها . واندلع الخوف في « بونا »  
بشارة ، وهي تبدو له في غلواء الشجن . فاستوضح جازعاً : ما  
بك ، يا ابنتي ؟

فما ابطأت في الشكوى . قالت يرطب كلماتها رشاش من  
هاتن الدمع : سهيل وقف عني . فقد مال به عن العودة الي  
جهاز العرس . وانت تعلم أن ما أبقي ابي على وشك النقاد .  
ربما شاء سهيل الخلاص مني ، فاستعان علي بهذا الزعم . سامحه الله !  
وبكت بكاء اليؤوس ، المحطم الغد . فهي تنوح على بقيا  
الاماني المضمحلّة . لطيمة تبكي يتيمة . ونظر اليها « بونا »  
بشارة لفان ، خشيان ، وفي مستدار مقلتيه الذاويتين ، المزمومتين ،  
قطرتان كذوب الشمع ، تنهلان في اسفل الاهداب . واشفق  
على الزهرة من السموم ، فاطرق في تفكير رهيف . ولم تلبث

شفناه ان تفتحنا، تسكبان الامل العذب، على القلب المعوس في  
الاسى . قال : مال ابيك لم ينفد ، يا ابنتي . فلا يزال لدي  
منه حفنة استبقيا لآتيك !

وابتسم . فابتسمت لها الدنيا . لقد عاد اليها سهيل نعمة على  
اجنحة . وبدا سهيل ، وقد شفاه الكاهن الآسي من حيرته .  
طيبب الروح يبرى طيبب الجسد . فاقبل يفحم ضحاً بالاحسد  
الاكول بقدره سلوى على اعداد جهازها . وعقد « بونا » بشارة ،  
بنفسه ، للشاب على الفتاة . هذه مشيئتهما . غير ان المحتشدين  
في العرس ، لاحظوا على الكاهن ، انه عاطل من صليبه ، ومن  
سلسلة الصليب ، والحاتم ، هدية دير القمر اليه . وقد اعتاد ان  
يظهر بها في المجالس المواجهة بالغبطة . فاين هي ، وليس من  
غبطة اوفى من انقاذ قلبين من غدر الزمان الحقود ؟

وتهامست الالسن . ونضحت بالاقاويل . غير ان صوت  
الكاهن علا كرنّة العود، صافياً ، طروباً . وارتفعت تسابجه  
في العرس كانغام السماء . فادهش ، وما تعود الفخفخة والفخامة .  
وغرق بحياه في بشر ندي . ضم القلب الهائم الى القلب الهائم ،  
بجواده ... وبماله . فباع الصليب ، والسلسلة ، والحاتم ، ليحيي  
نفساً جفتها السعادة ، وخاشتتها البسمة ، وهي ما تزال برعماً  
رخصاً ، خميل الزغب ، طري الاكام !

من كتب المؤلف

صرخة الألم

أشباح القرية

أطياف من لبنان

صقر قريش

فقهة الجزائر

وامعتصاه

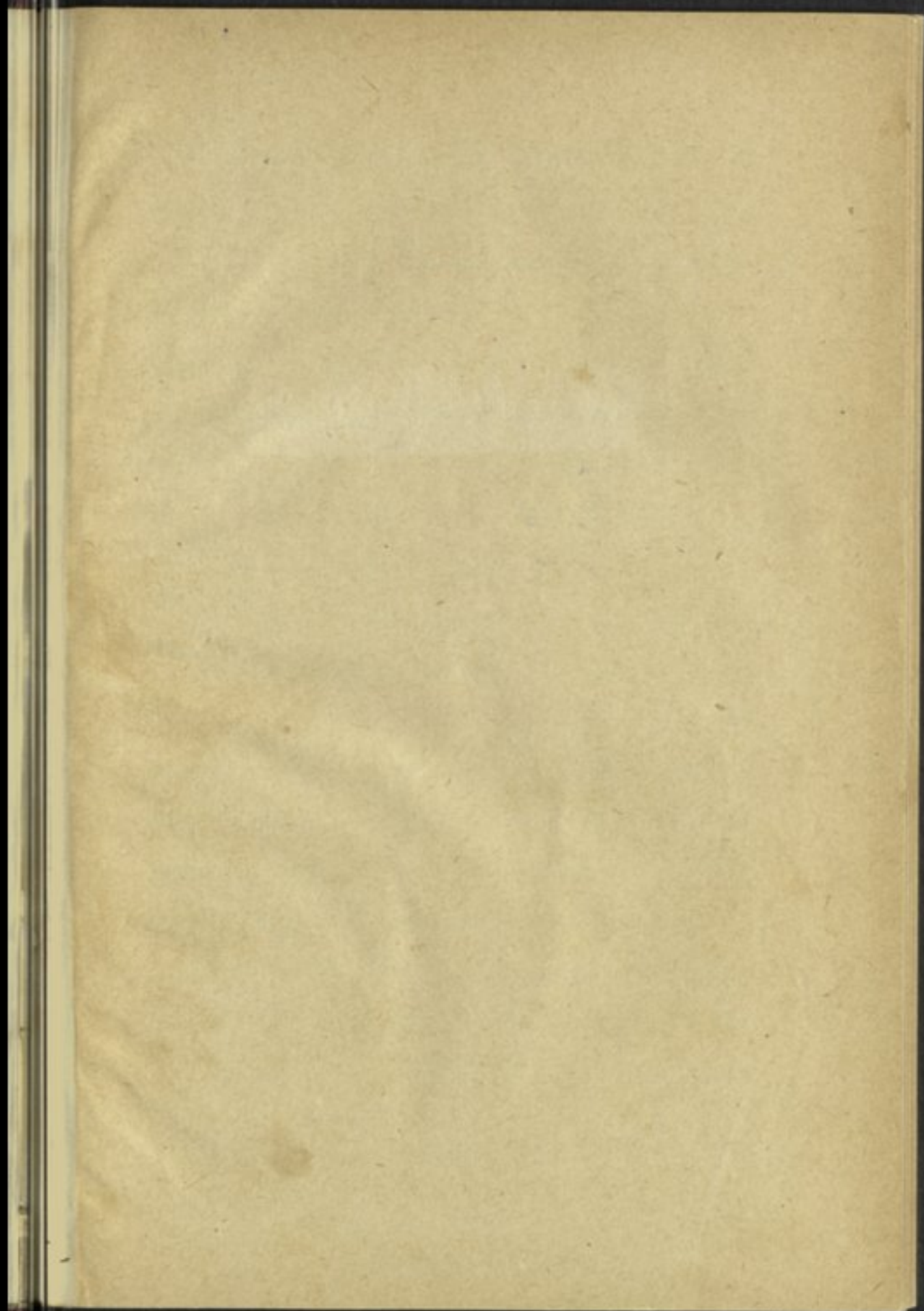
عقراء

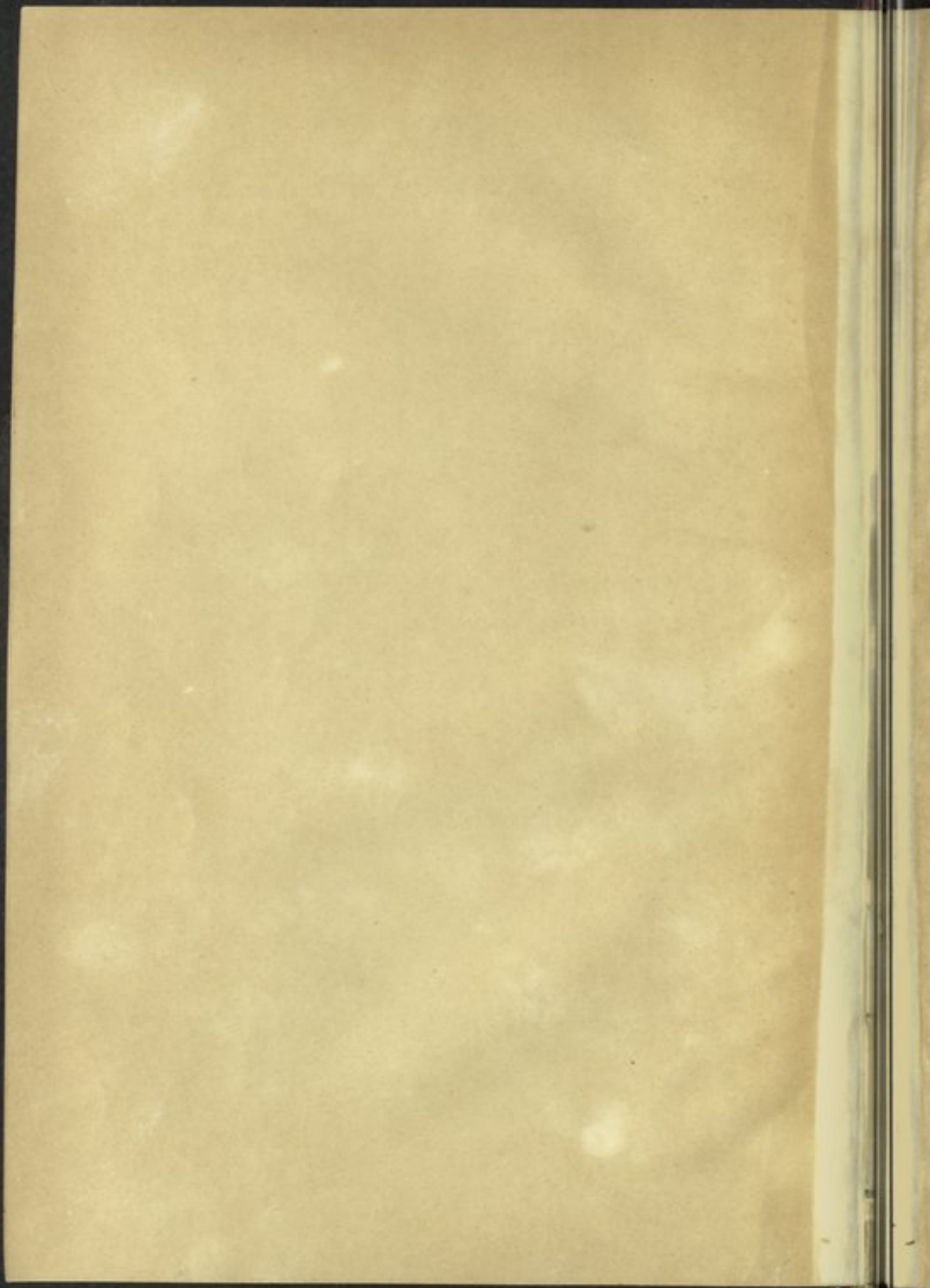
أم البنين

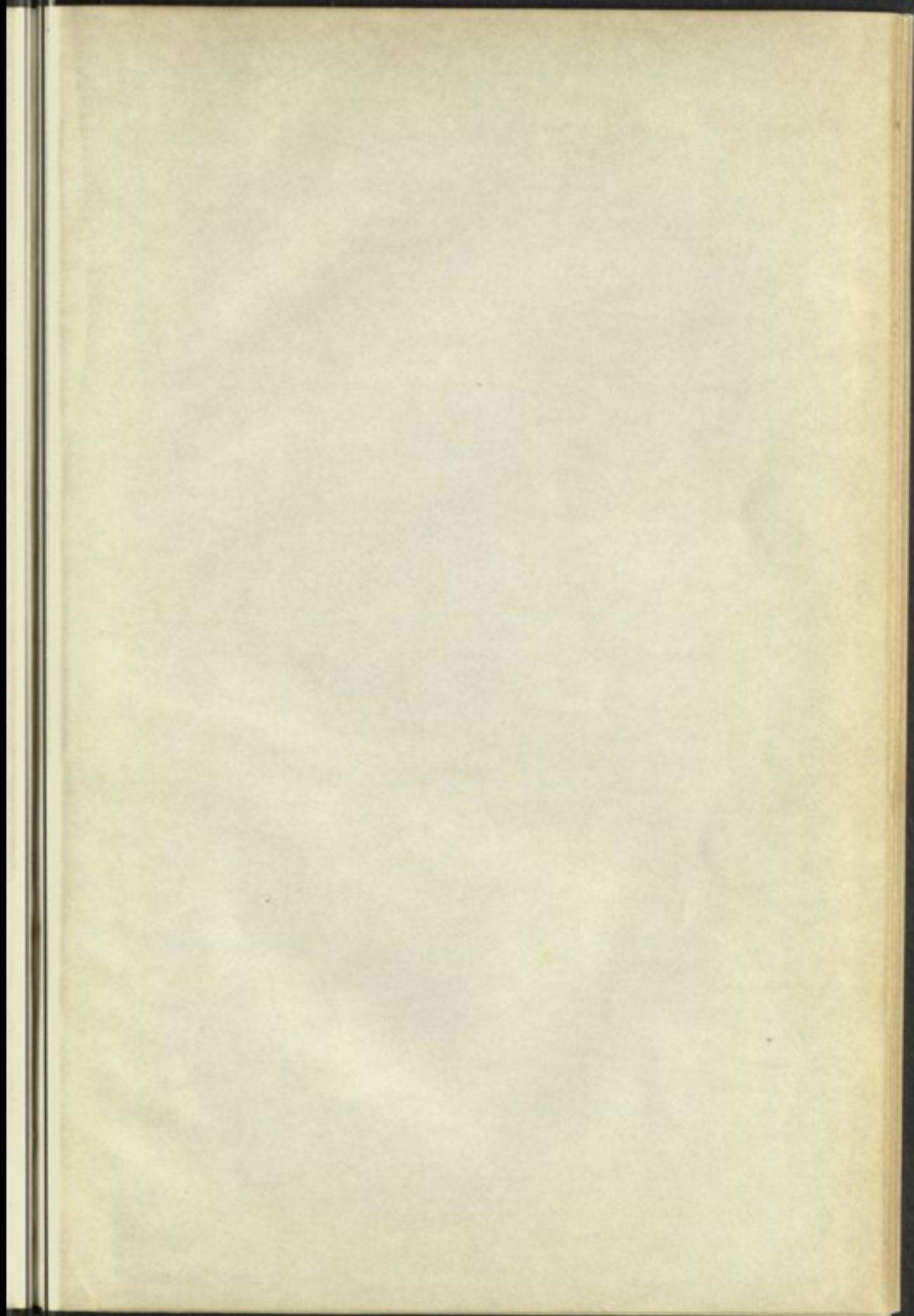
انتقام الخيبران

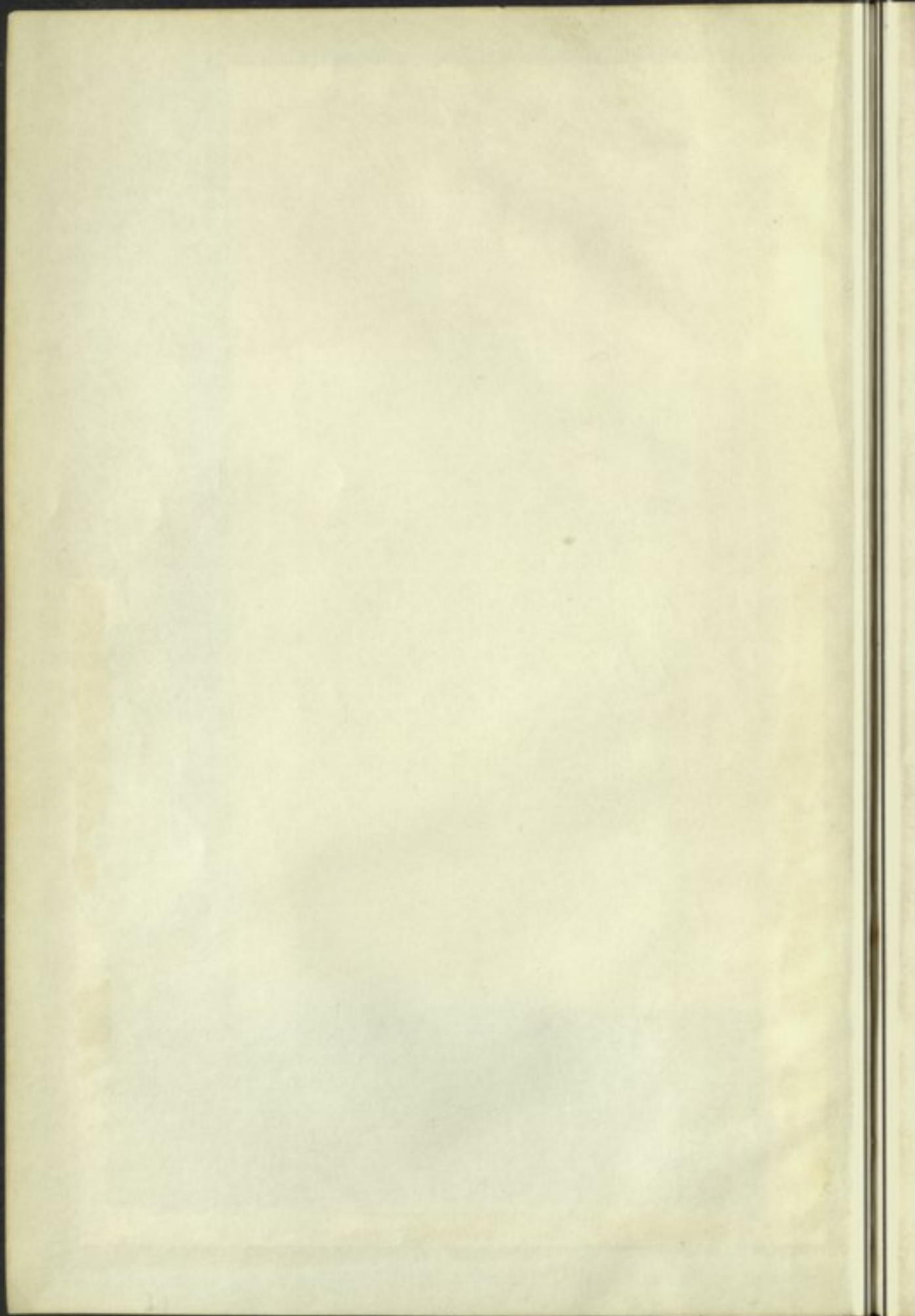
الضفاف الحمر

الشيخ قرير العين









DATE DUE





كرم، كرم ملحم  
اطياف من لبنان

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01038015

